حضارة مصر اليونانية - الرومانية والبيزنطية

وعلم البردى

مصر

من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي

دراسة فى انتشار الحضارة الهلينية واضمحلالها

ه . آيدرِس بل

أستاذ شرف علم البردى بجامعة اكسفورد

نقله إلى العربية وأضاف إلى حواشيه

دكتور
عبد اللطيف أحمد على
أستاذ مساعد بجامعة القاهرة

دكتور
محمد عواد حسين
أستاذ مساعد بجامعة عين شمس

ملتزمة النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

القاهرة
١٩٥٤

تصـــدير

حفزتنا على تعريب هذا الكتاب دوافع كثيرة ، فى مقدمتها أن مؤلفه عالم ثقة قضى معظم حياته عاكفاً على دراسة الوثائق اليونانية واللاتينية الخاصـــة بتاريخ مصر من فتح الاسكندر الأكبر حتى دخول العرب ، فنشر مئات من أوراق البردى اليونانية ، وكتب كثيراً من البحوث القيمة فى شتى المجلات العلمية ، وألقى من المحاضرات مالا يحصره العد . وكتابه الذى نترجمه اليوم يتضمن مع صغر حجمه عرضاً دقيقاً لأهم مظاهر حضـــارة مصر فى عصورها البطلمية والرومانية والبيزنطية ، مع فصل ممتع عن أوراق البردى، التى استقى المؤلف منها معظم الحقائق ، وعن علم البردى ، الذى لم يلق بعد فى مصر العناية اللائقة به . وليس هناك فيما نعلم كتاب واحد فى اللغة العربية يتناول حضارة مصر فى جميع هذه العصور .

ولما كان الكتاب فى الأصل حلقة من المحاضرات ، فقد اقتضى التعريب إدخال بعض التعديلات على شكله لفائدة القراء . فمن ذلك مثلا أننا وضعنا عنـاوين فرعية جانبية لتنظيم الانتقـال من نقطة إلى أخرى ، ونقلنا الحواشى الملحقة بآخر الكتاب إلى ذيول الصفحات

لتقريبها من المتن ، وأضفنا إليها أحياناً حواشي أخرى إتماما للفائدة أو توضيحاً لما قد يبدو غامضاً ، واضعين أرقام حواشينا بين قوسين مربعين ، وكان المؤلف قد وضع المراجع العامة والخاصة فى آخر الكتاب ، فرأينا أن نلحق بآخر كل فصل المراجع الخاصه به ، فيما عدا مجموعات الأوراق البردية المدمجة أصـــلا ضمن مراجع الفصل الأول ، فقد آثرنا أن ندمجها مع المراجع العـامة فى آخر الكتاب . وأضفنا إلى هذه بعض أسماء المؤلفات الهامة ولا سيما التى ظهرت بعد نشر كتاب الأستاذ « هـ . ا . بل » ، كما رأينا أن نشفع كل عصر بأسماء ملوكه أو أباطرته .

وقد آثرنا أن نكتب أسماء الأعـــلام الإغريقية بالصورة اللاتينية لأنها مألوفة للقراء وأكثر شيوعا من الصورة اليونانية . وفى تعريب أسماء الأعلام كتبنا المشهور منها بصورته المألوفة ، مثال ذلك هيرودوت وأرسطو وأقليدس وقسطنطين وهرقل ، ولكننا لم نلتزم فى غير ذلك من الأسماء قاعدة مطردة ، فحذفنا ، تيسيراً للنطق ، النهاية غير الثابته من بعض الأسماء ، فقلنا مثلا ، أرسطوفان ، وتراجان ، وهادريان ، بينما لم نحذفها من البعض الآخر تجنباً للالتباس .

ويشير المؤلف فى سياق كلامه إلى نصوص على جانب كبير من الأهمية ، وكنا نود أن نترجم الأصول الإغريقية لهذه النصو

وغيرها مما لا تقل عنها أهمية ونضيفها كملحق خاص ، ولكننا أرجأنا ذلك إلى فرصة أخرى نرجو أن تكون قريبة . ومن هذه النصوص « لوحة الوالى » (٣١١ ق . م .) ، و « وثيقة الدخل » (٢٥٨ ق . م .) ، و تعليمات وزير المالية لأحد مرءوسيه (أواخر القرن الثالث ق . م .) ، و « قرار كانوب » (٢٣٨ ق . م .) ، و « لوحة بيثوم » (٢١٧ ق . م .) ، و « حجر رشيد » (١٩٦ ق . م .) و « قرارات العفو » (١١٨ ق . م .) من عصر البطالمة . وخطاب الامبراطور كلوديوس إلى أهل الاسكندرية (٤١ م.) ، ومنشور الحاكم تيبيريوس يوليوس الاسكندر (٦٨ م .) ، والقواعد المالية لمراقب الحسابات (القرن الثانى الميلادى) ، ودستور كراكلا ، (٢١٢ م .) من عصر الرومان .

وبعد ، فقد بلغ « سير هارولد آيدرس بل » ، مؤلف الكتاب ، الخامسة والسبعين من عمره فى أكتوبر ١٩٥٤ . وبهذه المناسبة صدر العدد الأخير من « مجلة علم الآثار المصرية » (J.E.A.) تكريماً له واعترافاً بفضله ، ويسرنا أن نشارك أساتذة التاريخ والدرسات القديمة هذا الشرف فنهدى له هذه الترجمة .

ديسمبر ١٩٥٤
القاهرة

مقدمة المؤلف

يتضمن هذا الكتاب كما يتبين من صفحة العنوان « محاضرات جريچينوج » التي ألقيت تحت رعاية مؤسسة الآنسات ديڤيز جريچينوج بجامعة ويلز ، أبريستويث ، فى نوفمبر ١٩٤٦ . وينص أحد شروط المؤسسة على ضرورة نشر المحاضرات بعد إلقائها . وعند إعداد هذه السلسلة للنشر ، حولت المحاضرات إلى فصول ، واغتنمت الفرصة لا لتنقيحها فحسب ، بل للتوسع فيها بعض الشيء حتى أجعل منها، نظراً لموضوعاتها المتشعبة ، دراسة أكثر استيفاء مما كان ميسوراً فى محاضرات كان المقصود أن يستغرق إلقاء كل منها حوالى ساعة من الزمن. وفيما عدا ذلك فقد طبعت المحاضرات كما ألقيت .

وقد أعدت المحاضرات لتلقى على لفيف من أعضاء هيئة التدريس بالكلية والطلبة والجمهور العام . ولم يكن من المتوقع أن يوجد بين المستمعين ـ إذا وجد ـ أكثر من واحد أو اثنين ممن تتوفر لديهم دراية المتخصصين فى علم البردى . ومن ثم فقد رأيت من الأوفق ، طالما أن معظم أدلتى مستمد من أوراق البردى ، أن أستهل حديثى بنبذة عن هذه الوثائق وعن علم البردى . ومن الواضح أنه لم يخطر على بالى أن أسرد فى الفصول الثلاثة الباقية تاريخ مصر السياسى سرداً

متصلا خلال فترة الألف عام تقريباً التى تقع بين غزو الاسكندر وفتح العرب ، حتى ولو توفرت المعلومات التى تجعل هـذا العمل أمراً ميسوراً . وإنما أردت أن أستعرض التطور الاقتصادى والاجتماعى والإدارى استعراضاً موجزاً واضحا سهل القراءة ، بقدر ما وسعنى ذلك ، خالياً من المصطلحات الفنية ما أمكن ، ولم أتعرض للأحداث السياسية إلا بالقدر الذى يقتضيه ارتباطها بالموضوع الأصلى. إن الفكرة الأساسية التى تكسب الكتاب فى مجموعه نوعاً من الوحدة ، كما يفهم من عنوانه التفسيرى ، هى دراسة الحضارة الهلينية وسط البيئة المصرية ، وتفاعل الخصائص الهلينية مع الخصائص المصرية ، والضعف والتدهور التدريجى الذى اعترى العنصر الهلينى .

ومع أننى كتبت أصلا لجمهور غير متخصص، إلا أننى آمل أن يثير الكتاب شغف المتخصصين أيضاً باعتباره، على الأقل، موجزاً ميسوراً عن الموضوع ، ولذلك ألحقت بآخر الكتاب حواشى عن كل فصل سارداً الأدلة التى تؤيد مختلف الآراء ، ومعدلا بعض هذه الآراء التى اضطررت أثناء العرض السريع أن أسردها بصورة يقينية لا تبررها الأدلة كل التبرير ، ولفائدة غير المتخصصين من القراء الذين قد يرغبون فى دراسة الموضوع دراسة أعمق، أشرت إلى الكتب والمقالات التى تنفعهم ، ومن أجلهم أيضاً ألحقت بالحواشى قائمة بمراجع كل فصل ، مسبوقة

بقائمة أخرى بالمراجع العامة التى تتناول الفترة كلها . وقد انتقيت هذه الكتب انتقاء دقيقاً . ولما كان الكتاب موضوعاً فى الأصل للقراء الانجليز ، فقد آثرت ذكر أسماء الكتب الميسورة باللغة الانجليزية ، ولو أننى لم أغفل الكتب المؤلفة باللغات الأخرى عنـــدما لم يكن هناك فى لغتنا بديل يضارعها فى الفائدة . وأما قائمة المجموعات البردية المنشورة التى أدمجتها فى قائمة مراجع الفصل الأول ، مشفوعة بالاختصارات المتواضع على استعمالها عند الإشارة إليها ، فتكاد تكون كاملة ، ولم أحذف منها سوى بعض مجموعات ثانوية ، ويجد القارىء قائمة أوفى من هذه ، تتضمن البرديات الديموطيقية والقبطية ، فى الكتاب التالى :

W. Peremans and J. Vergote, Papyrologisch Handboek (Louvain, 1942), pp. 5-16.

وأود أن أعبر عن امتنانى للمدير إيفور إيفانس ولأولى الأمر بجامعة ويلز على ما هيأوه لى من فرصة القيام بمهمة أدخلت على قلبى السرور الشديد ، ولمندوبى مطبعة كلارندون على اضطلاعهم بالنشر ، ولاسيما السيد ك . هـ . روبرتس الذى قرأ جميع أصول الكتاب وأبدى بعض الملاحظات القيمة ، والسيد ث . ك . سكيت ، أمين المتحف البريطانى الذى فحص بعض المراجع فى مؤلفات غير ميسورة لى فى أبريستويث.

إن حياة التقشف التى نحياها اليوم لا تسمح بصفحات إهداء
من الطراز القديم ولهذا فقد حشرت هنا إهداء لصديق قديم :

فيلهلم شوبارت
رمز صداقة وفية

فبراير ١٩٤٨ هـ . ا . بـ

محتويات الكتاب

صفحة

الفصل الرابع

الفصل الاول

الأوراق البردية وعلم البردى

أثر البيئة الجغرافية فى تاريخ مصر وحضارتها

لقد شغلت مصر فى كافة عصور تاريخها مركزاً فريداً إلى حد ما بين أقطار العالم ، ويذكر قراء هيرودوت (Herodotus) تلك الفقرة فى الكتاب الثانى من تاريخه التى يسرد فيها عادات المصريين الغريبة ليدلل على صدق دعواه « بأنهم يخالفون تماماً فى معظم طبائعهم وعاداتهم العرف السائد لدى سائر البشر »(١) . على أن بعض أقواله لا ينبغى أن تحمل محمل الجد، لأن هيرودوت ، برغم أنه لم يكن كذاباً كما أتهمه بعض النقاد القدامى والمحدثين ، إلا أنه لم يكن دائماً مدققاً كما ينبغى ، ويبدو أن الأدلاء من الأهالى الذين اعتمد عليهم بلا مراء فى استقاء قدر كبير من معلوماته ، كانوا يتسلون أحياناً "باستغفاله" . بيد أن

---

(١) أنظر : (ترجمة رولنسون Herod. II, 35 (Rawlinson

[وهيرودوت مؤرخ أغريقى ولد حوالى عام ٤٨٤ ق . م بمدينة هليكارناسوس (Halicarnassus) فى آسيا الصغرى . سافر كثيرا ثم استقر فى أثينا . ومات بعد عام ٤٣٠ ق.م. ويتألف تاريخه من تسعة كتب تحمل أسماء ربات الفنون (Musae) وتتضمن وصفاً للحروب الميدية ولاحوال البلاد التى زارها . وقد زار مصر بين عامى ٤٤٨و٤٤٥ ق.م. وكانت وقتئذ ولاية فارسية . وشيشرون الخطيب الرومانى هو الذى أطلق عليه لقب « أبو التاريخ » (أنظر *(Cicero, De Leg. I, 5*

وعن هيرودوت فى مصر ، أنظر :

W. G. Waddell, *Herodotus, Book II* (London, 1939), pp. 1-15.

الفقرة التى أشرنا إليها توضح بجلاء معنى الغرابة والتفرد الذى استشعره هيرودوت وغيره من الرحالة فى مصر .

ويعزى هذا الطابع الفريد آخر الأمر إلى عوامل جغرافية ومناخية: إن مصر الحديثة تمتد على وجه التقريب من خط ٣٥ إلى ٢٥ درجة طولا ومن خط ٣١ إلى ٢٢ درجة عرضاً ، وتبلغ مساحتها ٣٨٦٫١١٠ من الأميال المربعة ، غير أن الجانب الأكبر من هذه المساحة صحراء غير مأهولة . ولا تشغل مصر الحقيقية ، مصر التى يستطيع أن يعيش فيها البشر ويزرعوا الأرض ، سوى ١٣٫٥٧٨ ميلا مربعاً ، وهى مساحة لا تزيد كثيراً عن مساحة بلجيكا (١١٫٧٥٠ ميلا مربعاً) . ويمكن تقسيم مصر الآهلة بالسكان إلى ثلاثة أقسام ، أولها الدلتا وهى رقعة من الأرض الغرينية أطلق عليها هيرودوت ومن قبله هكاتيوس (Hecataeus) اسماً موفقاً كل التوفيق وهو « هبة النهر »[١] . وقد تكوّنت التربة فى فجر العصر الحجرى القديم من الطمى الذى كان النهر الدافق يجلبه معه ويرسبه عندما يتصل بالبحر ، وثانيها عدد من الواحات تروى باستثناء واحدة بالآبار أو العيون التى تتصل بالمياه الجوفية ، وثالثها وادى النيل ،

(١) أنظر : Herod. II, 5.

[وهيكاتيوس هو أحد المؤرخين الاغريق الاوائل ، ولد فى ميليتوس (Miletus) بآسيا الصغرى واشترك فى الثورة الايونيه (٥٠٠ ـ ٤٩٤ ق٠م٠) وزار أقطارا كثيرة منها مصر ، وكتب فى الانساب وسير الابطال والتاريخ ورحلة قام بها حول العالم المعروف على أيامه ٠ وقد نقل عنه هيرودوت ٠]

وهو فى الواقع خانق بين التلال التى تكوّن حافة الصحراء العربية على جانب وحافة الصحراء الليبية على الجانب الآخر . وهذا الوادى ضيق جداً ويبلغ أقصى اتساع له حوالى أربعة عشر ميلا، ولكن متوسط عرضه يبلغ فى مصر الوسطى حوالى تسعة أميال ، وينكمش فى مصر العليا إلى ميل أو ميلين ، ويضيق فى بعض الأماكن فلا يزيد عن شريط ضيق من الأرض المنزرعة على إحدى ضفتى النهر فقط . ومصر فى شكلها تشبه سمكة ذات رأس ضخم وذيل متناه فى الطول ، ويبلغ طول هذا الذيل من القاهرة حتى الحدود الحديثة شمالى وادى حلفا حوالى ٥٦٠ ميلا إذا سرنا فى خط مستقيم ، ولكن إذا سرنا مع منحنيات الوادى فهو يبلغ حوالى ٧٦٠ ميلا . وأما المسافة إلى أسوان حيث كانت حدود مصر القديمة تنتهى فى الواقع خلال فترات طويلة من تاريخها ، فلا تكاد تبلغ ٥٥٠ ميلا .

وتعتمد كل هذه المنطقة على الرى فى وجودها كمركز من مراكز الحياة البشرية . صحيح أن المطر يسقط أحياناً فى فصل الشتاء فى الدلتا والقاهرة ، ولكنه يقل كلما اتجهنا جنوباً ولا تراه الأقصر إلا حوالى مرة كل ثلاث سنوات ، غير أنه لا يسقط فى أى بقعة بغزارة أو انتظام بحيث يكفى لنمو النبات . ولعلنا لا نجانب الصواب كثيراً إذا قلنا إنه ليس ثمة سنبلة من قمح أو عود أخضر ينمو فى أى مكان

بمصر إلا بعد ريه ، إما بماء الفيضان الطبيعى وإما بإحدى طرق الرى الآلى . فليست الأراضى المهجورة فى البلاد المصرية مكسوة - كما هو الحال عندنا - بالحشائش ، وإنما هى بقاع جرداء قاحلة . ويتبين ذلك بوضوح للمسافر عن طريق الخط الفرعى من الواسطى على النيل إلى مدينة الفيوم ، فعند نقطة على الطريق يرتفع مستوى الأرض فجأة حوالى قدم ، ويرى المسافر على الجانب المنخفض من هذه الأرض حقولا خضراء مثمرة ، ولا يرى على الجانب المرتفع سوى صخوراً ورمالا قفراء .

وكما ذكرنا فإن الواحات - وهى عبارة عن منخفضات فى الهضبة الصحراوية - تروى بالآبار أو العيون ، ولا يستثنى من ذلك سوى أكبر هذه الواحات وأقربها إلى وادى النيل ، ألا وهى إقليم الفيوم الذى يقع على مسيرة بضعة أميال من الحافة الغربية للوادى ، ويروى بواسطة بحر يوسف الذى اشتق اسمه من الأسطورة القائلة بأنه حفر على يد يوسف عندما كان والياً على مصر فى عهد فرعون . وبحر يوسف فى حقيقة الأمر هو أحد فروع النيل الطبيعية ، ويتفرع من المجرى الرئيسى بالقرب من أسيوط . وبعد أن يروى الفيوم يفرغ مياهه المتبقية فى بحيرة تعرف الآن باسم بركة قارون ، ولكنها كانت

تعرف فى العصور القديمة باسم بحيرة مويريس (Moeris) [١]

ويستخلص مما ذكرته ، أو بعد إلقاء نظرة عاجلة على خريطة التضاريس ، أن مصر قطر منعزل كل الانعزال ، منفصل عن سائر العالم بصحراوات شاسعة على جانبيه ، ولهذا فإن مصر بلد من الصعب غزوه . وإنى لأذكر كيف سخرت من محاولة أحد الصحفيين تهدأة الخواطر ، يوم أعلنت تركيا الحرب علينا فى الحرب العالمية الأولى ، بقوله أن مصر لم يوفق أحد فى غزوها أبداً من ناحية فلسطين ، وكان الأقرب إلى الصواب أن يقال ؛ وإن كان الكلام لا يزال بعيداً عن الدقة ، إنه لم يوفق أحد فى غزوها من أية ناحية أخرى . فالعدو الزاحف من ناحية البحر يجد نفسه عرضة للوقوع فى شراك شبكة من القنوات التى تقطع الدلتا ، مثلما حدث للجيش الصليبى تحت قيادة القديس لويس ملك فرنسا فى عام ١٢٤٩ - ١٢٥٠ م . ومثلما حدث « لشعوب البحر » من قبله بزمن طويل على عهد رمسيس الثالث . والزاحف على مصر من ناحية الغرب تعترضه ، كما أدرك روملى بعد انكساره عند العلمين ، صعوبة القتال على بعد مئات من الأميال

[١] وهى تسمى عادة « بحيرة مويريس » وقد أثبت سير آلان ه . جاردنر أن عبارة هيرودوت (*hê Moirios kaleomenê limnê* - البحيرة المعروفة باسم بحيرة مويريس) صحيحة لايكاد يتطرق اليها الشك . انظر : Alan H. Gardiner, J.E.A. XXIX (1943), pp. 37-46.

عن قاعدة تموينه بلا عون ســـوى الصحراء فى مؤخرته ضـــد خصم فى وسعـه أن يستند إلى كافة موارد وادى النيـل . صحيح أن الغزاة وفقوا مرة أو مرتين فى فتح البلاد من جهة الغرب ، مثلما فعل الفاطميون عام ٩٦٩ م ، ومثلما فعـــل نكيتاس (Nicetas) فى حملته التى سأتعرض لها فى الفصل الأخير . غير أن القاعدة صحيحة بوجه عام وهى أن الغزاة الذين وفقوا فى فتح مصر أتوا من ناحيـة الشرق عبر شبه جزيرة سينا زاحفين بمحاذاة الفرع الشرقى للنيـل إلى حيث توجد القاهرة الآن . وأما من ناحية الجنوب فوادى النيل نفسه يهيء مدخلا للغزاة ؛ غير أنه لم يحدث إلا نادراً أن كانت بالسـودان دولة قوية تستطيع أن تهـدد مصر بأكثر من إغارات تخريبية ، هذا إلى أن ضيق الخانق شمالى أسوان ، وصعوبة الملاحـــة الناجمة عن الشلال الأول ، تجعل من السهل الدفاع عن هـذا المدخل الجنوبى للبلاد .

لقد كان للخصائص الجغرافية التى تميزت بها مصر أكبر الأثر فى ارتقاء الحضارة المصرية وفى طابعها : فى ارتقاء الحضارة لأن وادى النيل يتوفر فيه عاملان جوهريان يساعدان على ازدهارها ، فهنـاك من ناحيـة تربة شديدة الخصوبة عنـد ما تروى ريا سليما ، ويزيد من خصوبتها سنويا الغرين والطمى اللذان يرسبان زمن الفيضان ، وهناك

من ناحية أخرى ، الحاجة الدائمة لبذل الجهد ، وهو جهد تعاونى فى طابعه ، لتنظيم المياه وحفظها فى فترة انخفاض النيل ، ومسح الأراضى التى يطمس الفيضان حدودها فى كل عام . فليست مصر بلداً يستطيع الإنسان أن يعيش فيه عيشة الدعة يجنى الثمار التى تغدقها عليه طبيعة سخية دون أن يبذل جهداً من ناحيته ، ولا هى بالبلد الذى يستطيع الإنسان فيه أن يقيم مسكنه ويحرث أرضه ويرعى ماشيته دون أن يتصل بسواه ، ولا هى آخر الأمر بالبلد الذى يتطلب منه كل قطرة من عرقه كى يقيم أوده على أرض جدباء وسط مناخ قاس . فالحاجة إلى بذل الجهود وتوقع جنى محصول طيب إذا ما بذلت ، فضلا عن بعض فائض يتيح قيام نظام اجتماعى راسخ وطيد ، كل أولئك أسس الحضارة — فلا عجب إذن أن كانت مصر وبلاد ما بين النهرين ووادى السند هى المواطن الأولى التى توفرت فيها مقومات التطور من الهمجيه إلى المدنية .

وقد أثرت التضاريس أيضا فى طابع الحضارة المصرية ، فقد عاش المصريون فى واديهم الطويل الضيق تفصلهم عن العالم الخارجى صحروات شاسعة على الجانبين، ولذلك كانوا دائماً شعباً منعزلا بعض العزلة وعلى الأقل قبل ارتقاء وسائل النقل الحديثة . وكان يقطن فى الجنوب ، حيث يجيء خانق النهر مدخلا إلى البلاد ، شعوب كانت على الدوام أقل منهم

تحضرا ، ولم تكن لهم صلات بحضارات تضارع حضارتهم أو تفوقها إلا عن طريق البحر وعن طريق الدلتا ، فكان من الطبيعى أن تكون نظمهم السياسية مستقلة بذاتها إلى حد بعيد ، مقصورة فى أحوال كثيرة عليهم ، وأن يتمسكوا كل التمسك بعاداتهم الموغلة فى القدم ، وأن يتولد فيهم أيضاً قدر من العزلة الروحية والاعتداد القومى ، وهى صفات فى وسعنا أن نلمسها فى كثير من الأساطير والقصص المصرية .

وهناك نتيجة سياسية أخرى ينبغى أن نذكرها ، فالنيل فى الواقع يهيء بواديه الطويل الضيق طريقا رائعا للمواصلات ، غير أنه سريع التيار . ومن المستبعد أن الاتصال بين مصر العليا ومصر السفلى كان يتم على وجه السرعة قبل اكتشاف قوة البخار . وكانت العاصمة فى العصور التاريخية موجودة عادة إما فى الدلتا أو على مقربة منها ، أو موجودة فى أقصى الجنوب بأقليم طيبة ، وبعبارة أخرى كان الطرف الشمالى أو الطرف الجنوبى للبلاد بعيدا عن مقر الحكومة ، وهذا يفسر ظاهرة متكررة الحدوث فى التاريخ المصرى ، وهى صعوبة الاحتفاظ بالوحدة ، وميل الأطراف إلى الإنفصال كلما كانت الحكومة المركزية ضعيفة .

وهناك آخر الأمر نتيجة قد ظهرت أهميتها لا بالنسبة للتاريخ نفسه بل للمؤرخ . ذلك أن تربة مصر الجافة لا تفوقها تربة أخرى فى قدرتها

على حفظ الأشياء المطمورة بها . فالمواد القابلة للتلف كالورق والرق والنسيج والخشب لا بد من أن تتلف عاجلا أو آجلا فى الأرض الرطبة بأقطار أوروبا وآسيا، ولكنها تكاد لاتبلى أبداً فى الرمال التى تحف فى كل مكان بمناطق مصر الزراعية ، إذا توافرت الظروف المواتية . بيد أن الظروف ليست مواتية دائماً ، فالرياح الشديدة التى تهب من الصحراء تجعل الرمال الطليقة تتدحرج وتتطاير فيؤدى الاحتكاك فى فى معظم الأحيان إلى تشويه الأوراق البردية المدفونة بها ، كما قد يلتهم النمل الأبيض البردى أو الكتان أو الخشب . على أن هذه العوامل لا تحدث دائماً ذلك التأثير ، فقد حصلنا من أرض مصر على ثروة من الوثائق المكتوبة على البردى أو غيره من المواد ، وهذه الثروة أوفر بكثير مما تيسر لنا الحصول عليه من أى قطر آخر فى العالم القديم .

كيف تصنع أوراق البردى :

إن هذه المحاضرات تستند قبل كل شيء إلى الحقائق المستمدة من تلك الوثائق . لكن يجدر بى قبل أن أذكر أى شيء عن الوثائق نفسها ، أن أتناول البردى كمادة للكتابة وتاريخ الاكتشافات البرديه . كانت المادة المستعملة قديما للكتابة ، وهى التى تقابل الورق فى العصر الحديث (والتى أخذ الأخير اسمه عنها)[١] تصنع من ساق البردى ،

[١] يقصد المؤلف ان كلمة paper الانجليزية مشتقة من كلمة papyrus (بردى)]

وهو نبات مائى كان ينمو قديما بكثرة فى مستنقعات مصر السفلى ، غير أنه انقرض اليوم هناك . ويبدو فى اعتقاد كثير من الناس أن ورق البردى كان يصنع من قشر النبات ، ولكن هذا اعتقاد خاطىء ، فساق البردى المثلثة الشكل تحتوى على لباب لين ذى عصارة لزجة جدا ، وكان الورق يصنع بتقطيع هذا اللباب إلى شرائح رقيقه ، ووضع عدد من هذه الشرائح جنبا إلى جنب ، ثم وضع طبقة ثانية منها فوق الطبقة الأولى بحيث تكون متقاطعه معها . وبعدئذ تلصق الطبقتان بضغطهما لأن لزوجة العصارة كانت تكفى ، بعد إضافة قليل من ماء النيل ، لتأدية الغرض . وليس هناك دليل ملموس ، فيما أعلم ، يؤيد الرأى القائل بأن الصمغ الصناعى كان يستخدم لذلك . وهكذا تتكون ورقة تظهر الألياف على أحد جانبيها رأسيه وعلى الجانب الآخر أفقيه ، ثم تطرق الورقة بمطرقة خشبية لتسوية الألياف الخشنة ، وبذلك تصبح صالحة للكتابة عليها [1] . ولم تكن أفرخ الورق (التى يسمى كل منها (kollêma)) تباع منفرده ،

---

(١) يجد القارىء شرحا لطريقة صناعة ورق البردى فى :
Plin. *Hist. Nat.* XIII, 74, 77-82.
أنظر أيضا :
N. Lewis, *L'Industrie du Papyrus*, pp. 46 ff.
(حيث يذكر المؤلف النصوص المتصلة بالموضوع ويترجمها ويناقش مضمونها)
[وانظر الآن :
A. Grohmann, *From the World of Arabic Papyri* (Cairo, 1952), pp. 1-44.]

بل كانت تلصق أطرافها بعضها ببعض بمعجون خاص فتكون من ذلك لفافة طويلة. وعلى هذه الصورة كان البردى يخرج من المصنع، ويقتطع المشترى من اللفافة القدر الذى يحتاجه لتأدية غرضه. وكان يراعى عند عمل اللفافة أن تلصق أطراف الأفرخ بعضها بالبعض الآخر بحيث تكون جميع الألياف الأفقيه على جانب، والألياف الرأسية على الجانب الآخر. وكان وجه الورقة (recto) الذى تكون فيه الألياف أفقيه، هو المخصص أصلا للكتابة، غير أنه كان من السهل أيضا أن يكتب على ظهر الورقة (verso). صحيح أنه قلما كان النص المدون على « الوجه » يستكمل على « الظهر »، غير أنه كثيراً جداً ما كان البردى " المستعمل " يستخدم بعد الاستغناء عن النص المدون على « الوجه »، إما لتدوين الخطابات الخاصة والحسابات والمسودات وصور الوثائق الرسمية والقانونية والمذكرات، أو لنسخ المخطوطات الأدبية الرخيصة وخاصة — وإن كنا لا نستطيع أن نجزم بذلك — تلك المخطوطات التى كان المقصود منها أن تكون كتبا مدرسية.

وكان هناك استثناء واحد من القاعدة التى تقضى بأن تجرى ألياف جميع الأفرخ (kollêmata) فى نفس الاتجاه، فقد كان الفرخ الخارجى، المعروف باسم (prôtokollon) أو الفرخ الأول، يلزق

بما يليه من الأفراخ مقلوبا ؛ فتكون الألياف الرأسية على « الوجه » والأفقيه على « الظهر » . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الطرف الخارجى فى أى لفافة طويلة يتعرض دائما للشد . فلو كانت الألياف على ظهر هذا الفرخ أفقيه ، لا نفصم بعضها عن البعض الآخر وتفكك البردى . وتلافياً لذلك كان الفرخ الأول يوضع بحيث تكون الألياف الأفقية على « الظهر » . وكان من المألوف فى العصر البيزنطى ، وربما أيضا فى العصر الرومانى ، أن يكتب على « وجه » الفرخ الأول من اللفافه (prôtokollon) عنوان باسم ولقب الموظف (وهو صاحب الهبات المقدسة فى العصر البيزنطى) [١] الذى كان احتكار صناعة البردى يدخل فى دائرة اختصاصه (٢) . وبمضى الزمن أصبح الاسم

---

[١] وهو فى الواقع أحد وزيرى المالية فى العصر البيزنطى ، وقد سمى كذلك (comes sacrarum largitionum) نظراً الى أنه عندما أنشىء هذا المنصب كانت مهمته الرئيسية هى توزيع هبات الامبراطور بين الجند ، أنظر :

J. B. Bury, *History of the Later Roman Empire* I (1931), p. 51, n. 2 ; N. Baynes, *The Byzantine Empire* (11946), p. 117 ; A. Grohmann, *From the World of Arabic Paypri*, p. 33 f.

(٢) هذه العبارة تتفق مع الرأى القديم القائل بأن الحكومة كانت تحتكر صناعة البردى فى العصر البيزنطى ، غير أن الاستاذ ن. لويس فى كتابه المذكور أعلاه (ص١٠ حاشية ١) يعارض هذا الرأى (ص١٥٩، ـ١٦٣) ، وقد يكون مصيبا فى ذلك ولو أننى لا أجد حججه مقنعة كل الاقناع .

(prôtokollon) يطلق على هذا العنوان ؛ ثم صار يطلق فيما بعد على النص الذى يلى العنوان . ومن هنا جاء استعمالنا لكلمة «بروتوكول[١]» . وإن كان معناها فى الأصل هو « الفرخ الأول » .

مواد الكتابه الاخرى :

ولم يكن البردى هو المادة الوحيدة المستعملة للكتابة فى مصر أو فى العالم القديم عموما . فقد استعملت الجلود المدبوغة فى أقطار عديدة من بينها مصر ، وكان الرق (vellum) الذى غدا فيما بعد المادة الرئيسية للكتابة خلال العصور الوسطى ، يصنع من الجلد بعد أن ارتقى فن الدباغه . ولا يظهر الرق بين ما عثرنا عليه من آثار مصر اليونانية — الرومانية التى يرجع تاريخها إلى ما قبل القرن الثانى الميلادى ، ولكن استعماله أخذ يشيع تدريجيا منذ ذلك التاريخ . ولدينا قطع عديدة منه ترجع إلى العصر البيزنطى ، ومعظمها مؤلفات أدبية أو لاهوتيه ، وإن كانت تتضمن بعض الوثائق .

وكان الفخار أعم استعمالا من الرق ؛ فالفخار الخشن ، ذو المسام ، الضارب إلى الحمرة ، المستعمل فى مصر وغيرها من البلاد ، ينطبع المداد عليه بسهولة . ولما كان من المستطاع التقاط القدور المكسورة من أى كوم من أكوام القمامة ، فلم تكن هناك مادة أرخص من الفخار

[١] ومعناها فى لغة السياسة النص الاول لمشروع اتفاقية موقع عليه بالاحرف الاولى من أسماء المفاوضين .

أو أيسرمنالا . وقد استخدمت كسر الفخار أو الشقافات (ostraca) فى شتى الأغراض العابرة ، وخاصة لتدوين إيصالات الضريبة ، وكذلك الخطابات الخاصة والمذكرات والحسابات والتمرينات المدرسية . وكان الناس يلجأون فى بعض مناطق مصر حيث يتوفر الحصول على الحجر إلى استعمال ألواح من الحجر الجيرى الذى تسهل تسويته . وتحشر مثل هذه الألواح الحجرية فى مجموعات المتاحف مع الشقافات تحت اسم عام هو « Ostraca » .

وكانت الألواح الخشبية من الأدوات الأخرى التى استعملت للكتابة . وهناك طريقتان لذلك : فإما أن تكتب الحروف على الخشب بالقلم والمداد ، وفى هذه الحالة يطلى الخشب فى الغالب بمادة بيضاء لتظهر الكتابة واضحة ، وإما أن يصب شمع منصهر على لوح خشبي ذى حواف بارزة فيتكون بعد أن يبرد الشمع سطح مستو تحفر عليه الكتابة بقلم معدنى مدبب يسمى (stilus) . وكان الطرف الآخر للقلم مستويا بحيث يمكن استعماله لطمس الشمع بعد انتهاء الغرض المطلوب من النص المحفورعليه . وقد زاد من نفع الألواح الخشبية ، ولاسيما فى المدارس، أنه كان من المتيسر الكتابة عليها مرات متكررة . وعندما كان يراد بها أن تستعمل فى المدارس، فأنهم غالبا ما كانوا يربطون عددا منها معاً بالدوبار الذى يمرر من ثقوب بالحواف البارزة للألواح .

وكانوا لا يكسون من اللوحين الخارجيين بالشمع سوى جانبيهما الداخليين ،فتبدو مجموعة الألواح الموصولة على هذا النحو — والتي يطلق عليها اسم codex — شديدة الشبه بالكتاب الحديث . والواقع أن الـ codex [كراسة أو دفتر] ، كشيء متميز عن اللفافة ، قد اشتق شكله واسمه من مثل هذه الألواح الموصولة . ولم يكن استعمال الألواح الخشبية مقصورا على المدارس بأي حال ، إذ كانوا يستعملونها لكتابة المذكرات والحسابات ومسودات المؤلفات الأدبية والرسائل الخاصة ، وتحرير أنواع شتى من الوثائق القانونية وخاصة المستندات، كالوصايا وشهادات الميلاد وأوامر تعيين الأوصياء القضائيين ، وما إلى ذلك . وقد استخدموا في الشئون القضائية والرسمية ما يعرف باسم (diptycha) ، وهو عبارة عن لوحين موصول أحدهما بالآخر . وكانت الوثيقة تكتب من صورتين إحداهما على الشمع الذي يكسو الجانب الداخلي ، والأخرى على الخشب بالقلم والمداد على الجانب الخارجي ، ثم يطوى الشهود اللوحين ويضعون عليهما الاختام ويوقع كل منهم باسمه أمام ختمه على الخشب ، فاذا حدث أن طعن شخص في صحة النص الخارجي (scriptura exterior) ، عندئذ تفض الأختام لمضاهاته بالنص الداخلي (scriptura interior) (١)

---

(١) يجد القارىء وصفا ممتعا مفيدا مزودا بالصور والرسوم لتركيب Codex مؤلف من عدة ألواح في حالة جيدة جدا ، يحتوى على وصية باللغة اللاتينية في المقال التالى :
O. Guéraud & P. Jouguet, «Un testament latin *per aes et libram* de 142 après J.-C.», *Etudes de Papyrologie,* VI (1940), pp. 1 ff., plates i — vi.

وأخيراً عثرنا فى مصر ، كما هو الحال فى سائر أقطار العـــالم اليونانى ـ الرومانى ، على كثير من النقوش المحفورة على الحجر أو البرونز

أين توجد أوراق البردى :

لقد ذكرت أن أرض مصر تحفظ فى جوفها أكثر المواد قابلية للتلف . بيد أن هذا الـكلام لا ينطبق إلا على مناطق معينة من مصر . فالبردى يتلف بسرعة من الرطوبة برغم أنه مادة متينة حافظة لـكيانها عندما يستعمل بشىء من العناية . فمن العبث إذن أن نبحث عنه فى أى بقعة يصلها ماء الفيضان . ولذلك ينبغى أن يصرف النظر عن الدلتا كمصدر للأوراق البردية . لقد كانت أعظم مـكتبة فى العـــالم القديم موجودة بالاسكندرية التى كانت مركزاً لجامعـة مشهورة ومسرحاً لنشاط أدبى موفور ، فأى نفائس كان لا يتيسر لنـا اكتشافها هناك لو أن الظروف كانت مواتية ! غير أن الاسكـندرية القديمة انخفضت الآن عن مستوى سطح البحر ، ولم نعثر فى أرضها حتى الآن على بردية واحدة . صحيح أنه يوجد لدينا بعض برديات كتبت فى المدينة ، وإنما وجدت جميعها خارج الاسكندرية ، فى مناطق كانت هـذه الأوراق قد نقلت اليها قديماً لأسباب متباينة .

وهناك فى الواقع استثناءان من القاعدة التى تقول بأن أوراق

البردى لاتوجد فى الدلتا . فى شتاء عام ١٨٨٣ - ١٨٨٤ عثر سير فلندرز پترى (Flinders Petrie) فى قبو منزل قوضته النيران بالقرب من الطرف الشرقى من بلدة تانيس القديمة Tanis [صان الحجر] على مجموعة من اللفائف البردية التى تبدو من تأثير الاحتراق كما لو كانت كتلا من الفحم النباتى . وقد حدث اكتشاف آخر شبيه بالاكتشاف المذكور عند موقع بلدة ثمويس القديمة Thmouis [تمى الامديد] التى تقع على بعد حوالى خمسة وثلاثين كيلو متراً جنوبى غرب تانيس . وبرغم أن النيران التى دمرت المنازل قد أحالت الأوراق البردية إلى فحم ، إلا أنها صانتها بذلك من تأثير المياه ، وقد تيسر بسط بعض هذه الأوراق ، ومع أنها رقيقة كالحرير أو الشاش ، إلا أنه من الممكن قراءتها إذا فحصت فى الضوء الملائم . وقد أمدتنا اللفائف البردية اليونانيه التى وجدناها فى ثمويس بمعلومات قيمة عن الأحوال الاقتصادية فى إقليم منديس (Mendes) أثناء القرن الثانى وأوائل القرن الثالث الميلادى (١) .

---

(١) عن برديات ثمويس ، أنظر :
P. Ryl. II, 213-22, 426-33 (a) ;
V. Martin, «Un document administratif du nome de Mendès», *Studien zur Polaeographie und Papyruskunde,* XVII, pp. 9-48.
ونضيف هنا أن الاكتشافات البرديه القليلة التى حدثت فى أماكن خارج مصر تعزى الى أسباب عارضة شبيهة بالتى ذكرناها ، وهذه الاماكن هى :
(١) هركولانيوم (Herculaneum) حيث صدنت حمم بركان =

وبغض النظر عن هذه الكشوف الاستثنائية ، فليس من المتوقع أن توجد الأوراق البردية فى أى طبقة من طبقات الارض التى تروى بانتظام، على أن هناك بالطبع مستوى فى الارض لا تحس الرطوبة عنده إلا بدرجة طفيفة ، وفى مثل هذا المستوى توجد أحياناً أوراق بردية لم تبل تماما بفعل الرطوبة ، وإن كانت قد تشوهت فعلا ، وهذه البرديات قاتمة ذات لون بنى داكن كلون الجذور النباتية ، ولا يمكن قراءة ما عليها من كتابة فى معظم الأحيان إلا بتعريضها للضوء فى وضع منحرف نظراً لأن مدادها قد أصبح باهتاً متغيراً .

وهناك ثلاثة مصادر رئيسية لأوراق البردى : أولها أكوام القمامة التى كانت تتراكم فى الأزمنة القديمة ، كما هو الحال الآن ، على مقربة من أى مكان آهل بالسكان ، وغالبا ماترتفع كثيراً عن مستوى سطح الأرض ، وفوق هذه الأكوام كان الناس يقذفون بكل ما يستغنون عنه من أدوات بالية وأوعية وآنية فخارية وأوراق ، وقد

= فيزوف التى طمرت المدينه ، مجموعة ضخمة من اللفائف البرديه فى منزل كان مركزا فرعيا لمدرسة أبيقور الفلسفية .

(٢) دورار يوروبوس (Dura - Eurôpos) على نهر الفرات ، حيث كانت الحامية الرومانية تتأهب فى منتصف القرن الثالث الميلادى لصد احدى الغارات الفارسية فحصنت سور الحصن بتكديس أكوام من الطين التى غطت الابنية الموجودة تحتها فصانت بذلك مافيها من وثائق مكتوبة على الرق أو البردى من المؤثرات المناخية .

(٣) عوجه الحافير فى جنوب فلسطين ، حيث وجدت رزمة من اللفائف البرديه مخزونة تحت أرض كنيسة مهدمة مما صانها من التلف بنفس الطريقة .

درجوا على تمزيق لفائف البرديات الأدبية قبل رميها ، ولكنهم كانوا لا يمزقونها تمزيقاً تاماً ، فأتاح لنا ذلك العثور على اجزاء منها كبيرة الحجم ، إلى جانب كثير من القصاصات الصغيرة التى استطاع العلماء بالأناة والبراعة أن يصلوا بعضها بالبعض الآخر . وعندما يقرأ الطالب الآن فى الكتب المطبوعة مؤلفات كسرحية إخنيوتاى (Ichneutae) لسوفوكليس (Sophocles) [١] ورواية هوپسيپولى (Hypsipyle) ليوريپيديس (Euripides) [٢] وأناشيد الشكر (Paianes) أو أغانى العذارى (Partheneia) لپندار (Pindarus) [٣] أو هجائيات (Meliambi)

---

[١] شاعر (٤٩٥ ـ ٣٠٠٦ ق٠م٠) ولد فى كولونوس (احدى ضواحى أثينا) ، ويعتبر هو وآيسخيلوس ويوريبيديس أئمة الشعر المسرحى التراجيدى ٠ ويقال انه كتب ١٢٣ مسرحية لم تصلنا منها كاملة سوى ٧ ، ومن أشهرها « أوديب ملكا » و « أنتيجونى » و « اليكترا » ٠

[٢] شاعر مسرحى (٤٨٥/٤٨٠ ـ ٤٠٦ ق٠م٠) ، ولد فى سلاميس (جزيرة بالقرب من أثينا) وتلقى الفلسفة على يد أناكساجوراس واتصل الود بينه وبين سقراط ، ويمتاز عن زميليه بروح الابتكار والتجديد والتشكك ٠ ولم يصلنا من رواياته الكثيرة سوى ١٩ من بينها « ميديا » و « الكيستس » و « أندروماخا » ٠

[٣] شاعر غنائى (٥١٨ ـ ٤٣٨ ق٠م) ولد بالقرب من طيبة فى اقليم بيوتيا٠وقد كتب باللهجة الدورية ، ويمتاز أسلوبه بالاغراق فى الخيال والاسراف فى استعمال المحسنات اللفظية ٠ ومن أهم أشعاره « أناشيد الشكر) وأهازيج النصر (Epinicia).واجلالا لذكرى هذا الشاعر أمر الاسكندر الاكبر بعد استيلائه على طيبة وتدميرها « ٣٣٦ ق٠م) ألا يمس منزله ٠

الشاعر الساخر كركيداس (Cercidas) [١]، عندما يقرأها وهى مطبوعة ، فقد لا يدرك دائماً أن هـذه المؤلفات المبتورة كانت أسوأ حالا يوم اكتشفت ، وأن كثيراً من النصوص الطويلة المتصلة المعنى التى يراها أمامه قد ركبت من عشرات القصاصات الضئيلة . ومن الممكن فى معظم الأحيان حتى عند ما تكون القصاصات تافهة لا تحتوى على أكثر من حرفين أو ثلاثة أحرف أن توضع فى مكانها الصحيح من النص ، وأن تستعمل لبناء قطعة كبيرة . وتشبه هـذه العملية ، عند ما يكون النص غير معروف ، محاولة حـــل لغز تركيب الصور الذى لا مفتاح له بعد أن ضاع من قطعه النصف أو أكثر .

ولم تكن الوثائق تمزق غالباً عند رميها بعد الاستغناء عنها ، ولكننا نجدها عادة متآكلة مشوهة بفعل الرمال المنجرفة والنمل الأبيض، أو من جراء تلك العادة المزعجة التى يمارسها الأهالى أحيانا عندما يعثرون عليها ألا وهى تقطيع اللفافة البردية الكاملة إلى جزئين أو ثلاثة أجزاء ، ثم اقتسامها فيما بينهم ، وبيع كل جزء على حده . ولذلك نجد أن معظم

---

[١] شـــاعر هلينستى (٢٩٠ ــ ٢٢٠ ق٠م٠) ، ولـد فى مجالوبوليس فى البلوبونيز واشتهر كفيلسوف من مدرسة (الكلبيين) ٠ وبرغم أنه كان من الملاك الا أنه ناصر الفقراء وحذر الاغنيـاء من خطر ثورة الدهماء عليهم ٠ وكان لاذع النقد للاوضاع الاجتماعية فى عصره٠ وأما (هجائياته) فهى قصائد غنائية الشكل (melos) هجائية الموضـوع (iambos) ، ومكتوبـة فى الـوزن الايامبى الذى يتـألف البيت فيه من ست وحدات كل منها تتكون من مقطعين أحدهما قصير يليه آخر طويل ٠

البرديات التى اكتشفت فى أكوام القمامة غير كاملة ، ومع هذا فقد وصلنا منها عدد كبير فى حالة تكاد تكون سليمة .

ومصدر آخر لأوراق البردى هو خرائب المنازل القديمة أو غيرها من المبانى . وفى هذه الأماكن تتهيأ فرصة أفضل للعثور على برديات شبه سليمة . على أنه ينبغى ألا نسرف في الأمل ، فمن المسلم به أن سكان أى منزل كانوا عند إخلائه ينقلون معهم كل ما له قيمة فى نظرهم ، ومع هذا فلم يكن كل واحد منهم يجرد مسكنه من محتوياته تجريدا تاماً ؛ هذا إلى أنه ينبغى أن ندخل فى حسابنا عوامل أخرى كانهيار المنزل أو إخلائه فجأة . والواقع أننا عثرنا فى الخرائب على برديات كثيرة بعضها قصاصات غير كاملة وبعضها الآخر فى حالة جيدة جدا .

والمصدر الثالث هو المقابر . وينبغى هنا أن نصحح خطأ شائعاً . فعندما يرد ذكر المقابر مقروناً بالاكتشافات البردية يحسب معظم الناس أن أوراق البردى المكتشفة كانت مدفونة مع الميت كجزء من أثاث المقبرة . وهذا فى الواقع صحيح بالنسبة لمعظم أوراق البردى الهيروغليفية والهيراطيقية . ومن أهم هذه البرديات « كتاب الموتى » الذى كان بمثابة دليل لتسترشد به الروح فى رحلتها إلى أرض أمنتيت (Amentit) أو هاديس Hades (العالم الآخر) . وهو يتضمن الطقوس والتعاويذ اللازمة والإجابات الصحيحة عن الأسئلة

التي توجه إلى الميت ، فكان من الطبيعي إذن أن يوضع هذا الكتاب معه فى المقبرة ، وأن تصحبه فيها أيضاً بعض الكتب المفضلة لديه إذا كان ملماً بالقراءة . وقد تصور المصريون الحياة فى العالم الآخر كالحياة فى الدنيا ، فزودوا الموتى بكافة ما يحتاجونه من غذاء وشراب وآنية ومجوهرات وأثاث وتماثيل مصغرة (ushabti) للخدم والعمال ليقوموا بخدمتهم فى مستقرهم الجديد . ويلوح أن بعض البرديات اليونانية قد دفنت مع أصحابها تحقيقاً لمثل هذا الغرض . فقد وجدت اللفافة البردية المحتوية على رواية الفرس (Persae) للشاعر تيموثيوس (Timotheus) [١] ، وهى فيما يرجح أقدم مخطوط يونانى وصل إلينا ـ إذ يرجع تاريخ كتابته إلى الشطر الأخير من القرن الرابع ـ وجدت فى إحدى المقابر مدفونة مع جثة رجل إغريقى ؛ وبالمثل فقد عثر سير فلندرز پترى بالهوارة على بردية لهوميروس (Homerus) [٢]

---

[١] شاعر غنائى (حوالى ٤٥٠ـحوالى ٣٦٠ ق٠م٠) ، ولد فى ميليتوس ورحل الى أثينا واتصل بيوريبيديس ٠ ويدور موضوع روايته حول موقعة سلاميس (٤٨٠ ق٠م٠) ٠

[٢] أشهر شعراء الاغريق وأقدمهم ولكننا لانعرف شيئا مؤكدا عن مولده أو موطنه أو سيرته ٠ ويرجح أنه عاش فى القرن التاسع قبل الميلاد وأنه ولد فى أيونيا ٠ وقد كتب الملحمتين الكبيرتين الالياذة (Ilias) والاوديسة (Odyssea) ، ويدور موضوع الاولى حول الحرب الطروادية التى دارت رحاها حوالى القرن الثانى عشر ق٠م٠ ، وأما الثانية فهى عن رحلات البطل أوديسيوس فى البحر أثناء عودته الى بلاده بعد انتهاء الحرب٠وقد ألقت الحفائر التى قام بها هـ٠شليمان وآرثر ايفانس فى طروادة باسيا الصغرى وموكناى بالبلوبونيز ضوءا باهرا على الملاحم الهومريه ٠

موضوعة تحت رأس إمرأة متوفاة . ويقال إن ثلاثاً من البرديات المشهورة المودعة الآن بالمتحف البريطانى، وهى بحث أرسطو فى الدستور الاثينى وأناشيد باكخوليديس (Bacchylides) [١] وهزليات هيروداس (Herodas) [٢] وجدت هى الاخرى فى مقابر. لكننا لا نستطيع أن نثق فى صحة هذه الرواية لأن هذه البرديات اشتريت من تجار عاديات وهم دائماً يبذلون قصارى جهدهم لإخفاء مصدر سلعهم .

هذه الأمثلة استثنائية . فعندما أتكلم عن المقابر كمصدر للأوراق البردية فإنى أشير إلى تلك العادة التى كانت سائدة خلال بعض الفترات وفى مناطق معينة من مصر، وهى أنهم كانوا يصنعون أغلفة المومياء من الكرتون، أى يلصقون طبقات من البردى أو الكتان بعضها بالبعض الآخر على هيئة الورق المقوى ويشكلونها بشكل المومياء ثم يكسونها بالملاط المطلى بالألوان . فإذا كسرنا الاغلفة وفصلنا الطبقات بعضها عن بعض ، وأزلنا الطلاء والملاط ، فمن الممكن أن نستخلص البردى الذى نجد فى معظم الاحيان أنه كان قد استعمل للكتابة قبل وصوله

---

[١] شاعر غنائى ولد فى جزيرة كيوس (Ceos) ، وهى جزيرة بالقرب من أتيكا ، فى أواخر القرن السادس ، وقد نظم كثيرا من أناشيد الجوقة وأهازيج النصر وقصائد عن أبطال الاساطير . ولدينا الآن بفضل الاكتشافات البردية حوالى ١٩ قصيدة من قصائده ، ولو أنها غير كاملة .

[٢] شاعر هلينستى يحتمل أنه ولد فى جزيرة كوس (Cos) وعاش فى القرن الثالث . وأهم مؤلفاته هى (الهزليات) (Mimiambi) ومن بينها « السيدة الغيور » و « الاسكافى » و «القواد » .

إلى أيدى صانعى أغلفة المومياءات . وعن هـذا الطريق وصلتنا كثير من النصوص القيمة ، بعضها مؤلفات أدبية وبعضها الآخر وثائق .

تاريخ الاكتشافات البرديه :

وتعزى أقـدم الاكتشافات البردية اليونانية إلى جهود السباخين أى الباحثين عن السـبـاخ . والسباخ تراب ناعم كالمسحوق يغطى الاماكن الاثرية فى مصر ، ويعتبره الاهالى سماداً جيداً وينقلون منه كميات ضخمة لينثروها فى الحقول . وينص القانون المصرى على تبليغ السلطات عن أوراق البردى التى توجد أثناء الحفر ، وغنى عن الذكر أن هذا لا يكاد يحدث إطلاقا ، لأن البرديات المكتشفة تتسرب فى الواقع إلى تجار العاديات الذين يبيعونها للأجانب أو لمتحف القاهرة . وقد حدث أول اكتشاف معروف للأوراق البردية فى عام ١٧٧٨ عنـدما عرضت حوالى خمسين لفافة بردية للبيع على أحد الرحالة فاشترى واحدة منها . وأما اللفائف الأخرى فقد أحرقها من وجدوها ليأسهم فيما يبدو من بيع المجموعة كلها . وتعرف اللفافة الوحيدة التى قدر لها البقـاء باسم "قرطاس بورجيـا" (Charta Borgiana) [١] نظراً

[١] قرطاس مشتقة من اليونانية chartês (= فى اللاتينية charta) ويقصد بها ورقة بردى أو لفافة برديه . وما نسميه نحن (لفافة) قد يسميه البعض الآخر (قرطاس) أو (درج) أو (طومار) والكلمة الاخيرة مشتقة من اليونانية tomarion وهى مصغر لكلمـة tomos بمعنى لفافة ، أنظر :
A. Grohmann, *From the World of Arabic Papyri*, pp. 22, 28, 43,

لأنها كانت فى وقت ما فى حوزة الكردينال ستيفانو بورچيا ، وهى توجد الآن (أو كانت موجوده حتى الحرب الأخيره) فى المتحف الأهلى بنابلى ، وهى تحتوى على قائمة بأسماء الأشخاص الذين كلفوا بأعمال السخرة على الجسور فى عام ١٩٢ م . وقد حدثت اكتشافات أخرى فى أوائل القرن التاسع عشر ، فحوالى عام ١٨٢٠ اكتشفت فى منطقة سقاره عند مكان السراپيوم القديم (Serapeum) مجموعة ثمينة من اللفائف البردية يرجع تاريخها إلى العصر البطلمى . ثم تتابعت اكتشافات غير هذه بين الفينه والفينة فى منتصف القرن التاسع عشر. وكان من بينها بعض النصوص السحرية ، ولفافة أو لفافتان من شعر هوميروس ، وعدة خطب كانت مفقودة للخطيب الأثينى هوپريديس (Hyperides) [١] وأغنية شائقة من أغانى العذارى (Partheneion) للشاعر الإسبرطى ألكمان (Alcman) [٢] .

ومع أن هذه الاكتشافات استرعت جانبا كبيراً من اهتمام

---

[١] أحد الخطباء الاثينيين العشرة (٣٨٩ ـ ٣٢٢ق٠م٠) ، تتلمذ على ايسوقراط (Isocrates) وبدأ حياته كمحام (logographos) ثم اشتغل بالسياسة فانضم الى الحزب المتطرف المناوىء لمقدونيا • ولغته الدارجة قريبة الشبه من لغة الخطيب ليسياس (Lysias) وقد وضعه النقاد القدامى فى المرتبة الثانية بعد ديموستنيس (Demonsthenes) أشهر الخطباء الاغريق • ومن خطبه « ضد أثينوجينيس » و « خطبة الرثاء » •

[٢] شاعر غنائى (٦٥٤ ـ ٦١١ ق٠م٠) ولد فى لاكونيا بالبلوبونيز أو ساردیس بآسيا الصغرى٠ومعظم قصائده تدور حول الحفلات والاعياد الاسبرطية ، ومعظمها أغانى كانت تنشدها جوقات مؤلفة من الفتية والفتيات •

الأوساط العلمية ،إلا أنها لم تكن وفيرة بالقدر الذى يجعلها تترك أثراً قويا فى أذهان علماء الدراسات القديمة بوجه عام . لكن بعد سنة ١٨٧٥ بدأت الحفائر تكشف عن أكداس من أوراق البردى فى التلال الضخمة التى تغطى أطلال أرسينوى أو فى أكوام القمامة بها . وأرسينوى (Arsinoe) هى عاصمة إقليم أرسينويتيس (Arsinoites) وهو الاسم الذى كان يطلق على الفيوم فى العصر اليونانى — الرومانى. وقد توصل الأوربيون إلى شراء كميات ضخمة من هذه البرديات ، وخاصة الارشيدوق النمسوى رينر (Rainer) الذى اشترى عدد كبيرا منها أصبح نواة لمجموعة رينر الشهيرة فى ڤينا . وقد انتقلت كثير من البرديات الأخرى إلى برلين، كما وصلت كميات قليلة منها إلى اللوفر فى باريس ، وإلى المتحف البريطانى بلندن . ولم يعد فى وسع العلماء أن يتجاهلوا هذا المصدر الجديد للمعلومات عن العالم القديم . وبدأ منذ ذلك الحين سيل من الأوراق البردية يتدفق باستمرار إلى متاحف أوروبا ومكتباتها ثم إلى أمريكا فيما بعد . وبصرف النظر عن القصاصات القليله التى وجدت ضمن اللفائف المحترقة بتانيس عام ١٨٨٣ – ١٨٨٤ ، فقد كان أول كشف لأوراق البردى اليونانية على يد عالم أثرى ، هو ما قام به المرحوم فلندرزسير پترى فى شتاء عام ١٨٨٩ — ١٨٩٠ ، ولو أنه فى الواقع لم يكن يبحث عن البردى . فبينما كان يباشر أعمال الحفر فى جبانة قديمة عند "جيروب" بإقليم الفيوم عثر على موميات

كثيرة مكسوة بأغلفة مصنوعة من البردى . وعند ما فض الأغلفة وجد المجموعة الرائعة المعروفة باسم « برديات پترى » (P. Petrie) التى يرجع تاريخها إلى القرن الثالث ق . م . وإلى جانب الوثائق الكثيرة وجد پترى أيضا بعض البرديات الأدبية القيمة وبينها قصاصات من لفافة تحتوى على محاورتى لاخيس (Laches) وفيدون (Phaedon) لأفلاطون ، وهما منسوختان فى غضون القرن الذى أعقب وفاة الفيلسوف ، وقصاصة أخرى عليها أكثر من مائة سطر من رواية « أنتيوپى » (Antiope) المفقودة ليوريپيديس . وعندما أحدث المتحف البريطانى بعد عام ١٨٩٠ رجة فى أنحاء العالم بشرائه لفائف بردية تتضمن بحثا ضائعا لارسطو فى الدستور الاثينى ، وخطبة أخرى لهوپريديس ، وهزليات هيروداس ، وعندما اشترى المتحف بعد ذلك ببضع سنوات برديات تحتوى على قصائد باكخوليديس ، عندئذ جاز لنا أن نقول إن علم البردى أصبح معترفا به كفرع خاص من فروع الدراسات القديمة (الكلاسيكيه) ، ولو أنه لم يكتسب اسمه إلا فيما بعد ، وأن نشر الوثائق كما نعرفه اليوم لم يرتق إلا تدريجيا .

وفى عام ١٨٩٥ أدركت « جمعية الكشف عن الآثار المصرية » . (Egypt Exploration Fund) — والتى كانت تسمى وقتئذ (Egypt Exploration Society) — أن الوقت قد حان لإدخال أوراق

البردى اليونانيـــة فى دائرة نشاطها ، فقررت إيفاد ثلاثة من علماء أكسفورد فى الدراسات القديمة وهم ب . ب جرنفل (P.B. Grenfell) ، ا . س . هنـــت (A.S. Hunt) ، ج . د . هوجارت (D.G. Hogarth) إلى مصر للقيام بحفريات تمهيدية ، فبدأوا العمل أثناء شتاء عام ١٨٩٥ - ١٨٩٦ فى مكانين بالفيوم ، وحصلوا على نتائج لم تكن باهرة ، إلا أنها كانت مشجعة حتى أنهم منحوا فى الشتاء التالى تصريحاً بالحفر فى البهنسا وهى أكسيرينخوس القديمة (Oxyrhynchus) . وقد اضطلع بأعمال الحفر فى هـــذة المرة أيضاً العـــالمان جرنفل وهنت ، ولم تكن نتائج الاكتشافات فى ذلك الموسم الأول طيبة فحسب ، بل مثيرة أيضاً : فقد استخرجا أكداساً هائلة من أوراق البردى ، وكانت من بين المكتشفات الأولى قصيدة جديدة للشاعرة سافو (Sappho) [١] وورقة من كراسة بردية (codex)

---

(١) ولدت حـوالى ٦١٢ ق٠م٠ بمدينـــة موتيلينى (Mytilene) بجزيرة لســبوس (Lesbos) الايوليـــه ٠ وقــد نفيت من وطنهـــا لاسباب سياسية ثم عادت اليه حيث أنشأت رابطة أو منتدى أدبيـا مؤلفا من بعض الفتيات اللامعات فى المجتمع ٠ وقد توطدت الصلة بين سافو وبين صويحباتهـا حتى نظمت فيهن قصـائد عديدة ، ومعظـم شعرها فى الحب والطبيعة . ويمتاز بالرقة والجمال وحرارة الشعور والصراحة ، وقد حيكت حولها الشائعات ولكن النقد الحديث استطاع أن ينصفها ويطهر سمعتها من الشوائب ٠

تحتوى على ما يعرف باسم « Logia » أو « أقوال يســـوع » ، وفى صيف عام ١٨٩٧ أنشأت الجمعية فرعاً خاصاً هو « الفرع اليونانى - الرومانى » ، ولم يعد جرنفل وهنت فى الشتاء التالى إلى أكسيرينخوس بل رجعا ثانية إلى الفيوم ليبدآ أعمال الحفر قبل أن تنفذ الحكومة مشروعات الرى الجديدة التى قد تقلل من فرص نجاح الحفائر بذلك الإقليم ، وهناك باشرا العمل بنجاح خلال السنوات الأربع التالية . وفى شتاء عام ١٨٩٩ - ١٩٠٠ أشرفا على حفائر جامعة كاليفورنيا فى أم البرجات ، وهى تبتونس القديمـــة (Tebtunis) الواقعة على الطرف الجنوبى للفيوم . وكان العالمان متلهفين للعثور على برديات بطلمية ، لأن الاكتشاف العظيم الذى تم على يدى پترى فى «جيروب» كان ماثلا فى أذهانهما فأخذا يبحثان عن جبانة من العصر البطلمى . وكم كان سرور رجال البعثة شديداً عندما وجدوا إحدى هذه الجبانات ، وكم كانت أيضاً خيبة أملهم شديدة عندما فتحت إحدى المقابر فتبين أنها لاتحتوى إلا على موميات للتماسيح المقدسة ! لقد كانت الفيوم إقليم التمساح المؤلة سوبك (Sobk) . وكان « البقشيش » يمنح دائماً لعمال الحفر الذين يعثرون على أية قطعة أثرية ذات قيمة ، وقد حدث أن استشاط أحد العمال غضباً لما تمخض عنه الحفر من نتيجة تافهة ، فانهال بمعوله ساخطاً على أحد التماسيح فانشطر وظهر أنه مكسو بلفائف

من أوراق البردى المكتوبة . وعلى حد قول "هنت" فى إحدى محاضراته أصبحت التماسيح على الفور بضاعة رابحة بعد أن كانت كاسدة لا تجلب إلا الخسارة ! وقد استخلصنا من هذا المصدر مجموعة من أهم الوثائق يرجع تاريخها إلى القرن الثانى وأوائل القرن الأول ق . م . ويتضمنها الآن المجلد الأول من برديات تبتونس (P. Tebt.) ، ويتضمن المجلدان الآخران وثائق من الفترة الرومانية وجدت فى خرائب تلك البلدة ، وبرديات من الفترة البطلمية استخلصت من أغلفة الموميات العادية .

وبعد الانتهاء من أعمال الحفر فى « الحيبة » بوادى النيل ، عاد جرنفل وهنت إلى أكسيرينخوس فى عام ١٩٠٣ وواصلا العمل هناك بنجاح باهر حتى شتاء عام ١٩٠٦ - ١٩٠٧ . والواقع أن أكسيرينخوس كانت أخصب بقعة فى مصر أمدتنا بمحصول من أوراق البردى ، وخاصة الأدبية ، "فأناشيد الشكر" لپندار ، وبعض قصائده الأخرى المفقودة ، ومقطوعات جديدة من نظم سافو والكايوس (Alcaeus) [١] وغيرهما من الشعراء الغنائيين ، ورواية "إخنيوتاى" لسوفوكليس ، ومسرحية "هوپسيپولى" ليوريپيديس

---

[١] شاعر غنائى ولد حوالى ٦٢٠ ق.م. فى مدينة موتيلينى بجزيرة لسبوس الايوليه واشتغل بالسياسة وناهض الطغاة فغادر بلاده وزار بعض اقطار من بينها مصر ثم عاد الى وطنه. وبعض قصائده غنائية والبعض الآخر فى السياسة والخمر والغزل .

وأجزاء كبيرة من روايات عديدة ضائعة لأيسخيلوس (Aeschylus)[١] وهجائيات كركيداس ، وقطع طويلة من قصائد كاليماخوس (Callimachus)[٢] ، ولفافة طويلة ـ وإن كانت غـير كاملة ـ تتضمن وصفاً لأحداث تاريخية هامة وقعت فى بلاد الإغريق فى صدر القرن الرابع ق . م . [٣] ، وقصاصتان من « أقوال يسوع » ، وأجزاء كثيرة من الأناجيل غير المعتمدة ، وبقايا مخطوط كان يعتبر حتى اكتشاف برديات شستر بيتى (Chester Beatty) ، أقدم مخطوط موجود لأنجيل القديس يوحنا ـ هذه ليست سوى درر قليلة من الكنوز التى يدين بها العلماء لأكسير ينخوس . وبعد أن غادرت البعثة

---

[١] شاعر تراجيدى (٥٢٥ ـ ٤٥٦ ق٠م٠) ولد فى اليوسيس (Eleusis), احدى مدن اتيكا ،واشترك فى معركة مراثون (Marathon) أولى معارك الحروب الميديه (٤٩٠ ق٠م٠) ٠ وقد أدخل تعديلات هامة على فن التمثيل المسرحى ، ويقال انه كتب ٧٠ مسرحية لم تصلنا منها سوى ٧ ، ومن بينها « الفرس » و «سبعة ضد طيبة» و « بروميثيوس مغلولا » ٠

[٢]شاعر هلينستى (حوالى ٣٠٥ ـ ٢٤٠ ق٠م٠) ، ولد فى برقة ووفد الىالاسكندرية فصار شاعر بلاطبطلميوس الثانى واشتغل بمكتبة الاسكندرية فوضع فهرسا (Pinakes) وافيا بالمؤلفات الادبية ٠ ومن أطول قصائده « الاسباب » ، ولكن معظمها قصيرة من النوع المسمى ابجراماتا (Epigrammata) أو ملاحم صغيرة (Epyllia) مثل قصيدة هيكالى (Hecale) ومن مقطوعاته أيضا « خصلة برينيكى » و « رثاء أرسينوى » ٠

[٣] وتعرف باسم Hellenica Oxyrhynchia وقد أمدتنا بمعلومات هامة عن دستور الحلف البيوشى ٠ وتنسب اما الى المؤرخ افوروس (Ephorus) أو ثيوبمبوس (Theopompus) أو كراتبوس (Cratippus)

تلك المنطقة . واصل دكتورجونسون (John Johnson) أعمال الحفر باسم الجمعية فى مناطق أخرى من ١٩٠٩ حتى ١٩١٢ .

وسرعان ما أثار العمل الذى قام به البريطانيون اهتمام علماء الأمم الأخرى ، فقامت بعثة ألمانيــة بالحفر فى اطـلال هيراكليوبوليس القديمة Heracleopolis (أهناسيا المدينة) فى عام ١٨٩٩ ، وتـكللت جهودها بالنجاح . غير أن السفينة التى كانت تنقل الآثار المكتشفة إلى ألمانيا احترقت لسوء الحظ فى ميناء هامبرج فالتهمت النـيران المجموعة كلها . ولـكن البعثات الالمانية التالية وفقت لا فى العثور على برديات ثمينة فحسب بل فى نقلها سليمة إلى ألمانيـا ، كما أن الفرنسيين والايطاليين والأمريكيين ، والبعثة الفرنسية البولندية ، ومصلحة الآثار المصرية ، أولئك جميعاً ساهموا فى العمل ، بينما لم ينقطع السباخون أبداً عن الحفر ، المشروع منه وغير المشروع . لقد نضب الآن تقريباً معين كافة الأماكن المعروفة ، وإذا لم تـكتشف اماكن أخرى غنية مثلها بالأوراق البردية ، وهذا أمر يبدو بعيد الاحتمال ، فمن المرجح أن ينقطع المدد وشـيكا ، فيما عدا الاكتشافات الفردية التى تحدث بين الآونة والأخرى . وقد حدث فى السنوات الاخيرة اكتشافان من هذا النوع كان لهما دوى فى أرجاء العالم ؛ ولا يعزى الفضل فى كليهما إلى بعثات الحفائر العلمية بل إلى جهود الأهالى . وأسفر

الاكتشاف الأول الذى حدث فى عام ١٩٣١ أو حوالى هذا التاريخ عن طائفـــة من المخطوطات البردية (codices) القديمة الخاصة بالتوراة والانجيل ، ومعظمها الآن فى حوزة السيد شستربيتى (Chester Beatty) (١) ، وليس هناك ما يفوقها فى الأهمية سوى المخطوط السينائى (Codex Sinaiticus) الذى اكتشفه تيشندورف (Tischendorf) . وأما الاكتشاف الثانى فقد حـــدث فى ١٩٣٩ أو ١٩٤٠ ، ولمـــا كانت البرديات التى أسفرعنها هذا الاكتشاف لم تنشر بعد ، فليس فى وسعى أن أضيف شيئاً سوى أنها تبشر بأهمية قصوى للمعنيين بدراسة لاهوت آباء الكنيسة.

نشأة علم البردي :

وليست البرديات التى عثرنا عليها فى أرض مصر مكتوبة باللغتين اليونانية واللاتينية فحسب ، بل إن كثيراً منها مكتوب باللغة المصريه فى صورها المختلفة : الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية والقبطية . كما وجدنا أيضاً أعدادا وفيرة من أوراق البردى العربية ، فضلا عن كمية ضئيلة من الوثائق المكتوبة باللغـــات المختلفة التى كان يتكلمها المستوطنون فى مصر . وكلمة علم البردى (Papyrology) ينبغى أن تعنى،

(١) وأما باقى المجموعــة فموزع بين مكتبــة جامعــة ميشـــيجان (Michigan) ، وجامعة برنستون (Princeton) ، وهذه يمتلكها السيد جون هـ. شيدى (John H. Scheide) ، وفينا . والسيد ولفرد مرتون (Wilfred Merton).

حسب الاشتقاق اللغوى ، دراسة كافة الأوراق البردية المكتوبة بأية لغة وأى خط ، ولكن إذا لم يحدد معناها بصفة مميزة فيقال مثلا «علم البردى القبطى» فإنها لا تشمل عادة سوى أوراق البردى المكتوبة باللغة اليونانية أو اللاتينية . على أن الكلمة إذا كانت من جهة أضيق فى مفهومها مما يقتضيه الاشتقاق اللغوى ، فهى من جهة أخرى أوسع فى مدلولها لأنها تشمل كافة ما هو مكتوب باللغه اليونانية أو اللاتينية على الرق والفخار والخشب ، وما إلى ذلك ، مما عثرنا عليه فى مصر ؛ ولا يستثنى من ذلك سوى النقوش المحفورة على الحجر أو البرونز التى تدخل فى نطاق علم النقوش (Epigraphy) .وينبغى أن أضيف أن أوراق البردى اللاتينية أقل بكثير - كما هو متوقع - من أوراق البردى اليونانية ، لأن اليونانية كانت هى اللغة الرسمية .

ولدينا من أوراق البردى اليونانية المنشورة عدد ضخم يصل الآن إلى آلاف كثيرة ، وأما البرديات التى اكتشفناها بوجه عام فيبلغ عددها ، بإضافة القصاصات الصغيرة ، عشرات الآلاف . وعندما بدأ جرنفل وهنت العمل ،كان من الميسور أن يستوعب الباحث دون عناء كبير كل ما هو ضرورى لدراسة البردى ، غير أن هذا أصبح الآن أمرا مستعصيا حتى على أقوى الناس ذاكرة ، كما تضخم عدد الكتب الخاصة بالموضوع تضخما كبيراً . ويستعين الباحث الآن بكتب متنوعة الموضوعات كانت فى بدء الأمر غير ضرورية ، فهناك معجم

بالمفردات الواردة فى الوثائق البردية (Wörterbuch)(١) ، وقاموس بأسماء الأعلام (Namenbuch)(٢)، وكتاب جامع (Sammelbuch)(٣)

---

(١)
F. Preisigke & E. Kiessling, *Woerterbuch der griechischen Papyrusurkunden mit Einschluss der griechischen Inscriften, Aufschiften, Ostraka, Mumienschilder usw. aus Aegypten*, Bd. I (1925). Bd. II (1927). Bd. III, *Besondere Woerterliste* (1931).

ويشـــار الى هذا القاموس بالاختصـــار [WB.] وقد ظهر فى ١٩٤٤ الجزء الاول (Heft i) من المجلد الرابع (Band IV) [الذى هــو فى الواقع طبعة منقحة ومزيدة من نفس القاموس ، ولكنهـــا لاتزال فى مراحلها الاولى وقد يستغرق اتمامها سنوات عديدة]

(٢)
F. Preisigke, *Namenbuch* enthaltend *alle griechischen, lateinischen, aegyptischen, hebraeischen, arabischen und sonstigen semitischen und nichtsemitischen Menschenamen soweit sie in griechischen Urkunden (Papyri, Ostraka, Inschriften, Mumienschildern usw.) Aegyptens sich vorfinden*, 1922 [Namenbuch.]

وينتظم القسم ١٦ (ا) من الفهارس الخاصة في المجلد الثالث من قاموس المفردات *Woerterbuch* (انظر الحاشية السابقة) ، قائمة بأسماء الاماكن .

(٣)
Sammelbuch Griechischer Urkunden aus Aegypten.

بدأه ف. برايسجى ، وهو المسئول عن المجلد الاول (وثائق رقم ١ – ٦٠٠٠) ، ١٩١٥ ، وعن المجـــلد الثـــانى (فهـــارس) ، ١٩٢٢ وبعـد مـوته أكملـه ف . بيـــلابل (F. Bilabel) الذى نشر بعض مجلدات أخرى ولكن العمـــل توقف بسبب مقتله أثنـــاء الحرب – وانا لنرجو الا يطول هذا التوقف [وقد ظهر اخيرا فى ١٩٥٤ أخر جزء من المجلد الخامس ومعه الفهرس الخاص به] . ويشار عادة الى الـكتاب الجامع ، بالاختصار [SB.]

يتضمن كافة الوثائق الإغريقية الخاصة بمصر والمدونة على أى مادة من المواد (بما فى ذلك النقوش) مما ينشر متفرقاً فى الدوريات وغيرها من المنشورات العلمية، وهناك أيضاً ثبت بتصويبات النصوص المنشورة (Berichtigungsliste) (١)، وفهرست معكوس (Konträrindex) (٢) تظهر فيه جميع المفردات الواردة فى أوراق البردى مرتبة وهى معكوسة ترتيباً أبجدياً (وهذا الفهرست يعين قارىء المخطوط الذى لا يرى من الكلمة إلا آخرها على معرفة الإضافات المحتملة التى تكملها) . وكان المرحوم فيلكن (U. Wilcken) ينشر حتى وفاته منذ عهد قريب ، مجلة خاصة بالدراسات البردية(٣) ، وتصدر الجمعية (الملكية) المصرية لعلم البردى مجلة أخرى(٤) ، كما شرع الأمريكيون أخيراً فى إخراج مجلة

(١)
Berichtigungsliste der Griechischen Papyrusurkunden aus Aegypten : Bd. I (F. Preisigke), 1922 ; Bd. II (F. Bilabel), 1929-1933 [BL.]

(والمجلد الثانى يشمل الشقافات)

(٢)
O. Gradenwitz, *Heidelberger Kontraerindex der griechischen Papyrusurkunden,* 1931.

وتقوم الآن باحثة هولندية فى علم البردى ، وهى الدكتورة فيجينر (E. P. Wegener) باعداد قاموس معكوس بأسماء الاعلام .

[وأنظر أيضا :
P. Kretschmer & E. Locker, *Ruecklaufiges Woerterbuch der griechischen Sprache,* Goettingen, 1944.]

(٣)
Archiv fuer Papyrusforschung und verwandte Gebiete. [Archiv.]

ومقالات هذه المجلة بالالمانية أو الانجليزية أو الفرنسية أو الايطالية ، ويتابع اصدارها الآن الاستاذ ف. تسوكر *F. Zucker*

وقد ظهر أخيرا العدد ١٥ من المجلة .

(٤)
Etudes de Papyrologie.

ثالثة(١) ، وبالإضافة إلى ذلك فأن كثيراً من المقالات الخاصة بأوراق البردى تظهر فى مجلات مثل Aegyptus (ميلان)، Annales du Service (القاهر) ، Chronique d'Egypte (بروكسل) ، Journal of Egyptian Archaeology (لندن) وقد عقدت خمس مؤتمرات دولية لعلم البردى ، وكان السادس قيد البحث عند ما نشبت الحرب فى أوربا عام ١٩٣٩[٢].

أوراق البردى كمصدر للمعلومات التاريخية :

إن البرديات التى نعثر عليها تختلف بداهة فيما بينها كل الاختلاف من حيث النوع والأهمية ، لأنها تصلنا عن طريق المصادفة ولا إرادة لنا فى انتقائها ، فهى تتراوح بين لفائف طويلة فى حالة سليمة وبين شذرات تافهة جدا ، ونجد بينها أجزاء من مؤلفات أدبية متباينة القيمة: فأحيانا هى روايات من عيون الأدب اليونانى - الرومانى ، وأحياناً أخرى قصائد من نظم متشاعرين من سكان القرى المصرية ، ويمتد تاريخها من هوميروس [حوالى القرن التاسع ق . م] حتى أدباء القرن

(١)
Mizraim, ***journal of Papyrology, Egyptology, History of Ancient Laws, and their Relations to the Civilizations of Bible Lands.***
[وقد انقطع ظهور هذه المجلة منذ بضع سنوات • ونضيف الى هذه القائمة ، اسم المجلة التالية لاهميتها :
The Journal of Juristic Papyrology
وتصدر في وارسو ويتولى نشرها الاستاذان ر • تاوبنشلاج (R. Taubenschlag) ، ج • مانتويفل (G. Manteuffel)

[٢] وقد عقدت حتى الآن سبعة مؤتمرات كان آخرها فى جنيف عام ١٩٥٢ ، وقد نشرت أعمال هذا المؤتمر فى الكتيب التالى :
***L'originalité de l'Egypte dans le monde gréco-romain (= Museum Helveticum* 10, 1953, fasc. 3/4).**

السادس الميلادى . ولدينا وفرة من البرديات المسيحية المتعلقة إما بالتوراة والانجيل أو باللاهوت . ويوجد عدد كبير من النصوص الخاصة بالديانة الوثنية ، وعدد أكبر خاص بالسحر . وفى حوزتنا الآن وثائق من كل نوع ، رسمية وشخصية ، وتختلف بين صور من أوامر ملكية أو إمبراطورية وبين كتابات عابرة سطرها بعض المغمورين من سكان القرى الصغيرة ، أو محاولات أوليه من جانب التلاميذ لتعلم الخط . ويمتد تاريخ هذه الوثائق من عام ٣١١ ق . م . ـ وهو تاريخ أقدم وثيقة بردية اكتشفت حتى الآن ـ إلى ما بعد نهاية القرن الأول الهجرى ، أى إلى منتصف القرن الثامن الميلادى على وجه التقريب .

وتوجد ضمن هذه الوثائق المتنوعة مراسيم أصدرها الملوك أو الأباطرة وهى كثيراً ما تمدنا بمعلومات قيمة عن النظم الإدارية والقضائية . وقد استكملنا الحقائق المستمدة من هذه المراسيم القليلة بما استقيناه من اللفائف الرائعة التى نشرها جرنفل تحت عنوان « قوانين الدخل لبطلميوس فيلادلفوس (١) » التى زودتنا هى وغيرها بمعلومات ثمينة عن احتكار صناعة الزيت فى العصر البطلمى ، وبما استخلصناه من بردية رائعة أخرى من تبتونس(٢) ، تتضمن طائفة من التعليمات التى وضعها وزير المالية فى عصر البطالمة لتوجيه أحد مرءوسية . ومن الوثيقة المعروفة باسم « Gnomon » أو قواعد القسم المالى الذى كان يطلق عليه فى العصر الرومانى اسم « الحساب الخاص »

(١) P. Rev.، انظر المراجع العامة تحت عنوان (المجموعات البردية).

(٢) P. Tebt. III, 703.

(Idios Logos) (١) . وتلق المراســـلات الرسمية ومذكرات أو محاضر جلسات رجال الإدارة شعاعا ضافيا على ســـير العمل الحكومى من يوم إلى يوم . ومن كشوف تقدير الضريبة وجبايتها ، نتعرف على المبادىء العامة المتبعة فى فرضها ، كما نتبين من إيصالاتها التى لاحصر لها كيفية تطبيق هذه المبادىء . وتعيننــا البيانات الخاصة بمسح الأراضى ، وكذلك البلاغات عن الأراضى التى يغرقها أولا يبلغها ماء الفيضان ، وإقرارات الملكية ، على استجلاء معالم السياسة الزراعية للحكومات المتعاقبة . ومن قوائم التعداد العام وإقراراته تتضح لنا الأنظمة التى كانت متبعة فى قيد أسماء السكان بمصر وحفظ السجلات الخاصـــة بذلك تسهيلا لمهمة رجال الإدارة ، وتزيدها وضوحاً شهادات الميلاد والوفاة . هـذا إلى أن الوثائق القانونية على شتى صورها : الشكاوى ومحاضر القضايا وعقود الزواج والطلاق وتعليم الصبية حرفة من الحرف وتكوين الشركات ، وصفقات البيع والشراء والإيجارات والقروض ، والرهون ، والإيصالات ، وأوامر الصرف والوصايا والهبات ، جميع هذه المستندات أمدتنا بفيض من المعلومات عن النظم القانونية القديمة . والحيـــاة الاجتماعية ، والأحوال الاقتصادية وتزداد هذه الأمور وضوحاً فى أذهاننا بقراءة الرسائل

---

(١) B.G.U. V, *Der Gnomon des Idios Logos.*
الجزء الاول هو النص ونشره ف. شوبارت (W. Schubart) فى ١٩١٩، والجزء الثانى هو التعليق وكتبه ف. ج أوكسكل جيلينباند (W.G. Uxkull-Gyllenband) فى ١٩٣٤ .

الشخصية ، والحسابات الخاصة والإلتماسات ، ومحاضر القضايا (التى تتضمن تفاصيل شائقة فى معظم الأحيان) ، والوصايا والمستندات الأخرى مثل القوائم التفصيلية أو البيانات الوصفية بمشتملات المهور فى عقود الزواج . وأخيراً لدينا كثير من المعلومات عن التعليم فى مصر اليونانية - الرومانية : كتب مدرسية وتمرينات لتعليم التلاميذ وإشارت ضمنية واردة فى الخطابات الخاصة .

الواقع أنه يوجد لدنيا عن مصر اليونانية - الرومانية ثروة من الحقائق التاريخية المستمدة من الوثائق لا يتوفر مثلها لأى بلد أخر من بلاد العالم القديم ، وهذه الحقائق ذات قيمة فريدة نظراً إلى طبيعة مصادرنا ، فقد كان المؤرخون القدماء ، باستثناء عدد قليل منهم ، يهتمون بالأحداث السياسية وقلما كانوا يحفلون بالأحوال الاقتصادية أو الاجتماعية ، حتى أن ثوكيديديس (Thucydides) [١] نفسه ، وهو بلامراء أعظم المؤرخين جميعاً ، لا يمدنا إلا بالقليل عن

---

[١] مؤرخ أثينى (حوالى ٤٦٠ - حوالى ٤٠٠ ق٠م٠) وصف الحروب البلوبونيزيه التى دارت رحاها بين أثينا واسبرطه (٤٣١ - ٤٠٤ ق٠م٠) ولو أن تاريخه ينتهى عندسنة ٤١١ ق٠م٠ وقد اشترك المؤرخ فى هذه الحروب ثم نفى من وطنه لعدم مبادرته الى نجدة احدى المدن مما أدى الى سقوطها فى يد الاعداء (٤٢٤ ق٠م٠) ٠ وفى منفاه عكف على كتابة تاريخه ، مستمدا معلوماته من مشاهداته الشخصية والشهود العيان والوثائق الرسمية وخطب القواد والساسة ، =

الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى عصره ، وهذا القليل يأتى عرضا ضمن كلامه . فإذا شئنا أن نتزود بمعلومات عن هذا الموضوع ، فعلينا أن نبحث عنها فى المسرحيات الهزلية ومحاورات أفلاطون وأقوال الخطباء الأثينيين، فإذاما أنتقلنا إلى روماو بلغنا العصور التالية ، فعلينا أن نبحث عنهافى رسائل شيشرون (Cicero) [١] وخطبه وهوراتيوس

= والمصادر الوثيقة ، وعالجها بأمانة ودقة معالجة الناقد الحصيف المنصف . فلا عجب أن أجمع الباحثون على طول باعه كمؤرخ وان أخذوا عليه اسرافه في الاستشهاد بالخطب التى يرويها عن لسان الزعماء . وقد أشاد توكيديديس بأثينا كما يتبين من «خطبة الرثاء» وكان من المعجبين بالقائد بريكليس (Pericles) ، ذلك السياسى الكبير الذى بلغت أثينا على يديه ذروة المجد في القرن الخامس ق.م. حتى أصبحت على حد قوله فى الخطبة المشار اليها « مدرسة بلاد الاغريق »

[١] أشهر الخطباء الرومان (١٠٦ - ٤٣ ق.م) ولد فى أربينم (Arpinum) باقليم لاتيوم (Latium) وشغف بالاداب اليونانية واللاتينية منذ صباه ولم يلبث حتى صار امام عصره فى المحاماة والخطابة والادب ، كما درس الفلسفة سيما الفلسفة الرواقية . واشتغل بالسياسة فتدرج فى سلك الوظائف العامة (cursus honorum) حتى تولى القنصلية عام ٦٣ ق.م. وأحبط وقتئذ مؤامرة كاتيلينا (Catilina) فأنقذ روما من التخريب . وبرغم ذلك كله فقد فشل شيشرون كسياسى لتردده وتقلبه وعدم انتهاجه سياسة معينة ، وقد حاول عبثا ايجاد نوع من الوئام (concordia ordinum) بين طبقة الفرسان (Equites) التى كان ينتمى اليها ، وطبقة الاشراف أو السناتو (Optimates) . على أنه كنصير للنظام الجمهورى القديم لم يرض عن دكتاتورية يوليوس قيصر فانحاز الى جانب بومبى (Pompeius) الذى منى بالهزيمة . ولم يكن لشيشرون يد فى المؤامرة التى قضت على حياة قيصر فى مارس ٤٤ ق.م. ، الا أنه هاجم ماركوس أنطونيوس أحد أنصاره هجوما عنيفا فى مجلس الشيوخ (Senatus) فلقى حتفه بسبب ذلك على يد الحكومة الثلاثية التى كان أنطونيوس عضوا فيها . ومن خطبه « ضد فريس » ، و « ضد كاتيلينا » ، ومن مؤلفاته الاخرى « الشيخوخة » ، « رسائل الى الاصدقاء » ، « القوانين » .

(Horatius) [١]، وبروبرتيوس (Propertius) [٢]، ورسائل بلينيوس الأصـــغر (Plinius) [٣]، وقصائد مارتيالس (Martialis) [٤] .

[١] امام الشـــعر الغنـــائي اللاتيني (٦٥ ــ ٨ ق٠م٠) ولد في فينوسيا (Venusia) بايطاليا عن أب من العتقــاء ٠ وقد عاصر فرجيل (Virgilius) أعظم الشعراء الرومان ، الذي قدمه الى ميكناس (Maecenas) نصير الآداب فقربه وضـــمه الى شـــعراء بلاط الامبراطور أوغسطس (Augustus) الذى منحه ضيعة بالقرب من تيبور (Tibur) في أقليـــم لاتيوم ٠ ويمتاز شعره بالايجاز والأناقة والاتقان وبراعة النظم وجودة الصياغة ، وتســـوده روح الرقـــة والدعابة والتهكم وان أعوزه عمـــق التفكير وحرارة العاطفة٠ومؤلفاته الادبية عديدة من بينها (الهجائيات) (Satirae) ، (الرسائل) (Epistulae) ، (الاغانى) (Carmina) (فن الشعر) (Ars Poetica) ، (النشيد المئوى) (Carmen Saeculare)

[٢] شاعر غزلي ولد حوالى ٥٤ ق٠م٠ وتوفى بين عامى ١٦ ق٠م٠ و ٢ م ٠ اتصل بميكيناس وتقرب من أوغسطس ، وكان صديقا لاوفيد (Ovidius) الشـــاعر الغزلى المشـــهور ٠ ومعظم شعره فى التشبيب (وخاصة بمحبوبته الغادرة كينيثا Cynthia) والرثاء ، والمديح ٠ وقد تأثر بمدرسة الاسكندرية ٠

[٣] كاتب رومانى (٦١ ــ ١١٤ م ٠) اشتغل بالمحـــاماة وتدرج في سلك الوظائف العامة واكتسب خبرة واســـعة في الشئون المالية وقد ولاه الامبراطور تراجان (Traianus) حاكما على ولاية بثونيا (Bithynia) فى آسيا الصغرى٠وأهم مؤلفاته هي (الرسائل) (Epistulae) ونخص بالذكر منها رسالته التي وصف فيها قصره ، ورسالته فى وصـــف بركان فيزوف (الذى هلك فيه عمه بلينيوس الاكبر مؤلف كتاب «التاريخ الطبيعى» (Naturalis Historia) وأخيرا رسالته الشـــائقة الى تراجان التي يصف فيها استجوابه للمسيحيين في بثونيا ٠

[٤] شاعر رومانى (حوالى ٤٠ ــ حوالى ١٠٤ م) ولد فى اسبانيا ثم رحل الى روما حيث غشي قصور الاثرياء وأخذ يمدحهم وينادمهم ثم انصرف عنهم وهجاهم ، وقد برع في نظم القصائد القصـــيرة المعروفة باسم ابجراماتا (Epigrammata) التى بلغت على يديه ذروة الكمال ٠ وقد اتخذ من الهجاء أداة يسخر بها من نقائص المجتمع الذى اندمج مارتياليس في جميع أوساطه وألم بجميع عاداته وميوله فاستطاع أن ينقل الينا صورة جلية عن كل ماكان يجرى فيه ٠

ولكن هذه المعلومات التى نستقيها من المؤلفات الأدبية لاتتناول سوى فترات معدودة ومناطق محدودة . ولدينا من كافة أنحاء العالم القديم ذخيرة من النقوش تتزايد باستمرار ، ولعلم النقوش فضل كبير فى توسيع أفق معارفنا التاريخية . غير أننا لا نجد حتى فى النقوش ذلك التنوع الذى نجده فى أوراق البردى ، ولا نستشعر تلك الصلة المباشرة التى نحسها عند قراءة الأخيرة . إن الوثيقة لا تنقش عادة على الحجر أو تحفر على البرونز ما لم يكن لها على الأقل بعض الأهمية الدائمة التى تتصل بالصالح العام ، ولو أن هذه الأهمية قد تبدو ضئيلة فى نظر الأجيال التاليه . هذا إلى أن النقش يتسم بطابع رسمى ويحتاج إلى التحضير، فى حين أن الخطاب أو المذكرات العابرة المدونة على البردى قد تكشف لنا عن الأحاسيس التلقائيه الخالية من التكلف لشخص مغمور ، ولكنها مع هذا قد تكون ذات أهمية للمؤرخ الحديث لأن كاتبها يعبر عن وجهة نظر الرجل العادى . فالوثائق البردية بوجه عام إنما تحدثنا فى الواقع عن الأشخاص العاديين ومتوسطى الحال غير البارزين ممن ينتمون إلى كافة الطبقات : المواطنين الموسرين سكان عواصم الأقاليم المصرية وأصحاب الحرف والفلاحين الفقراء .

وهكذا نجد أنفسنا على اتصال وثيق بطبقات من الناس قلما يعنى المؤرخ السياسى بالتعرض لها أو يرد لها ذكر حتى فى تلك المؤلفات الأدبية التى نوهت عنها . ويهم الباحث التاريخى بالذات أن يتزود

بمعلومات عن الحياة اليومية لعامة الشعب ، بيد أن أغلب ما يسجله التاريخ السياسى هو الزبد الطافى على سطح الوجود الانسانى ، وتحت هذا كله ، تسير حياة الانسان العادية من جيل إلى جيل معرضة لتصاريف القدر ، مؤلفة فى جوهرها من شئون رتيبة تافهة غير خليقة بسجل منفرد — فالأوراق البردية بتسجيلها هذه الشئون تسهم فى تقويم الانحراف الذى يعيب التاريخ عندما يتحيز فلا يسجل سوى الاحداث الجسيمة البارزه .

لكن ينبغى التوكيد بأن مدى الانتفاع بأوراق البردى كمصدر تاريخى محدود جدا : أولا ، لأن مصر ، كما ذكرت فى مستهل حديثى ، كانت على الدوام بلدا ذا طابع فريد وتبدو فى نظر الشعوب الأخرى أمة غريبة الاطوار مختلفة عن سائر الامم . ونحن لا نستطيع أن نطبق دائما على كافة أقطار البحر الابيض المتوسط النتائج التى نعتبرها نظراً لكفاية الادلة صحيحة بالنسبة إلى مصر ، وثانياً ، لان البرديات نفسها موزعة توزيعا سيئا سواء من الناحية المكانية أو الناحية الزمنية ، فهى تكاد أن تكون منعدمة فى الدلتا بوجه عام . وأما الإسكندرية فبردياتها أوفر ولكنها غير كافية إطلاقا . وكانت بمصر العليا مدينة إغريقية تسمى « بطلمية » (Ptolemais) ، ويهمنا جداً أن نحصل على معلومات وافية عنها (١) . غير أننا لم نعثر على أية

(١) أنظر :
G. Plaumann, ***Ptolemais in Oberaegypten.***
(Leipziger Historische Abhandlungen, Heft XVIII, 1910)

أوراق بردية بين أطلالها ، وليس لدينا عنها سوى معلومات طفيفة مستمدة من نقش واحد أو اثنين وبرديات قليلة وجدناها فى أماكن أخرى . هذا إلى أن الاحوال فى مصر كانت تختلف اختلافا بيّناً من منطقة إلى أخرى . وما يسرى على الفيوم قد لايسرى بحال على منطقة طيبه . كما أن المعلومات عن كل منهما قد لا تتمشى مع ما كان سائدا فى الدلتا . ومعلوماتنا موزعة توزيعا غير متكافىء من الناحية الزمنية أيضاً ؛ فوثائق القرن الخامس الميلادى لا تزال شحيحة ، وهكذا الحال بالنسبة إلى وثائق القرن الاول قبل الميلاد . وحتى عندما تتوافر لدينا وثائق عن فترة بعينها ، فقد نجد أن هذه الوثائق تتعلق بمنطقة واحدة أو اثنتين فقط من المناطق التى جاءتنا منها أوراق البردى أو الشقافات ، بينما لا تشير وثائق تلك الفتره إلى المناطق الاخرى سوى إشارات عابره . وعندما نستعرض أحوال مصر فى فترة تكون وثائقها وفيرة فى إحـــدى المناطق ومنعدمة فى مناطق أخرى وثائقها وفيرة فى غير هذه الفترة ، فنحن نطبق بذلك على البلاد كلها ما هو صحيح فقط بالنسبة إلى جزء منها ، وما يعزى هناك إلى عوامل محلية بحته .

وهناك أيضاً أمر آخر ينبغى أن نحتاط له . ففى دراستنا للوثائق البردية نميل فى أغلب الاحيان إلى تصديق محتوياتها بينما نضن بمثل هذه

الثقة على أقوال المؤرخين ، ولا يتردد الناس فى الاعتقاد بأن المؤرخ قد يكذب بينما الوثائق صادقة . لكن ذلك وهم باطل ، فالوثائق فى الغالب أقوال من جانب واحد ، وقد كتب بعضها بقصد التمويه والخداع ، ولذلك ينبغى علينا أن نزنها ، كما نزن أقوال المؤرخ ، وأن نختبرها فى ضوء الحقائق الأخرى إن كانت ميسورة ، أو فى ضوء نظرية الترجيح العام . وعلى فرض صحة ما يرد فى الوثائق البردية . فليس ثمة ما يمنع من أن يكون مضللا ، فالناس لا يكتبون الشكاوى ولا ينغمسون فى القضايا تعبيراً عن رضائهم ، إنما يفعلون ذلك بسبب نزاع أو ضرر أو اضطراب اعترض مجرى حياتهم العادية . وقد نستخلص من قراءة بعض القضايا والشكاوى التى حصلت فى جهة معينة أو أثناء فترة من الفترات أن الأحوال وقتئذ كانت سيئة للغاية ، وأن الموظفين جميعاً كانوا مرتشين غير أكفاء ، وأن الأزمة الاقتصادية كانت محتدمة ، وأن الخصومات القضائية كانت متفشيه ، ويفوتنا فى نفس الوقت أنه ربما كان يوجد فى مقابل كل فرد منغمس فى مثل هذه القضايا ، عشرات أو مئات من الأفراد ممن لم يكن لديهم باعث جدى على التذمر . وينبغى علينا فى الواقع أن نضاهى المعلومات المستمدة من أوراق البردى ، إذ أمكن (ومن المؤسف أن ذلك غير ممكن فى أغلب الأحيان) بالمعلومات الأخرى المستمدة إما من علم الآثار (Archaeology) الذى يكشف لنا عن مساكن وأدوات

منزلية تنم عن مظاهر رخاء لاسبيل إلى استجلائها من بين سطور أوراق البردى أو من علم المسكوكات (أو النوميات Numismatics) الذى يختص بدراسة أكداس النقود ، أو غيرهما من المصادر . وبعد أن يتخذ عالم البردى كل الاحتياطات ، ويقدر جميع القيود ، فلا مناص من إدراكه بأنه عرضة للزلل ، فقلما تكون الوثيقة البردية كاملة أو غير مشوهة ، وكثير من البرديات التى توصف بأنها وثائق رئيسية لم تسلم من العطاب البليغ ، ويستند جانب كبير أو صغير من قراءة النصوص التى بين أيدينا إلى الترميم القائم على الحدس والتخمين ، كما أن صعوبة القراءة الناجمة إما عن انطماس الكتابة أو عن الاهمال فى الخط ، من الأمور المألوفة . والوثائق البردية ناقصة دائماً وتأتينا عرضاً ، ولا دخل لنا فى اختيارها ، وإنما القدر هو الذى حفظها لنا وأعاننا على اكتشافها ، ولعل هذا هو السبب فى تشعب موضوعاتها ، ولو أن ذلك ينطوى على عيب ، وهو أن هذه الوثائق التى قدر لها البقاء قد لا تكون هى أهم ما كان المؤرخ النابه يختاره لو كان الأمر بيده . ويعيش من يدرس أوراق البردى دائماً وسط جو ملىء بالافتراضات والاستنتاجات المستخلصة من حقائق غالباً ما تكون مبهمة غير كاملة ؛ وهو يدرك أن إضافة إثنين إلى إثنين لا تستتبع حتماً أن يكون حاصل الجمع أربعة ، بل قد يكون خمسة أو ستة !

وسوف استعرض فى الفصول الثلاثة التالية تطور مصر الاقتصادى

والاجتماعى خلال فترة مداها ألف عام على وجه التقريب، ومن المستحيل - إن لم يكن فى ذلك مايبعث على السأم - أن أذكر الدليل الذى يؤيد كل عبارة ترد على لسانى. وأرجو الا يغيب عن ذهن القراء أنى مضطر أن أكتب هذه العجالة بلهجة المستيقن مع أن الدقة التامة لاتبررها.

ويتضح مما قلته أن علم البردى ليس علما مستقلا، وإنما هو فى جوهره، كما وصفه العالم الألمانى فيلكن، فرع مساعد (Hilfsdisziplin) من فروع الدراسات القديمة. ومن التاريخ القديم بالذات. ولهذا الفرع فى الواقع ميدانه الخاص وفنه الذى ينفرد به. ولكنه وإن كان مضطراً من ناحية أن يعتمد على غيره من فروع الدراسة، فهو يسهم من ناحية أخرى فى زيادة المعرفة بنصيب هو وحده القادر على أدائه. فعالم البردى يدين للمؤرخ بتفسير الظروف والملابسات التى كتبت فيها الوثائق التى يعالجها. ولا مناص من أن يستعين بما ينشره ويشرحه عالم النقوش. وأن يستعين، تبعا للعصور، بأوراق البردى الديموطيقية، أو القبطية، أو العربية التى يتولى ترجمتها العلماء المتخصصون. وفى وسع عالم المسكوكات أن يقدم خدمات جليلة تعين على فهم مشاكل النقد والعملة التى ترد فى أوراق البردى. ويميط عالم الآثار اللثام عن المخلفات المادية للمجتمع الذى كتبت فيه أوراق البردى، كما يسهم علماء اللغة بدراساتهم فى الصرف والنحو والفقه فى شرح نصوص هذه

الأوراق ، وأهم من ذلك مساهمة رجل القانون الذى لا غناء عنه لتفسير الوثائق القانونية الكثيرة تفسيراً صحيحاً . ومن جهة أخرى يمد علم البردى جميع هذه الفروع الأخرى من فروع الدراسة بمادة ذات قيمة بالغة ، فمؤرخ العالم القديم الذى يتجاهل الحقائق المستمدة من أوراق البردى هو مؤرخ مجازف يعرض نفسه للزلل . ويستطيع قارىء المخطوطات الحديث بفضل أوراق البردى أن يرجع بدراسة الخط اليونانى إلى الوراء عدة قرون وهو مالم يكن ميسوراً لأسلافه من علماء فجر القرن التاسع عشر . ويجد عالم النحو والأصوات فى الوثائق المكتوبة بأيدى أنصاف المتعلمين معلومات قيمة جداً لدراسة تطور اللغة اليونانية . وسيجد عالم الدراسات القديمة بوجه عام أن محصول الأدب الإغريقى الموجود قد ازداد زيادة ملموسة ، وأن عدداً غير قليل من المشاكل الأدبية قد اتضح بفضل الأوراق البردية التى اكتشفناها فى مصر . كما أفادت دراسة القانون كل الافادة من الوثائق القانونية المدونة على أوراق البردى . وبعد ، فإذا كان عالم البردى مضطراً إلى الاستعانة فى كثير من الأحيان بالدراسات الديموطيقية أو القبطية أو العربية ، فإن علماء هذه الدراسات مدينون له باستمرار بما يزودهم به من معلومات .

فى الحق أننا نستشعر فى دراسة علم البردى ، كما هو الحال فى كثير

من الدراسات الأخرى ، لذة العمل المشترك التى تحفزنا على تحقيق غاية أسمى . وهذا العمل كان دائماً ولا يزال دولياً فى طابعه . وعلى العموم فإن علم البردى كان على غير المألوف خالياً من شوائب تلك الخصومات المريرة ، والأحقاد الشخصية أو القومية التى شابت بعض فروع الدراسة القديمة والحديثة .

مراجع الفصل الاول

١ ـ كتب عامة عن علم البردى

Mitteis (L.) und Wilcken (U.), *Grundzüge und Chrestomathie der Papyruskunde.* Leipzig-Berlin, Teubner, 1912.

وهو مرجع رئيسى لا غناء عنه لدراســـة أوراق البردى اليونانية دراسة وافية دقيقة ٠

ويتألف من مجلدين هما

1. Grundzüge
II. Juristischer Teil

وينقسم كل منهما بدوره الى قسمين :

1. Grundzüge
2. Chrestomathie

ويشار الى النصوص فى القسم الثانى من كل مجلد بالاختصارات W. Chrest. و M. Chrest على التوالى. والمجلد الاول بقلم فيلكن وهو يتناول البردى كعلم ، والتاريخ ، والقوميات والخلافات العنصرية ، والديانة ، والتعليم ، والنظام المـالى ، ونظام الضرائب ، والادارة ، والصناعة والتجارة والزراعة ، ونظام البريد والنقـــل ، والجيش والشرطة ، والحياة الاجتماعية ٠ أما المجلد الثانى فبقلم ميتايس وقد تناول فيه النظم القانونية والتشريعات القضائية فى مصر اليونانية ـ الرومانية ٠ وتوضح الوثائق المختارة المنشورة فى القسم الثانى من كل مجلد ، ماجاء فى القسم الاول منه ٠

Schubart (W.), *Einführung in die Papyruskunde.* Berlin, Weidmann, 1918.

وهو مؤلف قيم يعتبر مكملا للمرجع السابق ، ولا يقتصر فقط على الموضوعات التى جاءت فى هذا المرجع ، وانما يتناول أيضا البرديات الادبية والمسيحية ، مع شروح وحواش وافية ولو أنه لا يتضمن أية نصوص تفسيرية ٠

Preisendanz (K.), *Papyrusfunde und Papyrusforschung.* Leipzig, Hiersemann, 1933.

Calderini (A.), *Manuali di Papirologia antica greca e romana ad uso delle scuole universitarie e delle persone colte.* Milan, Ceschina, 1938.

Peremans (W.) en Vergote (J.), *Papyrologisch Handboek.* Louvain, Beheer van Philologische Studiën, 1942.

أحدث مرشد فى علم البردى ، وهو مكتوب باللغة الفلمنكية ، ولكل فصل مراجع وافية جدا ٠ ولم يكتب المؤلفان الفصلين الاخيرين من الكتاب ، وهما عن الثقافة والحياة الخاصة ٠ واكتفيا بذكر مراجعهما ٠

David (M.) and van Groningen (B.A.), *Papyrological Primer.* Leyden, Brill, 1946.

الطبعة الثانية بالانجليزية [وقد ظهرت فى ١٩٥٢ الطبعةالثالثة] والكتاب يتضمن خمسة وثمانين نصا اختيرت ونشرت بعناية فائقة ، وقد انتقاها المؤلفان لتدريب المبتدئين فى علم البردى وتعريفهم بمختلف فروعه مع مقدمة جيدة جدا،وان كانت موجزة،عن الموضوع،

ونضيف الى قائمة المؤلف المرجعين التاليين :

W. Otto und L. Wenger (Hrsg.), ***Papyri und Altertumswissenschaft*** **(= Münchener Beträge Zur Papyrusforschung, XIX)** **1934.**

K. Preisendanz, «Papyruskunde», *in Handbuch der Bibliotekswissenschaft*, Bd. I, Stuttgart, (1950), pp. 50-88.

٢ ـ كتب عن فن قراءة المخطوطات وعن الوثائق

Gardthausen (V.), ***Griechische Palaeographie;*** 2nd ed., 2 Vols.. **Leipzig, 1911-13.**

وهو مؤلف شامل عن فن قراءة المخطوطات الاغريقية بما فى ذلك الوثائق البردية .

Kenyon **(F.G.),** ***The Palaeography of Greek Papyri.*** *Oxford, 1899.*

وهو كتاب قديم ولكن لايزال مفيدا .

Schubart (W.), ***Papyri Graecae Berolinenses.*** Bonn, 1911.

يتضمن صورا طبق الاصل لمجموعة من الوثائق مع قراءتها .

Schubart (W.), ***Griechische Palaeographie.*** **Munich, 1925.**

ويتناول فن قراءة المخطوطات وخاصة أوراق البردى .

Thompson (E.M.), ***An Introduction to Greek and Latin Palaeography.*** **Oxford, 1912.**

وهو مؤلف عام عن فن قراءة المخطوطات ، يتضمن معلومات وفيرة عن أوراق البردى .

Van Hoesen (H.B.), ***Roman Cursive Writing.*** **Princeton, 1915.**
Kenyon (F.G.), ***Books and Readers in Ancient Greece and Rome*** **Oxford, 1932.**

(وقد ظهرت طبعة ثانية لهذا الكتاب فى ١٩٥٠)

Birt (Th.), *Das antike Buchwesen*. Berlin 1882.

Schubart (W.), *Das Buch bei den Griechen und Römern*. Berin-Leipzig, 1921. Lewis (N.), *L'Industrie du Papyrus dans l'Egypte Gréco-Romaine*. Paris, 1934.

ونضيف الى قائمة المؤلف المراجع الآتية :

B.A. van Groningen, *Short Manual of Greek Palaeography*. Leiden, 1940.

H. L. Pinner. *The World of Books in Classical Antiquity*. Leiden, 1948.

A. Bataille, Pour une *Terminologie en Paléographie Grecque*. Paris, 1954.

٣ ـ كتب عن النحو والمعاجم :

Mayer (E.), *Grammatik der griechischen Papyri aus der Ptolemäerzeit* :

Bd. I : Laut und Wortlehre :

1. Teil : (لم يظهر بعد)
2. Teil : Flexionslehre (2te Aufl. 1938)
3. Teil : Stammbildung (2te Aufl. 1936)

Bd.II : Satzlehre :

1. Teil : Analytischer (1926)
2. Teil : Analytischer (1933)
3. Teil : Synthetischer (1934)

Palmer (L.R.), *A. Grammar of the Post-Ptolemaic* Papyri (vol. I, Accidence and Word-Formation, Part I : The Suffixes) London 1946.

Kapsomenakis (S.G.), *Voruntersuchungen zu einer grammatik der Papyri der nachchristlischen Zeit*. Munich, 1938.

Preisigke - Kiessling, *Woerterbuch* (انظر ص ٣٥ حاشيه ١)

Preisigke, *Namenbuch* (انظر ص ٣٥ حاشيه ٢)

Gradenwitz, Kontraerindex (أنظر ص ٣٦ حاشيه ٣)

Moulton (J.H.) & Milligan (G.), *The Vocabulary of the Greek Testament*. London, 1930.

(ويفسر مفردات الانجيل اليونانى فى ضوء لغة أوراق البردى)

Liddell (H.G.) & Scott (R.), *A Greek-English Lexicon*. New Ed. by H. Stuart Jones & R. Mckenzie. Oxford, 1940.

(وهذه الطبعة الاخيرة من القاموس المشهور تشير باســتمرار الى الالفاظ الواردة فى أوراق البردى) ٠

Meecham (H.G.), *Light from Ancient Letters*. London, 1923.

٤ ـ كتب للبحث فى موضوعات معينة :

(يجد القارىء البحوث الخاصة بموضوعات بعينهـــا عن فترات محدودة فى الحواشى وفى مراجـــع كل فصل ٠ ونذكر هنـــا بعض مؤلفات مفيدة تتناول العصر اليونانى ـ الرومانى كله ، وهى مرتبة حسب الموضوعات)

Taubenschlag (R.), *The Law of Greco-Roman Egypt in the light of the Papyri*. New York, 1944.

[ونضيف هنا أن الجزء الثانى من هذا الكتاب قد صدر فى عام ١٩٤٨ وهو خاص بالموضوع الآتى :

(Political and Administrative Law (= Eus Supplementa Vol. 19.)

وانظر أيضا :

Mitteis, *Grundzüge* & P. Meyer, *Juristische Papyri*.

[M. San Nicolo, *Aegyptisches Vereinwesen zur zeit der Ptolemäer und Römer*, Bd. I, 1913 ; Bd. II, Teil I, München, 1915]

Segrè (A.), *Metrologia e circolazione monetaria degli antichi*. Bologna, 1928.

Schnabel (M.), *Die Landwirtschaft im hellenistichen Aegypten*, Vol. I, Munich, 1925.

Otto (W.), *Priester und Tempel im hellenistischen Aegypten.* Leipzig - Berlin, *1905-8.*

[Otto (W.), *Beiträge Zur Hierodulie im hellenistischen Aegypten* (= Abh. Bay. Akad. wiss., phil.-hist. Kl. N. F. Heft 29) München, 1950.]

Hophner (Th.), *Fontes Historiae Religionis Aegyptiacae.* Bonn, 1922-5.

الفصل الثانى

العصر البطلمى

الاسكندر فى الشرق :

فى أوائل شهر نوفمبر من عام ٣٣٣ ق . م . التقى الاسكندر الأكبر بالملك العظيم نفسه عند إسوس (Issos فى كيليكيا (Cilicia) بعد انقضاء ستة أشهر على النصر الذى ظفر به الاسكندر على الولاة الفرس عند نهر جرانيكوس (Granicus) . وبرغم أن التفاوت بين عدد قوات الطرفين كان هائلا ، وان قوات الملك دارا (Darius) نظمت فى هذه المعركة تنظيما بارعاً لم يتسن لقادته فى المعركة السابقة ، إلا أن عبقرية الاسكندر كانت كفوأ لبضعة آلاف من الرجال ، ولهذا ما كادت تنتهى المعركة حتى كان الملك العظيم قد فر فزعاً إلى قلب آسيا ، بينما هرب رجال جيشه جميعاً باستثناء فرقة المرتزقة الإغريق [١].

وانفتح سبيلان أمام الاسكندر بعد ذلك : فهو يستطيع أن يقتفى

[١] قاد الاسكندر الاكبر اغريق أوربا فى غزوة كبرى ضد الفرس ، فانتصر عليهم ودك عرشهم وشيد امبراطورية واسعة على انقاض ملكهم . وكانت هذه الغزوة انتقاما لغزوات الفرس فى بلاد الاغريق ، تلك الغزوات التى تعرف باسم الحروب الميدية والتى بدأت بمعركة ماراثون فى عام ٤٩٠ ق.م. وانتهت بمعركة ميكالى البحرية فى عام ٤٧٩ ق.م.

أثر دارا وأن يحقق على الفور دعواه التي نادى بها منذ حين فيصبح سيد آسيا ، وهو يستطيع أيضاً أن يترك الفرس يعيدون تنظيم صفوف جيشهم ريثما يقوم هو بتثبيت أقدامه في الغرب . ولم يكن الاسكندر حينئذ إلا شاباً في الثالثة والعشرين من عمره ، لكنه كان يتمتع بعقلية السياسي الخبير والقائد المحنك ، ولهذا آثر السبيل المأمونه على السعي وراء نصر براق : كان يعرف أن تعبئة قوات آسيا تتطلب وقتاً طويلا ولم ينس ـ من ناحية أخرى ـ أن الاسطول الفارسي يربض وراء ظهره ، ولا قبل له بالوقوف في وجه هذا الأسطول الذي يستطيع أن يقطع عليه تماما طريق الاتصال بمقدونيا . فالسياسة الحكيمة إذن تقتضي الاستيلاء على شواطيء شرقي البحر الأبيض المتوسط حيث توجد قواعد الأسطول الفارسي التي يعجز عن مواصلة عملياته بدونها. لهذا اتجه الاسكندر جنوباً ، واحتل دون عناء مدن الساحل السوري الشمالي ، كما استولى على صور بعد حصار دموي طويل ، ثم مضى في طريقه متجهاً نحو مصر .

وقبل أن تسقط صور دعي الاسكندر إلى اتخاذ قرار حاسم : ذلك أن دارا كتب إليه عارضا عليه يد ابنته ، وعقد محالفة بينهما ، متنازلا له عن الممتلكات الفارسية غربي الفرات . وكان العرض مغريا . ولو أن الاسكندر قبله ، أو أنه قتل عند نهر جرانيكوس يوم انقذه سيفه

كلايتوس (Cleitus) من طعنة صوبها إليه الوالى الفارسى سبيثريداتيس (Spithridates) ، إذن لتغير تاريخ العالم كله . لكن أطماع الاسكندر كانت قد زادت بعد اسوس ؛ وعندما صرح قائده الأمين پارمينيون (Parmenion) بأنه ما كان يتردد فى قبول عرض دارا لو أنه كان فى محل الاسكندر ، أجاب هذا ببساطة « وكذلك كنت أفعل لو أنى كنت پارمينيون » .

ولم تكن مصر فى وقت من الأوقات عضواً راضياً أو مريحاً فى جسم الامبراطورية الفارسية : فبين المصريين الذين تعددت آلهتهم ، وبين الفرس الذين كرهوا الأصنام وجنحوا إلى التوحيد ، كان التنافر جوهرياً واضحاً . وكما فعلت فرنسا فمدت يد العون للأيرلنديين فى حربهم ضد انجلترا ، كذلك فعل الاغريق فشجعوا الثوار المصريين وساندوهم [١] . وظلت مصر فى واقع الأمر مستقلة خلال فترة طويلة من القرن الرابع ق . م . ولم يستطع الفرس خلع آخر فرعون وطنى إلا قبل وصول الاسكندر بعشرة أعوام . وعندما أدرك الوالى الفارسى «مازا كيس» عبث المقاومة ، استسلم دون قتال

---

[١] كان المصريون حينئذ قد ثاروا على الحكم الفارسى بقيادة زعيم ليبى يدعى ايناروس (Inaros) . وطلب هذا الزعيم عون أثينا فاستجابت له وأرسلت الى مصر أسطولها الذى كان عندئذ يرابط حول جزيرة قبرص متأهبا لمنازلة الفرس . ولكن هذه الحملة فشلت .

فى خريف ٣٣٢ ق . م . ودخـــل الاسكندر منف (Memphis) حيث سلك مسلك الهليني العريق [١] ، ونهج نهجا يختلف تماماً عن نهج الفرس ، فقدم ولاءه للآلهة الوطنية ، وقبله المصريون فيما يبدو ملكا على الفور . وكهليني أصيل أيضاً ، احتفل بانتصارة فأقام مباريات رياضـية وحفلا تمثيليا موسـيقيا اشترك فيه عدد من كبار الفنانين الأغريق . ومن منف اتخذ الاسكندر طريقة فى الفرع الغربى للنيل قاصـداً كانوب (Canopus) حيث شيد فوق شريط من الأرض الرملية ، يقع بين بحيرة مريوط والبحر ، مدينة إغريقية تحمل اسمه ، هى مدينة الاسكندرية . ومنها مضى إلى واحة سيوه ليستلهم وحى الإله المصرى آمون الذى كان الإغريق يشبهونه بإلههم زيوس (Zeus) . أما لماذا فعل ذلك ، وماهى الأسئلة التى وجهها للإله ، وماهى الإجابات التى تلقـاها . فتلك مشاكل اختلف فيها المؤرخون ، ولن نستطيع حلها حلا شافياً قاطعا . لأن الإسكندر احتفظ بسرها لنفسه ، وكتب إلى أمه يقول إنه لن يبوح بهذ السر إلا لها عقب عودته ، ولـكنه توفى

---

[١] هلينى أى اغريقى ، وهى نســبة الى هلاس (Hellas) تطلق على شتى البقـاع التى استقر بهـا الاغريق قديما . أما كلمـة الاغريق (Graeci) فهى الاسم الذى أطلقه الرومان على الهلينيين .

ولم يعد إلى مقدونيا فدفن معه سره . (١)

على أننا نعرف شيئاً واحداً ، ذلك أن كاهن آمون حياه كابن للإله وتلك كانت عند المصريين تحية تقليدية توجه لكل ملك مصرى ، وقد غدا الإسكندر ملكا على مصر ، فهو خليق بها . لكن الإسكندر لم يكن يعرف ذلك ، ولم يكن آمون عنده سوى زيوس كبير آلهة الإغريق ،وقد ترك هذا الحادث فى نفسه أثراً قوياً عميقاً . ولما كان الإسكندر رجلا شديد التدين واسع الخيال ، فقد اعتقد أنه يحظى دائما برعاية الآلهة وحمايتهم، واعتقد بالتالى أنه ابن للاله زيوس ـ آمون، كما اعتقد أيضاً أن حملته العسكرية ليست سوى رسالة إلهية . وأخذت أفكاره هذه تزداد نضوجاً واتساعا فى خلال الأعوام التالية . لقد نزل بآسيا كخليفة لوالده ملك مقدونيا ، وقائد أعلى لبلاد الإغريق ، وأداة مختارة للثأر من الفرس عدوهم القديم . وها هو ذا قد أصبح الآن ملكا للفرس ، وحاكماً نصف مؤله مهمته أن يأسو الجراح القديمة وأن يمحو آثار الكراهية المتأصلة . وعقب عودته إلى سوسا Susa [عاصمة الإمبراطورية الفارسية] من حملاته المظفرة التى أوصلته إلى قلب

---

(١) يجد القارىء دراسة حديثة لهذا الموضوع فى :
P. Jouguet, « Alexandre à l'oasis d'Ammon et le témoignage de Callisthène », *Bull. de l'Inst. d'Egypte*, XXVI, 1944, pp. 91-107.
وفى الحاشية الاولى بصفحة ٩٢ من ذلك المقال ثبت بالدراسات السابقة فى نفس الموضوع .

البنجاب ، أقام حفل زواج كبير أقترن فيه بابنة الملك دارا ، كما اقترن ثمانون من قادته بزوجات فارسيات أوإيرانيات . ولم يكن هذا كله مجرد مظاهرة سياسية ، وإنما كان عملا رمزيا دينياً يعبر عن إيمان الإسكندر الشديد بوجوب المزج بين أوروبا وآسيا ، ذلك بأننا كما قال الدكتور تارن (١) ـ لانخطىء إذا صدقنا ماقاله الكتاب الأقدمون من أن الإسكندر كان أول من صاغ فكرة الوحدة بين البشر أجمعين فى قالب واضح ، فالناس جميعاً أخوة لأنهم جميعاً أبناء الاله .

والواقع أن الاسكندر لم يجد بين قادته من يشاركه هذا التفكير أو يفهم أهدافه البعيدة . وعندما قضت عليه الملاريا فى الثالث عشر من يونية عام ٣٢٣ ق . م. وهو بعد فى الثالثة والثلاثين من عمره ، بترت مشروعاته بطبيعة الحال ، لكنه برغم ذلك كان قد انجز منها ما يكفى لتغيير مجرى التاريخ ، وأصبحت قوة الظروف وحدها كفيلة بإحداث المزج بين أوروبا وآسيا . لقد انتهت الامبراطورية الفارسية وأصبحت

---

(١) انظر :

WW. Tarn, « Alexander the Great and the Unity of Mankind », (*Proc. Brit. Acad.* XIX, 1933, pp. 123-66).

وانظر أيضا : Plutarch, *Alex.* 27 ، لقد ذكر عنه أنه قال ان الاله أب للناس جميعا ، ولكنه يعتبر أفضلهم آثرهم لديه .

[انظر الآن :

I. Noshy, «Alexander and the Oracle of Amon», [*Ann. Fac. Lett. Univ. Ibrahim*, II, (1953), pp. 75-98).

تخضع من أقصاها إلى أقصاها لحكام مقدونيين يتمتعون جميعاً بقسط من الثقافة الهلينية ، ولا مفر لهم من الاعتماد على سواعد مرتزقة الإغريق ، وعلماء الإغريق ، ورجال الاقتصاد والإدارة والفنيين الإغريق كى يوطدوا دعائم ممالكهم ويزيدوا رقعتها اتساعاً . وكان الإسكندر يشيد المدن الاغريقية حيثما حل ، وترسم خلفاؤه فى آسيا خطاه فى هـــذا الصدد . وكما هاجر المغامرون الاسبان فى القرن السادس عشر إلى الدنيا الجديدة بحثا عن الثروة ، وهاجر البريطانيون فى القرن الثامن عشر إلى جزر الهند الشرقية أو إلى مستعمرات أمريكا الشمالية سعيا وراء الرزق ، كذلك تدفقت أفواج المهاجرين الاغريق شرقا وجنوبا فى خلال القرن الذى أعقب وفاة الاسكندر قاصدة البلاد التى فتحها لهم . وحمل هؤلاء المهاجرون معهم فنونهم وآدابهم وأساليب معيشتهم ، كما نقلوا نظمهم المدنية ومعاهدهم (Gymnasium)[١] وألعابهم وأعيادهم. ولم يأخذ التيار الروحى اتجاها واحدا فحسب ، ذلك أن هؤلاء المهاجرين وقد ابتعدوا عن وطنهم الأصلى واستقروا بين المصريين أو الاسيويين ، لم يجدوا مفرا من أن يوائموا أنفسهم مع بيئتهم الجديدة . ولم يكن فى وسع الحكام الجدد إلا أن يشركوا رعاياهم الوطنيين فى ميدان العمل الحكومى ، وإلا أن يخضعوا هم أنفسهم للمؤثرات الشرقية، وذلك برغم مناوأتهم

---

[١] الجيمنـازيوم هو ناد أو معهـد رياضى ثقـافى كان يرتاده الاغريق لممارسة التمرينات الرياضية وللتحدث فى الشئون العامة .

لسياسة الاسكندر التى كانت تقضى بمعاملة الفرس كأنداد .

تقسيم امبراطورية الاسكندر :

ولست فى حاجة إلى التحدث عن الحـــروب التى أعقبت وفاة الاسكندر [١] ،وحسبى أن أقول إن المسألة فى أول الامر كانت تنحصر فى هذا السؤال : هل يحتفظ بوحدة الامبراطورية ؟ ومن الذى يتولى السلطة العليا فيها ؟ ثم تطورت فيما بعد ، عندما قضى على فكرة الوحدة قضاء مبرما ، إلى صراع بين خلفائه للظفر بالسيطرة السياسية والاقتصادية. وكان بين القادة واحد لم يستهوه السعى وراء السلطة العليـــا ، هو بطلميوس (Ptolemaios) بن لاجوس (Lagos) أحـد حرس الاسكندر الخـاص السـبعة ، الذى أدرك أن عصفوراً فى اليـد خير من عشرة على الشجرة . وقد أفلح هذا القائد فى الظفر لنفسه بولاية مصر فى التسوية التى أعقبت موت الملك ، وقنع بتوطيد مركزه فى هذه الولاية بعـد أن نجح فى احباط المحاولات التى بذلت لخلعه منها . وإذا كان قد غادرها فى بعض الأحيان ليشترك فى الصراع الذى احتدم بين الخلفاء ، باذلا معونته للفريق الذى يتوقع له النصر ،

[١] تسمى هذه الحروب عادة باسـم حروب الخلفاء (Diadochoi) وقد استغرقت وقتا طويلا واستنفدت من الولاة فى أرجاء الامبراطورية جهدا عظيما . وقد بدأت فى ربيع عام ٣٢١ ق٠م٠ واستمرت حوالى أربعين عاما ٠

أنظر : **ابراهيم نصحى** ، تاريخ مصر فى عصر البطالمة (١٩٤٦) حـ ١ ، ص ٣٥ وما بعدها ٠

فإنما كان يفعل ذلك دون أن يعرض نفسه لأخطار لاداعى لها . وكان الاسكندر قد أبدى رغبته فى أن يدفن بواحة سيوه ، وفى معبد أبيه آمون بالذات : لكن بطلميوس كان يعرف أن برديكاس (Perdiccas) ، وصى العرش ، يفكر فى أهداف أخرى ، فإذا به يسرع ويستولى على جثة الاسكندر ويرحل بها مباشرة إلى ولايته ويدفنها ، لا فى الواحة ، وإنما فى منف حيث بقيت حتى نقلها ابنه بعد ذلك إلى مقبرته الشهيرة " سيما " (Sêma) ـ بالأسكندرية ، وكان ذلك تصرفا ينطوى على الفطنة وبعد النظر . وإذا كان يومينيس (Eumenês) [١] وهو الاغريقى الوحيد بين قادة الحرب الأهلية ـ قد أحس بسوء مركزه بالنسبة لخصومه المقدونيين ، فرأى فائدته فى أن ينقل معه خيمة الإسكندر كتعويذة تجلب له الحظ ، مدعيا أن روح سيده لم تبرحها ، إذا كان يومينيس قد فعل ذلك ، ففى وسعنا أن ندرك مدى الفائدة التى عادت على بطلميوس ـ وهو مقدونى المولد ـ من الاستحواذ على جثمان الاسكندر نفسه !

حكم بطلميوس مصر كوال (satrapês) أول الأمر . وقد جاء

---

[١] شغل « يومينيس » منصب السكرتير الخاص لفيليب ملك مقدونيا ، ثم لابنه الاسكندر الاكبر من بعده ، وقد ظفر فى اتفاقية بابل ــ التى أعقبت وفاة الاسكندر لتوزيع الامبراطورية على القادة ــ بولاية كابادوكيا و بافلاجونيا وبونتس بآسيا الصغرى .

فى ديباجة أقدم وثيقة بردية إغريقية اكتشفت حتى الآن ما يلى (١):
"فى السنة السابعة من حكم الاسكندر بن الاسكندر ، والسنة الرابعة عشرة من عهد الوالى بطلميوس ، فى شهر ديوس" أى عام ٣١١ ق . م . وغداة وفاة الاسكندر ، وقع الاختيار على أخيه الأبله غير الشقيق — فيليب أرهيدايوس (Arrhidaeus) كى يحكم بالاشتراك مع ابن الاسكندر المنتظر الذى ولدته بعد ذلك بعدة أسابيع زوجته روكسانا (Roxana) إحدى أميرات باكتريا (Bactria) . وفى عام ٣١٧ ق . م دبرت أولمپياس (Olympias) أم الاسكندر — مقتل فيليب ، ثم لقيت هى حتفها بعد ذلك على يد كاسندر (Cassander) الذى قبض على زمام السلطة فى مقدونيا . وفى عام ٣١١ ق . م — وهو العام الذى حررت فيه الوثيقة سالفة الذكر — قتل كاسندر روكسانا وابنها الاسكندر الصغير . وهكذا لم يعد هناك ملك فوق العرش . ومع ذلك ظل الحكام يسمون أنفسهم ولاة حتى عام ٣٠٦ ق . م . عندما أعلن انتيجونس (Antigonus) نفسه ملكا . وكان لايزال يدعو للاحتفاظ بوحدة الامبراطورية . فلم يكن من منافسيه ، كاسندر فى مقدونيا وسليوكوس (Seleucus) فى سوريا وبطلميوس فى مصر ، إلا أن ردوا عليه بإعلان أنفسهم ملوكا فى ولاياتهم . وهكذا ظهرت

(١) P. Eleph. I = M. Chrest. 283 = Hunt and Edgar, *Select Papyri, 1, No. 1.*

الممالك الثلاث الكبرى التى قدرلها أن تسيطر على العالم الهلينستى [١] حتى أدمجت فى الامبراطورية الرومانية واحدة تلو أخرى .

سياسة البطالمة :

١ ــ تأسيس المدن :

ويبدو أن بطلميوس الذى غدا ملكا على مصر وفرعونا وإلهاً فى نظر رعاياه المصريين ، كان رجلا دمث الطبع ، طيب القلب ، وجنديا لا يعوزه الدهاء ، وصورة صادقة لأفراد الطبقة الثانية من النبلاء المقدونيين ، كما كان رجلا مثقفاً شمل الآذاب الإغريقيه برعايته . وقد وضع مؤلفا عن غزوات الاسكندر ، يعتبر برغم ضياعه من مصادرنا القيمة لأن كثيراً من المؤرخين الذين وصلتنا أعمالهم كانوا يعتمدون على هذا المؤلف . واتبع بطلميوس فى مصر سياسة تختلف عن سياسة سليوكوس فى سوريا حيث حذا هــذا الملك حذو الاسكندر فى تشييد المدن : ذلك أن بطلميوس برغم اعتماده على الإغريق مثل سليوكوس تماما ، قد رأى إقامة جنده المرتزقة بين

---

[١] يقصد بالعالم الهلينستى تلك البقاع التى تألفت منها امبراطورية الاسكندر الاكبر ، وهى مجرد تسمية اصطلاحية . وقد ازدهرت فى هذا العالم حضارة جديدة اصطلح على تسميتها بالحضارة الهلينستيه ، وهى عبارة عن الحضارة الهلينية القديمة ممتزجة بعناصر الحضارة الشرقية ؛

انظر :

W.W. Tarn and G.T. Griffith, *Hellenistic Civilisation*, *3rd éd.*, 1952, pp. 1-2.

أفراد الشعب المصرى سواء أكان ذلك فى قرى الاقاليم أو فى عواصمها، بدلا من إقامتهم فى مدن إغريقية الطراز . وكانوا يطلقون على هذه العواصم اسم متروپوليس (metropolis) ، وهى مدن متوسطة الحجم ، ولكنها فى نظر الإغريق لم تكن أكثر من قرى كبيرة . وبرغم أن الإغريق قد اسموها مدنا (poleis) مثل هرموپوليس - مدينة هرميس Hermoupolis [الأشمونين] وهيراكليوپوليس - مدينة هيراكليس Heracleopolis [أهناسيا] - إلا أنها لم تتمتع بالحكم الذاتى ، ولم تكن بها جمعيات شعبية ولا مجالس للشورى ، كما أنها كانت تخضع لسلطات مدير الاقليم . ولم يشيد بطلميوس سوى مدينة إغريقية واحدة سميت باسمه ، هى مدينة بطلمية Ptolemais [المنشاة باقليم جرجا] على الشاطىء الغربى للنيل فى مصر العليا . وكانت هذه المدينة ، مع الإسكندرية والمدينة الإغريقية القديمة نقراطيس (Naucratis) فى الدلتا ، هى التى تمثلت فيها فكرة الإغريق عن المدينة الهلينية الحرة (polis) (١)

---

(١) انظر : V. Tscherikower, *Mizraim*, IV-V, 1937, pp. 43-45.
حيث يبرهن على ان سياسة بطلميوس الثانى فى سوريا كانت مختلفة عن سياسته فى مصر تماما . وهو يحصى خمس مدن اغريقية أنشئت هناك فى عهده . لكن سياسة فيلادلفوس فى مصر كانت كسياسة خلفائه ، هى نفس السياسة التى وضعها أبوه .

[والواقع أن البطالمة لم يتوسعوا فى انشاء المدن الاغريقية فى مصر لان وجود مثل هذه المدن المستقلة كان يتعارض مع سياسة الحكم الملكى المطلق التى اتبعوها فى وادى النيل]

ب ـ التمييز العنصرى : [١]

لقد قيل إن بطلميوس الأول وخلفاءه تخلوا تماماً عن السياسة التى رسمها الاسكندر ففرقوا من حيث المبـــدأ بين الإغريق (والمقدونيين من باب أولى) والمصريين : فبينما كان الاغريق سادة (Herrenvolk)، كان المصريون مسودين ينتمون إلى جنس أدنى، فأبعدوا بناء على ذلك عن الجيش وعن الوظائف الإدارية الكبرى ، بل لقد قيل أيضاً إن اختيار الاسكندرية عاصمة للبلاد بدلا من منف التى استقر بها ابن لاجوس أول ما استقر ، وإن نقل جثمان الاسكندر إلى مقبرته فى الاسكندرية، كلا العملين كان يعنى التخلى تماماً عن أية فكرة كانت فى الأصل ترمى إلى جعل المصريين أنداداً للإغريق فى إدارة شئون البلاد(٢)

غير أن هذه الأقوال تحتاج فيما يحتمل إلى بعض التعديل ، وإذا كنا لا شك فى أن بعض الاختلاف قد وجد فى الوضع القانونى للطرفين فتمتعت القوات المقدونية بامتيازات معينة ، وألقيت أعمال

---

[١] انظر عن هذا الموضوع، وعن العلاقات بين الوطنيين والاغريق فى مصر ، ووضع كل من العنصرين : **محمد عواد حسين** « الوطنيون والاغريق فى مصر البطلميه» حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس، المجلد الثالث ١٩٥٤ .

(٢) انظر : **Kornemann, «Die Satrapenpolitik des ersten Lagiden», in *Raccolta in onore di Giacomo Lumbroso*, pp. 235-45.**

وقد أخذت أنا بهذا الرأى فى مقالى :

«Alexandria», *J.E.A.*, XIII, 1927, p. 172.

السخرة فى شق قنوات الرى وإقامة الجسور على كاهل الفلاحين المصريين وحدهم (وإن لم يكن ذلك مؤكداً) (١) ، وانتظم الاغريق وغيرهم من المستوطنين فى جاليات (politeumata) لها قوانينها الخاصة ، إذا كنا لانشك فى ذلك، فنحن مع هذا نفتقر إلى الأدلة القاطعة على وجود هذا التميز العنصرى الصارخ الذى ينادى به أصحاب النظرية السابقة. والواقع أن البطالمة الأول ، برغم أنهم أخذوا بقسط وافر جداً من الحضارة الهلينية ، لم يظهروا فى سياستهم الرسمية أى اهتمام بالنظريات الخيالية ، سواء أكان ذلك فى الناحية السياسية أو فى الناحية الاقتصادية ، كانوا حكاماً شديدى المراس ، ورجال أعمال يحرصون أشد الحرص على توفير الاستقرار والثراء والنفوذ فى العالم لهذه الدولة التى أقاموها. وكانت الاعتبارات العملية الخالصة هى الرائد الذى يوجه سياستهم .

ولم يكن المصريون قد جندوا جيوشاً من الطراز الأول منذ انتهاء عهد امبراطوريتهم العظيمة فى خلال الألف الثانية ق . م ، ولهذا فإن البطالمة ـ وقد انقطعت الصلة بينهم وبين وطنهم مقدونيا ، ذلك الوطن الذى أمد الاسكندر بعصب جيشه ـ اضطروا إلى أن يعتمدوا اعتماداً كبيراً على المرتزقة من الإغريق والمقدونيين والفرس والآسيويين المتأغرقين فى تأليف جيوشهم . وابتكر بطليموس الاول

---

(١) انظر : M. Rostovtzeff, *The Social and Economic History of the Hellenistic World*, I, p. 275.

حيث ترك باب الموضوع مفتوحا للمناقشة ، وليس من شك فى أن الاغريق كانوا مكلفين بأداء بعض الخدمات الالزامية .

سياسة إسكان أكبر عدد ممكن من هؤلاء المرتزقة فى مصر ، حيث منحهم إقطاعات من الارض الزراعية (klêroi) نظير قيامهم بالخدمة العسكرية عندما يطلب اليهم ذلك . ومن ناحية أخرى فإن التوسع فى استعمال النقود بدلا من النظام الاقتصادى الطبيعى القديم القائم على المقايضة ـ وذلك أمر بدأ منذ العهد الفارسى ـ قد أدى بطبيعة الحال إلى الاستعانة برجال الاغريق . كما تطلب الأمر الاعتماد على علماء الإغريق وخبرائهم لتنفيذ مشروعات استصلاح الاراضى وللقيام بتجارب علمية فى الميدان الزراعى . ولجأ البطالمة أيضاً إلى رجال الادارة الاغريق لإقامة هذا البناء البيروقراطى المحكم الذى أدار دفه الأعمال فى المملكة . وأصبحت الكوينى (Koinê) [١] ، وهى صورة دولية للغة الإغريقية اشتقت من الأتيكية وطغت حتى على اللهجة المقدونية ، أصبحت لغة البلاط والجيش والادارة . واتجهت أنظار ملوك الأسرة ، فيما وراء حدود مصر ، إلى شرق البحر الأبيض المتوسط حيث كانوا يتطلعون إلى القيام بالدور الرئيسى [٢] ؛ فمصر

---

[١] وهى صفة بمعنى مشترك أو عام ، توصف بها هنا كلمة « لهجه » المحذوفة .

[٢] اختلف العلماء فى تفسير سياسة البطالمة الخارجية ، فذهب كورنمان(Kornemann) إلى أن الاوائل كانوا يطمحون الى بسط سلطانهم على جميع أرجاء العالم شأنهم فى ذلك شأن الاسكندر الاكبر الذى استهدف بناء امبراطورية عالمية . أما فيلكن (Wilcken) فيقول ان مصر كانت فى نظر البطالمة مجرد وسيلة للحصول على الثروة اللازمة =

عندهم لم تكن ســـوى دعامة لقوتهم ، كانت بمثابة ضيعة تمدهم بالغلال وتفيض عليهم بالثراء ، وليس لدينا مايدل على أن أى ملك بطلمى ـ باستثناء كليوپتره الأخيرة ـ قد حاول أن يتعلم اللغة المصرية .

وضع المصريين :

وهكذا نجد للمصريين ، الذين رحبوا بالاسكندر كمنقذ ، بعض العذر إذا أحسوا أنهم فى ظل الحكم البطلمى كانوا يعاملون معاملة الأدنياء المغلوبين على أمرهم ، وذلك من ناحية الواقع إن لم يكن من الناحية النظرية . وازداد احساسهم هذا وضوحاً نتيجة لانعـــدام المساواة (بينهم وبين الاغريق) فى الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية . وقد تكونت فى مصر طبقة أرستقراطية وطنية قوامها بعض كبار رجال الدين وقلة من المدنيين الذين شغلوا بعض المناصب الهامة ، لكن عامة المصريين كانت تنتمى إلى طبقة اجتماعية أدنى من طبقة المستوطنين

= لتحقيق اهدافهم خارجها،وهى القيام بالدور الاول فى سياسة البحر الابيض الدولية وتكوين امبراطوريه فى حوضـه • وأما روستفتزف (Rostovtzeff) فيرى ان مصر كانت فى نظر البطالمة هدفا فى ذاته ، اذ كانوا يريدون بناء دولة قوية غنية فى وادى النيل وعلى شواطىء البحرين الابيض والاحمر ، تستطيع أن تزود عن استقلالها ، ومن أجل هذا كانوا مضطرين الى السيطرة على الطرق البحرية المؤدية الى مصر ، والى الاستيلاء على مايسمى ملحقات مصر الطبيعية • فسياسة البطالمة الخارجية فى رأيه كانت سياسة استعمارية دفاعية وليست استعمارية هجومية كما يعتقد فيلكن • انظر : **ابراهيم نصحى** ، تاريخ مصر فى عهد البطالمة ، حـ ١ ، ص ٢٧ ـ ٢٨ •

الإغريق : كانوا هم أصحـــب الحرف ومزارعى الأراضى الملكية ، وإذا منحوا إقطاعات أو اقتنوا أراضى خاصة ، فإن أراضيهم وإقطاعاتهم كانت عادة أقل مساحة من أراضى الإغريق وإقطاعاتهم . لقد كانوا فى حقيقة الأمر ، وبصورة عامة ، مستأجرين وعمالا ، كانوا أداة التنفيذ بينما كان الإغريق أداة التوجيـه . وليس من شك فى أن المصريين كانوا يشعرون بحطة مركزهم ، فقابل كثير منهم ما اعتبروه احتقاراً من جانب الإغريق بروح العداء الصامت وبرد فعـــل طبيعى تمثل فى الكبرياء القومى وفى ازدراء بدع المستعمرين (١) ولدينا أدلة واضحة ـ تتضمن بعض قصاصات من نبوءات ومن آداب قوميه ـ على وجود حزب قومى نشيط كان رجاله يحلمون باليوم الذى يطرد فيه الأجنبى البغيض .

---

(١) انظر : P. Col. Zen. 66 • وهذه البردية عبـارة عن خطاب من شخص غير اغريقى يميل الناشرون الى القول بأنه عربى ، ولكنـه قد يكون مصريا • والخطاب بصرف النظر عن جنسية كاتبه يبين مدى الشعور بالنقص الذى عانى منـه بعض المصريين والاسـيويين بسبب جنسيتهم،فكاتب الخطاب يقول : « انهم يحتقروننى لاننى غير اغريقى، ولهذا فانى أتوسل اليك أن تتفضـل فتأمرهم باعطائى الاجـر الذى استحقه ، وبأن يقوموا مستقبلا بدفع أجرى بانتظام حتى لاأموت جوعا لانى لا أتكلم الاغريقية (؟) » •(ويترجم الناشرون كلمة (hellenizein) بعبارة (أكون أغريقيا) • لكن على فرض أن الرجل نفسه هو الذى كتب هذه الرسالة الاغريقية ، وذلك أمر ليس هناك مايؤكده ، فان الكلمة قد تكون مجرد صيغة مبالغة لقولهم «انى لا أجيد الاغريقية» ، أنظر : Préaux, *Grecs en Egypte*, p. 69

ويحتمل أن موقف معظم المصريين من النظام الجديد كان موقفاً سلبياً ، فقد تعلم كثير منهم الاغريقية ، وتسمى بأسماء إغريقية ، ولم يتوانوا عن الافادة من الظروف الجديدة مااستطاعوا إلى ذلك سبيلا . وحتى فى القرن الثالث ق . م . نجد عدداً من المصريين يحتلون بعض المراكز الهامة ، وإن لم تكن من المناصب الادارية العليا . أما الكهنة وهم معقل التقاليد القومية ، والمعين الذى طالما أمدالثورات الشعبية بقادتها وزعمائها ، فقد وجدوا حكامهم الجدد أخف وطأة عليهم من حكامهم القدامى . ذلك لأن البطالمة - برغم أن أوائلهم لم يسمحوا بأى انتقاص من سلطاتهم - قد أيدوا للكهنة امتيازاتهم ، وشيدوا معابد جديدة ، كما وسعوا وزخرفوا المعابد القديمة . وبفضل الرعاية الملكية قام مانيثون (Manethon) - وهو كاهن مصرى - بكتابة تاريخ لمصر باللغة الاغريقية ، جمعه من سجلات المعابد وأفواه الناس . وقد فقد هذا التاريخ ولم تبق منه سوى شذرات تافهة . ومع ذلك ظل حتى فكت رموز الهيروغليفية مصدرنا الرئيسى لتاريخ مصر المبكر ، لأن المؤرخين الذين جاءوا بعد ما نيثون نقلوا عنه كثيراً . وقد قامت بين الحروب القاسية التى استنزفت قوى البلاد فى خلال القرنين الثانى والأول ق . م . عدة ثورات ذات طابع قومى . وإذا كنا نسمع عن ثورات قومية منذ القرن الثالث ق . م . إلا أنه لم يحدث فى أى وقت من الأوقات أن ثار المصريون جميعاً ثورة عامة ضد حكامهم

المقدونيين . ففي هذه الثورات التي وصلتنا أنباؤها كان هنـاك بين المصريين من يقف إلى جانب الحكومة ، ومن يقف إلى جانب الشعب . وحتى في عام ١٣٠ ق . م نجد مصريا يدعى پاوس (Paôs) يتولى قيادة القوات الملكية في إقليم طيبة بوصفه مديراً لهذا الاقليم .

وضع الاغريق :

أما عن الاغريق في مصر ، فقد اعتز المواطنون الذين عاشوا منهم في الاسكندرية وبطلمية بتقاليدهم الهلينية، ونظروا إلى المصريين نظرة احتقـار باعتبارهم من المتبربرين ، لكن الذين استقروا في سائر أنحاء البلاد سرعان ماتخلوا عن عزلتهم التي يحتمل أنهم تمسكوا بها أول الأمر ، فتصاهروا مع الوطنيين وتسموا بأسماء مصرية واندمجوا تدريجيا وبطرق شتى في بيئتهم الجديدة . ولدينا رسالة من القرن الثاني ق.م(١). تتحدث فيها سيدة عن ابنها الذى أخـذ يتعلم اللغة المصرية كوسيلة لتحسين مركزه المالى . والواقع أن الاندماج كان أوضح ما يكون في الناحية الدينية : فقد أظهر الاغريق دواما تسامحهم الديني واستعدادهم لعبادة الآلهة الاجنبية ، وسرعان مابدأوا يشبهون الآلهة والآلهـات المصرية بنظائرها الاغريقية حتى ليتحتم علينا ونحن نقرأ أسماء الآلهة الاغريقية في الوثائق البردية أن نسائل انفسنا عما إذا كان المقصود معبودا أو معبودة مصرية. ومن المحتمل أن إغريق مصر قد انصرفوا عن عبادة

---

(١) انظر : P. Lond. I, p. 48, No. 43.

الآلهة الاولمبية [١] ـ على الاقل ـ إلى العبادات المنزلية أوعبادة الآلهة المصرية . وفى عام ٩٨ وعام ٩٥ ق . م نجدمجموعة من شباب الاغريق (ephêboi) ، الذين يتغلون وفقاً للتقاليد الهلينية ، يقدمون الهبات للتمساح إله الفيوم [٢] .

ديانة سرابيس ومحاولة التوفيق :

وعلى عهد بطلميوس الأول ظهرت ديانة جديدة، هى ديانة سرابيس (Sarapis) التى قيل إن الملك ابتدعها لتكون رابطة بين رعاياه الاغريق ورعاياه المصريين . وقد ثار جدل طويل حول أصل هذه العبادة ومصدرها، وكان ماذكره المؤرخون القدامى من أن بطليوس الاول(٣) أحضر تمثال هذا الإله من سينوب (Sinopê) أو غيرها من مدن آسيا ، سبباً فى إرجاع سرابيس إلى أصل أسيوى . وكذلك ذهب بعض العلماء إلى أن سرابيس ليس إلا صورة أخرى للإله البابلى شار آبسى (Shar-apsi) ٠

[١] نسبة الى جبل أولمبوس (Olympus) الذى يقع بين مقدونيا وتساليا ٠ وكان الاغريق يعتقدون أن الآلهة وعلى رأسهم كبيرهم زيوس كانت تسكن فوق قمة هذا الجبل ٠ واشهر الآلهة الاولمبية ، بعد زيوس ، أبولون وأثينا .

[٢] ويعرف فى الاغريقية باسم Souchos

(٣) يروى كليمينس السكندرى (Protrept. IV) أن تمثال الاله ــ كما يذكر بعضهم ــ قد أرسل الى بطلميوس الثانى ، لكن لا شك أن بطليموس الاول هو الذى أنشأ هذه العبادة ٠

لكن الابحاث المستفيضة التى قام بها فيلكن(١)حول هذا الموضوع لم تدع مجالا للشك فى أن الاله الجديد هو المعبود المصرى أوزيريس أپيس «أوسرحاپى» فى صورة هلينية . وكان العجل أپيس (Apis) الذى عبد فى منف ، أشهر الحيوانات المقدسة التى عبدها المصريون ، يصبح بعد موته صورة مطابقة لأوزيريس (Osiris) إله العالم الآخر ، وفى واقع الأمر يتحول إلى " أوزيريس آپيس "ولم يكن أوسورآپيس (Osorapis) فى نظر فيلكن هو العجل أپيس ـ فقط ـ عقب موته ، إنما كان الصورة المجسدة لكل العجول بعد موتها . ولدينا مايدل على أن هذا الاله قد عبد فى المنطقة المحيطة بمنف ، وأن الاغريق أنفسهم اشتركوا فى هذه العبادة قبل ظهور سراپيس [٢] . ويبدو أن كل ماقام به بطلميوس كان تحويل هذا الاله المحلى إلى إله عام ، وتصويره طبقاً للعقائد الاغريقية (وربما كان ذلك بالاستعانة بتمثال من سينوب أو غيرها) فى صورة رجل مثالى الجمال فى عنفوان قوته شأنه فى ذلك شأن الإله زيوس .

---

(١) انظر : U.P.Z. 1, pp. 18-37 :
وعن سرابيس انظر أيضا :
C.E. Visser, *Götter und Kulte in Ptolemäischen Alexandrien*, pp. 20-3.

[٢] انظر : UPZ, No. i
وهى عبارة عن التماس منسيدة اغريقية تدعى أرتميسيا (Artemisia) الى الاله أوسرابيس ، لينزل نقمته على زوجها الذى هجرها بعد أن أنجبت منه طفلة ، وكان ذلك فى أيام الاسكندر الاكبر .

وهكذا نجد إلها مصريا تكتنفه هالة من الاسرار الغامضة التى اكتنفت الديانة المصرية منذ العصور القديمة حتى ذلك الوقت نجده يصوّر فى شكل آدمى كرب الأرباب عند الاغريق، فأية قبلة خير من هذه يمكن أن يتجه إليها الاغريق والمصريون معا؟ لكن إذا كان ذلك حقاً هو هدف بطلميوس، فقد فشل فى تحقيقه. ولاجدال أن استعداد الاغريق لقبول العبادات المصرية كان كافياً لجعل رابطة كهذه التى أرادها بطلميوس غير ضرورية.

وتركزت عبادة سرابيس فى منف والاسكندرية، ولم يجتذب الإله الجديد إلا قليلا من المصريين خارج هذين المركزين. وكذلك كان حاله بالنسبة للغالبية العظمى من الاغريق المتواضعين. وليس أبلغ فى الدلالة على الصبغة المحلية التى اتسمت بها عبادة هذا الاله من أن ورود اسمه فى خطاب خاص يؤخذ دليلا على أن كاتبه كان من مواطنى الاسكندرية، أو على أن الخطاب كتب فى هذه المدنية(١) أما خارج مصر، فقد كانت لسرابيس قصة مختلفة. وليس يستبعد أن نكون قد أسأنا فهم هدف بطلميوس من ابتداع الديانة الجديدة:

---

(١) على أن كثرة اقامة المآدب الدينية تكريما لسرابيس فى أكسيرينخوس (وفى غيرها دون شك) تدل على أن عبادته لم تكن وقفا على الاسكندرية بأية حال.

ذلك أنه بصرف النظر عن عبادته التى تركزت فى الاسكندرية حيث كان سرابيس إلهاً مشتركا ، وقبلة يتجه إليها كافة الناس على اختلاف ألوانهم وتباين أجناسهم ، ورابطة بين هذه المدنية الهلينية الجديدة وسائر انحاء مصر . بصرف النظر عن هذا كله ، فلعل بطلميوس قد ابتكر هذا الاله وهو يستهدف أغراضاً خارجية أكثر منها محلية . ولعله قصد أن يصبح سرابيس راعياً للإمبراطورية البطلمية ، يضفى عليها مزيداً من المهابة بانضمامه كإله مصرى إلى مجموعة الآلهة الدولية فى العالم الهلينى . ولئن صح ذلك فقد وفق بطلميوس فى تحقيق هذا الهدف . والواقع أن أعراض القلق الروحى التى سادت فى خلال القرون الأخيرة من حياة الوثنية قد بدأت تتضح منذ القرن الثالث ق.م . وإذا كنا نميل كثيرا إلى اعتبار الفترة الكلاسيكيه فترة مرح وعدم مبالاة ، فإنه الاحساس بالخطيئة لم يكن مع ذلك معدوماً تماماً بأية حال من الأحوال ، لكن سقوط المدن الحرة ، وظهور المدن الكبرى مثل الاسكندرية وانطاكيه ، وقيام حكومات استبدادية عسكرية كبيرة قد أدى إلى ازدياد واضح فى هذا الاحساس ، صحبه تشوق شديد إلى دين جديد يخلص الناس من أدران الخطيئة ويعدهم بحياة أخرى راضية يعوضون فيها شقاء الحياة الدنيا . وتلبية لهذه الحاجة انتشرت

بعض العبادات ذات الطقوس الغامضه فى بلاد اليونان [١] ، كديانة ديميـــتر (Demeter) فى اليوسِس (Eleusis) ، وديانة ديونيسوس زاجريوس (Dionysus-Zagreus) . غير أن الناس فى هذا العصر الجديد (الذى نتناوله) بدأوا يتطاعون إلى الشرق بحثا عن الخلاص الدينى . وسرعان ما انتشرت عبادة سرابيس، الذى شبه بالاله المصرى أوزيريس . ومعه إيزيس (Isis) زوجة هـــذا الاله الأخير ، وابنها حورس أو هربوكراتيس (Harpocrates) ، انتشرت هـذه العبادة فى أرجاء حوض البحر الأبيض المتوسط حتى وصلت آخر الأمر إلى بريطانيـا فى عهـد الرومان . والواقع أن الوثنية قد خاضت آخر معاركها ضد المسيحية فى خلال القرنين الثالث والرابع ق.م . تحت لواء هذا الاله المصرى وأمثاله من الآلهة الشرقية كالأم الكبرى الفريجية كوبيلى (Cybele) وميثراس الفارس (Mithras) .

وعلى هذا النحو ، ونتيجة للفتوحات العسكرية التى قام بها الاسكندر ، استمرت من تلقاء نفسها تلك الوحدة التى كان الإسكندر يحلم بتحقيقها بين أوروبا وآسيا بما فيها مصر . لكن هذه الوحدة لم تقم على أساس المشاركة

[١] العبــادات ذات الطقوس الغامضـــة ، هى تلك التى ازدهرت عندئذ فى بعض نواحى بلاد اليونان مثــل اليوسِس فى أتيكا ، وكان يتحتم توفر شروط خاصة فيمن يريدون اتباع هــذه العبادات ، فاذا قبلوا فيها اطلعوا على أسرار طقوسها ، ولا يجوز لهم أن يبوحوا بهــا لغيرهم .

اوالمساواة كما أراد الإسكندر ، إذ كانت العلاقة بين الطرفين علاقة غالب بمغلوب . وإذا كان الشرقيون أو كثير منهم قد تعلموا اللغة الأغريقية ولبسوا الزى الأغريقى ، وأخذوا بقسط لا بأس به من الثقافة الأغريقية ، فإن الأغريق من ناحيتهم قد اقتبسوا الكثير من بيئتهم الشرقية ولاسيما فى الناحية الدينية . وينطبق هذا بوجه خاص على مصر حيث عاش الإغريق المستوطنون مبعثرين بين الوطنيين المصريين فى بلد يعتز بطابعه الخاص كل الاعتزاز ، لا فى مدن حرة مستقلة منعزلة . وهكذا نبتت حضارة مختلطة امتزجت فيها العناصر الشرقية بالعناصر الإغريقية امتزاجا معقدا . وكانت هذه الحضارة بمثابة التربة الخصيبة التى لابد منها لظهور المسيحية وانتشارها [1] غير أن الامتزاج لم يقم على أساس وطيد ، فالحضارة الهلينية التى كانت لا تفتأ تنهكها المؤثرات الشرقية ، لم تكن تستطيع أن تحتفظ بمقوماتها إلا إذا رعتها الحكومات رعاية فعالة ، والواقع أنها لم تكن أكثر من قشرة رقيقة حجبت حضارة موغلة فى القدم تختلف عنها تمام الاختلاف .

---

(١) يجد القارىء بحثا ممتازا عن التأثيرات المصرية على الثقافة الهلينستية فى مصر فى المقال التالى :

C. Préaux, « Les Egyptien dans la Civilisation Hellenistique d'Egypte », *Chronique d'Egypte,* XVII. 35 (1943), pp. 148-60.

وتؤكد الكاتبة فى مقالها هذا أهمية المعابد كمراكز رئيسية لاستعمال الكتابة القومية ، ومعاقل لحضارة صافية لم تمس .

وكانت هذه القشرة أرق ما تكون فى إقليم طيبة ، أبعد أقاليم مصر عن الاسكندرية وعالم البحر الابيض المتوسط ، حيث كان نفوذ رجال الدين أقوى ما يكون ، وحيث كان عدد الإغريق المستوطنين ، فيما يحتمل ، أقل ما يكون .

النظم الادارية والقضائية :

ولننتقل الآن الى الحديث عن نظم مصر البطلمية . وذلك بطبيعة الحال فى إيجاز شديد . تكاد معلوماتنا عن هذه النظم تنحصر فيما تمدنا به النصوص البردية وما يماثلها من الوثائق الأخرى . وإذا كانت البرديات التى ترجع إلى عهد بطلميوس الأول قليلة جدا ، تكاد لا تمدنا بشىء يذكر عن موضوع النظم ، فإننا نجدها فى عهد خليفته كثيرة وقيمة ، وإذن فإن أى وصف لمصر فى القرن الثالث ق . م ينبغى أن يقوم أولا وقبل كل شىء على معلومات ترجع إلى عهد بطلميوس الثانى فيلادلفوس وليس قبل ذلك . ومع هذا فليس ثمة ما يدعو إلى الشك فى أنه كان يتبع السياسة التى رسمها أبوه ، وفضلا عن ذلك فإن وثائقنا تأتينا بوجه خاص من الفيوم ، وهو إقليم لا يعتبر من وجوه كثيرة نموذجا لغيره من أقاليم مصر . ومعلوماتنا عن إقليم طيبة فى القرن الثالث قليلة ، وأقل منها معلوماتنا عن الدلتا . أما تاريخ مصر على أيام البطالمة الأواخر فإن وثائقه ليست على وتيرة واحدة ، فبينما نجدها وافية بالنسبة لبعض الأقاليم

وخلال بعض الفترات ، نجدها تافهة بالنسبة لبعض الأقاليم الأخرى. على أننا نستطيع برغم ذلك أن نرسم صورة متسقة متماسكة ـ وإن كانت غير كاملة ـ للنظام الذى كان قائماً فى عهد بطلميوس الثانى ، وأن نستعرض ماطرأ على هذا النظام من تطور استعراضاً جزئيا .

وحتى إذا صرفنا النظر تماماعن الممتلكات الأجنبية ، برقة وقبرص وسوريا والمدن الاغريقية فى آسيا الصغرى أو فى الجزر ، وهى الممتلكات التى كان لها أبعد الأثر فى سياسة البطالمة خلال القرن الثالث ق . م ، فإننا برغم ذلك لانستطيع أن نقول إن مصر كانت دولة قومية موحدة ، لقد كانت أقرب ماتكون إلى دولة تتألف من عدد من العناصر المتباينة وتخضع لحكومة بيروقراطية مطلقة ، فالاسكندرية ونقراطيس وبطلمية كانت من الناحية النظرية مدنا حرة مستقلة ، لكنها فى الواقع كانت تخضع للسيادة الملكية . ومع هذا فقد كانت لها قوانينها الخاصة التى تحرم الزواج من المصريين ، كما كانت تتمتع بكافة مقومات الحكم الذاتى . وكان الاغريق وغيرهم من الأجانب الذين استقروا خارج هذه المدن يعيشون ـ كما ذكرت ـ فى جاليات لها بعض النظم والقوانين الخاصة ، وإن لم يكن ذلك مؤكدا . وأخيرا كان هناك المصريون ، وقد أخذت الطبقات العليا منهم تزداد اصطباغا بالحضارة الهلينية وميلا للاختلاط بالأغريق ، بينما احتفظ الفلاحون بجميع تقاليدهم وأساليب حياتهم

القديمة متمسكين بلغتهم الوطنية ومحررين عقودهم القانونية باللغة الديموطيقية ، وهي آخر صور الكتابة المصرية .

وكانت المراسيم والأوامر التي يصدرها الملك تنسخ قوانين المدن الاغريقية وقراراتها ، كما تنسخ قوانين وقرارات الجاليات ، والقانون المدني القديم الذي ظل معمولا به بين المصريين(١) . وكانت محاكم القضاة الاغريق المتنقلة (chrêmatistai) تفصل في قضايا الاغريق المقيمين خارج المدن الاغريقية الثلاث ، كما كانت محاكم القضاة الوطنيين (laokritai) تفصل في قضايا المصريين [كلمة laoi تقابل في معناها كلمة الوطنيين] . وأما القضايا الوطنية التي تنشأ بين الاغريق والمصريين فقد شكلت لها في خلال القرن الثالث ق.م. محكمة مختلطة (koinodikion) ألغيت فيما بعد . ولدينا قرار ملكي صادر في عام ١١٨ ق. م.(٢) ينص على عرض القضايا التي تنشأ بين الاغريق والمصريين ، حول العقود المكتوبة باللغة الاغريقية ، أمام المحاكم الاغريقية ، أما القضايا التي تنشأ حول عقود محررة بالديموطيقية فتنظر أمام محاكم القضاة الوطنيين

(١) في عام ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩ اكتشف المنقبون في أطلال هرموبوليس القديمة وثيقة ديموطيقيه هامة تتضمن جزءا من القانون المصرى ، ويجد القارىء موجزا عنها في المقال التالي :

G. Mattha, «A Preliminary Report on the Legal Code of Hermopolis West», *Bull. de l'Inst. d'Egypte*, XXIII, 1941 pp. 297-312.

(٢) انظر : P. Tebt. I. 5. 207-220.

وإلى جانب هذه المحاكم المختلفة ، كان الموظفون الاداريون المختلفون يقومون بالفصل فى القضايا ذات الطابع الخاص ، كتلك التى تتأثر بها الاحتكارات الملكية . وكانت هـــذه العناصر المتباينة تشترك جميعا فى الخضوع لارادة الملك الذى كان مصدر القوانين ، وصاحب السلطان الادارى الأعلى ؛ فقد كانت مصر ضيعة الملك ، وكبار موظفيها الاداريين يؤلفون بطانته الخاصة ، وذلك معنى نلمسه واضحاً حتى فى اللقب الذى كان يحمله وزير المـالية ، أهم موظفى الدولة ، وهو لقب (dioikêtês) الذى يعنى حرفيا « الناظر » . وكانت مصر تنقسم من أقدم الأزمنة إلى أقاليم أو مديريات (nomoi) ، يحكم كل منهـــا نومارك (nomarchês) . وعلى أيام البطالمة أخـذت اختصاصات النومارك تتضاءل حتى غـدا آخر الامر مجرد موظف مالى صغير ، بينما أصبح الاستراتيجوس (stratêgos) الذى كان فى أول الأمر إغريقيا دائما ، والذى عين فى الأصل لقيادة القوات العسكرية فى الاقليم ، أصبح صاحب الاختصاصات المالية والمدنية ، ثم صار فى النهاية المدير الفعلى للإقليم ، ويليه " الكاتب الملكى " (basilikos grammateus) الذى ينوب عنه فى غيبته ، ثم يأتى بعد ذلك كتبة المراكز ، ثم كتبة القرى .

نظام الاراضى :

وكانت الأراضى الزراعية أقيم ما فى هذه الضيعة الكبيرة ، وهى

أرض ذات خصوبة منقطعة النظير عندما تروى رياً سليما وتجدد تربتها كل عام بالغرين الذى يتخلف فوقها من فيضان النيل . وكان الملك . من الناحية النظرية هو المالك الوحيد لهذه الأرض . والواقع أن جزءاً كبيراً من أجود الأراضي كان يظل تحت إشرافه الفعلي . وتلك كانت « الأراضي الملكية » (gê basilikê) التي تؤجر لفلاحين يعرفون باسم « مزارعي الأراضي الملكية » (basilikoi georgoi) . وكانت عقود الايجار اختيارية، لكن فيما بعد، عندما أصبح العثور على المستأجرين عسيراً . لجأ البطالمه إلى الاكراه في بعض الأحيان . كذلك كان مزارعو الملك رجالا أحراراً . لا عبيداً للأرض ، غير أن حريتهم هذه كانت تخضع لبعض القيود . فهم لا يستطيعون ترك أراضيهم في خلال موسم العمل الزراعي . كما نسمع عن نقل مزارعي الأراضي الملكية إلى أماكن أخرى لاستصلاح أراض جديدة . هذا وكان من حق الدولة أن تلغي عقود الايجار في أي وقت تشاء، وأن تنقل الأرض إلى مستأجر أخر يقدم عرضاً أعلى ، ونظير ذلك تمتع المستأجرون ببعض الامتيازات ، وبقسط معين من الرعاية الحكومية .

وبرغم أن الملك كان نظرياً المالك الوحيد للأراضي، فإنه لم يستحوذ عليها بمفرده ، وفي وسعنا أن نتبين صورة من صور الامتلاك الخاص حتى في أيام البطالمة الأول ، ثم تزداد هذه الصورة وضوحاً في أواخر

عهد البطالمة . كانت الأراضي التي لا تخضع لرقابة الملك وإدارته المباشرة تسمى (gê en aphesei) أي الأراضي التي يتخلى عن إدارتها لغيره. ومن هذا النوع ضياع المعابد ، فهذه برغم أن البطالمة تولوا إدارتها ، كانت تستغل لصالح المعابد. وتكون قسماً خاصاً من الأراضي سالفة الذكر يسمى «بالأراضي المقدسة» (gê hiera) . ثم كانت هناك أراضي أخرى تمنح كما ذكرنا آنفاً في صورة إقطاعات (kleroi) للجنود المقيمين في مصر الذين عرفوا باسم أرباب الاقطاعات (klerouchoi) ، وبفضل هذا النظام حقق البطالمة هدفين : ذلك أنهم وقد اشترطوا للحصول على الاقطاع أن ينتظم صاحبه في سلك الخدمة العسكرية ، ضمنوا لأنفسهم مدداً من الجند المدربين الذين ارتبطت مصالحهم بالبلاد ، ومن ثم يقل احتمال انتقالهم للعمل في خدمة سيد آخر كما يفعل مرتزقة الأسواق الحرة . ومن ناحية أخرى ضمنوا ازدياد رقعة المساحات المنزرعة ازدياداً كبيراً . صحيح أنهم خصصوا الأراضي الصالحة للزراعة لهذا الغرض ، ولعلهم اتبعوا هذه القاعدة في أول الأمر (١)، لكنهم كثيراً ما منحوا الاقطاعات في أراضي غير جيدة أو مهجورة، واشترطوا على أربابها استصلاحها ، ثم تزايد هذا الاتجاه بمضي الزمن،

---

(١) هكذا يرى : E. Kiessling, «Streiflichter zur Katoekenfrage», *Actes du Vème Congrès International de Papyrologie*, 1938, 213—29 (see pp. 215 ff.).

ومع ذلك فينبغى أن نعرف أن هذا الاستصلاح لم يكن يتم دائماً ـ أو غالباً ـ على يد أرباب الاقطاعات أنفسهم.

وكانت الاقطاعات تمنح مدى الحياة فقط ، لكن إزاء احتياج الملك لمدد لا ينقطع من الجند المقيمين تحت إمرته فى البلاد ، جرت العادة على أن يؤول الاقطاع إلى أكبر الأبناء عقب وفاة الأب ، بل إننا نجـــد إقطاعات ممنوحة بصفة أبدية (١) . وهكذا أصبحت الاقطاعات مع الوقت وراثية واكتسبت مظهر الامتلاك الخاص ، لكن لا يحتمل ـ من الناحية النظرية ـ أنها أصبحت فى أى وقت من الأوقات خلال الحكم البلطمى ملكا خالصاً لأربابها ، وإن لم يمنعهم ذلك من التحايل للتصرف فيها [٢] .

وربما كانت «الضياع الكبيرة» (dôreai) التى منحت لكبار الموظفين والمقربين الملك قد خضعت هى الأخرى لشرط استصلاح الأجزاء

---

(١) انظر :
K. Sethe — J. Partsch, *Demotische Urkunden zum aegyptischen Buergschaftsrecht* (Abh. der Phil.-Hist. Klasse der Saechs. Akad. der Wiss. XXXII, 1920) No. 7, p. 129.
وهذه الوثيقة مؤرخة فى عام ٢٠٢ ق.م.

[٢] انظر : **محمد عواد حسين** « الاقطاعات العسكرية فى مصر البطلمية » المجلة التاريخية المصرية ، العدد الثانى من المجلد الثانى ، اكتوبر ١٩٤٩ ، ص ٣ وما بعدها .

المجورة منها ، ومثل هذه الضياع كانت تمنح لصاحبها مدى حياته فقط ثم يستردها التاج عقب وفاته . وغالباً ما كان يفرض على أصحاب المنازل القائمة حول الاقطاعات إيواء الجنـــد فى منازلهم ، وكانت المساكن فى هذه الحالة تسمى (stathmoi) [١] .

وأخيراً نسمع عما يسمى «أراضى الامتلاك الخاص» (gê idioktêtos) وهى تتألف عادة من البساتين ومزارع الخضروات والنخيل والكروم ، وكانت هذه تزرع كلها فى أراض تتطلب قسطاً من الإصلاح ، ولكنها لا تلائم زراعة القمح والغلال، وأغلب الظن أنها كانت تمنح لأصحابها بموجب عقود إيجار طويلة الأجل، أو عقود وراثية . وبرغم أن القانون كان يسمح بانتقال ملكية هذه الأراضى من شخص إلى آخر ، إلا أننا لا نرجح مع هذا أن أصحابها قد امتلكوها امتلاكا فعلياً فى أية فترة

---

[١] فرض فيلادلفوس على كل من يمتلك منزلا فى المناطق المحيطة بالاقطاعات العسكرية أن يتنازل عن نصفه لسكنى أرباب الاقطاعات الاغريق ، وقد كان ذلك مثار شكوى ومنازعات عديدة بين أصـــحاب المنازل وأرباب الاقطاعات . وأراد يوارجيتيس الثانى أن يخفف هذا العبء قليلا فضمن قرار عفوه الصادر فى عام ١١٨ ق.م. مادة تقضى باعفاء من يعملون فى خدمة الموارد الملكيـــة ، وكذلك الاغريق الذين يعملون فى الجيش والكهنة ، من اسكان أرباب الاقطاعات مادام الواحد لا يمتلك أكثر من منزل واحد ، أما مازاد على ذلك فيتنازل عن نصفه ، أنظر : P. Tebt. 5, pp. 168-77

خلال عهد البطالمة . والحق كما قال الدكتور تارن(١) إن الأراضى الخاصة فى عهد البطالمة لم تكن أملاكا حرة بالمعنى المعروف . إنما كانت تستغل استغلالا حراً .

الزراعة :

وعلى هذا النحو أضاف البطالمة مساحات شاسعة للأرض المنزرعة فى مصر . وتتصل معلوماتنا فى هذا الصدد بمنطقة الفيوم أو إقليم ارسينوى (Arsinoités) على أيام بطلميوس الثانى وبطلميوس الثالث (Euergetês) . ونحن نستمد أغلبها من برديات بترى (P. Petrie) التى تتضمن وثائق كليون (Cleôn) مدير المشروعات الكبرى التى قام بها فيلادلفوس (Philadelphus) لاستصلاح الأراضى الزراعية، وكذلك من سجلات زينون (Zenôn) بن أجريوفون (Agreophon) الذى كان يشغل حوالى نفس الوقت مركز وكيل أعمال وزير المالية أپولونيوس (Apollonius) فى ضيعته التى كانت تضم عشرة آلاف آرورا [٢] فى فيلادلفيا (Philadelphia) (٣) وقد استخدمت امكانيات الهندسة

(١) انظر :
W. W. Tarn, *Hellenistic Civilisation*, *2nd ed.*, *1930*, *p. 164*.

[٢] الآرورا (aroura) هى وحدة القياس فى الاراضى الزراعية وتساوى ٢٧٥٦ مترا مربعا

(٣) عن زينون وبردياته أنظر الابحاث الاتية بوجه خاص :
M. Rostovtzeff, *A Large Estate in Egypt in the Third Century B.C.* (University of Wisconsin Studies, No. 6), Madison, 1922; H. I. Bell, « A. Greek Adventurer in Egypt », *Edinburgh Review*, CCXLIII, 1926, pp. 123-38 (والمقال نقد للكتاب السابق) ; C. C. Edgar's Introduction to P. Mich. I ; V. Tscherikower, «Palestine under the Ptolemies» (A Contribution to the Study of the Zenon Papyri) ; *Mizraim*, IV-V, 1937, pp. 9-90 ; Claire Préaux, *Les Grecs en Egypte d'après les achives de Zénon*, Brussels, 1947.

الاغريقية جميعها للقيام بأعمال الرى والاصلاح فى أراضى هذا الاقليم . وبفضل اتباع الاساليب العلمية فى الزراعة أمكن زراعة بعض الاراضى بثلاثة محاصيل فى العام الواحد (وقد أمدتنا الصدفة بمذكرة لبعض الفلاحين يقولون فيها : " إن هناك كثيراً من الأخطاء التى ترتكب فى استغلال عشرة الآلاف آرورا . لأن القائمين بالعمل فيها تنقصهم الخبرة ، فليستدع أولو الأمر عدداً منا . وليستمعوا إلى ما نقول . " (١) وإن هذه المذكرة لتوحى بأن النزاع بين الفلاحين الذين يتبعون الأساليب العلمية ، وهؤلاء الذين يعتمدون على خبرتهم ليس بالامر الجديد) .

وتنوعت المحاصيل الزراعية فى مصر تنوعاً كبيراً بفضل إدخال أنواع جديدة منها ، كما زرعت المحاصيل القديمة على نطاق واسع . وقد زرعت الكروم فى بعض أنحاء مصر على أيام الفراعنة ، لكن الشراب القومى كان الجعة المصنوعة من الشعير . أما الاغريق فكانوا يشربون النبيذ ، ولهذا نشط البطالمة فى تشجيع زراعة الكروم فى الأراضى قليلة الخصوبة ، وحمت الحكومة مصالح زرّاعه بفرض مكوس باهظة على النبيذ المستورد . كذلك

---

(١) يوجد ذلك فى احدى برديات زينون المودعة فى المتحف البريطانى ولم تنشر بعد .

تقدمت زراعة الزيتون ، وإذا كان الزيتون قد زرع فى مصر على أيام الفراعنة كما زرع الكرم ، إلا أن الغرض الأساسى من زراعته كان غذائياً ، فلما استقر الاغريق فى البلاد ، وكانت للزيتون عندهم أهمية حيوية ، انتشرت زراعته انتشاراً واسعاً ، ونشطت صناعة الزيتون منه (ويعتقد استرابون Strabôn أنه كان من نوع غير جيد). ولحماية انتاجه فرضت الحكومة مكوساً باهظة على زيت الزيتون المستورد . واستنبطت فصائل جديدة من الشعير ، كما أدخلت أنواع جديدة من الخضروات ، وزرعت أنواع متباينة من أشجار الفاكهة ، كما زرعت الورود وغيرها من الأزهار على نطاق واسع لأن الاغريق كانوا يستعملونها فى صناعة الأكاليل التى يلبسونها فى المآدب والحفلات . واستوردت الحكومة سلالات جديدة من الحيوانات ولاسيما الأغنام التى تنتج أصوافا أجود من الأصواف المحلية ، وكان القصد من ذلك تحسين السلالات المحلية . ويبدو أن الجمل قد بدأ يتأقلم فى مصر حينئذ للمرة الأولى (١) . كما انتشرت تربية النحل ، وزاد الاهتمام بتربية الخنازير (ليستهلكها الإغريق ورجال البلاط الملكى لأن المصريين كانوا يعتبرون الخنزير

---

(١) انظر : Athenaeus V. 200 f - 201.

حيواناً نجساً) . أما الأخشاب فقد كانت مصر فقيرة فيها دائماً ، ولم يغفل البطالمة علاج هذا النقص أيضاً ، ولهذا نرى أپولونيوس يكتب لزينون ـ وكيل أعماله ـ قائلا . " إزرع مالا يقل بحال عن ثلاثمائة شجرة من أشجار الشربين فى الحديقة كلها ، وحول مزارع الكروم والزيتون ، فهى شجرة جميلة المنظر ، وفيها فائدة للملك " (١)

العملة :

ولم يقتصر نشاط البطالمة على الميدان الزراعى ، وإنما وضعوا نظاما اقتصاديا نقـديا متكاملا فى بلد كان أساس المعاملة فيه ينهض على نظام المقايضة : فقد سك بطلميوس الأول عملية ذهبية وفضية وبرونزية ، وفيما بعد أدخلت على هـــذه العملة تعديلات كثيرة ولا تدعو الحاجة للدخول فى تفاصيلها هنا . وكانت النسب بين العملة الذهبية والفضية، وبين هذه الأخيرة والعملة البرونزية، تتغير من وقت لآخر . وأنشئت المصارف فى أنحاء البلاد ، ونستطيع أن نتبين من وثائقنا وجود نظام مصرفى متكامل (٢) ، لكن هذا لا يعنى أن النظام الاقتصادى الطبيعى القديم قد اختفى تماما ، لأن إيجارات الأراضى الملكية، وبعض المرتبات ،كانت تدفع عينا . كذلك لم تختف المقايضة من الحياة التجارية .

---

(١) انظر : P. Cairo Zen. 5915-7.

(١) عن المصارف فى مصر انظر :

F. Preisigke, *Girowesen im Griechischen Aegypten*, Strassbourg. 1910; J. Desvernos, «Banques et Banquiers dans l'Egypte Ancienne», *Bull. Soc. Roy. d'Arch. d'Alexandrie*, No. 23, 1928, pp. 303 ff.

وكانت المخازن الحكومية التى تجمع فيها الغلال (thesauroi) تعتبر بمثابة مصارف للحسابات الفردية . شأنها فى ذلك شأن المصارف المالية حيث كانت تدفع الضرائب النقدية .

وكانت الضرائب النقدية والعينية تدفع فى عهد الرومان — وإن لم يكن ذلك مؤكدا بالنسبة للبطالمة — بمجرد التحويل من حساب إلى آخر فى دفاتر المصرف أو مخزن الغلال (thesauros) . وكان ذلك يحدث حتى حين تتصل عملية الدفع بأكثر من مصرف واحد . وقد عثرنا بين الوثائق البردية التى ترجع إلى هذا العصر على أوراق يمكن أن تقارن بالصكوك (الشيكات) التى نعرفها فى أيامنا هذه .

الاحتكار :

وكان هناك نظام احتكار حكومى واسع المدى . اقتضت سياسة البطالمة العمليه الواقعية البحته تنويعه بحيث يتفق فى حالاته المختلفة مع احتياجات الدولة المتباينة . وكانت الأعمال المصرفية من بين هذه الإحتكارات الحكومية . فوجدت المصارف الملكية (trapezai) التى كانت تقوم بالاعمال الفردية والحكومية على السواء ، كما وجدت الى جوارها ـ فيما يبدو ـ مصارف أهلية كانت الحكومة تؤجرها للافراد . (١)

---

(١) أنظــر : M. Rostovzeff, *Hellenistic World*, I, p. 406.
وفى هـذا الكتاب يترك المؤلف باب الموضـوع مفتوحا للبحث .

أما الاحتكار الذى نعرف عنه أكثر المعلومات ، فكان احتكار الزيت. وقد أمدتنا الوثائق البردية التى نشرها جرنفل باسم «قوانين الدخل لبطلميوس فيلادلفوس » (nomoi telônikoi) بمعلومات وفيرة عن هذا الاحتكار. وكانت مصر تزرع من قديم الزمن النباتات الزيتية مثل السمسم والخروع وبذر الكتان، والقرطم والحنظل. وعلى أيام البطالمة فرضت رقابة صارمة على زراعة هذه النباتات، فحددت الحكومة مساحة الأراضى التى تزرع بها فى كل إقليم . وراقبت زراعتها وحصادها مراقبة دقيقة . وكانت الحكومة هى التى تمد الزراع بالبذور ، ثم يحصر المحصول حصراً دقيقا ، ويقدم ربعه ضريبة للحكومـــة بينما يقوم الزراع بتسليم باقى المحصول للمتعهدين بأسعار محددة . وكان الزيت يستخرج من مصانع خاضعة للرقابة الحكومية ، يعمل بها عمال لا يسمح لهم بمغادرة أماكن إقامتهم طوال موسم عصر الزيوت برغم أنهم كانوا أحرارا لا عبيداً . أما المعاصر الخاصة التى ترجع إلى ماقبل عصر البطالمـــة ، فقد حرم استعمالها باستثناء معاصر المعابد التى سمح لها باستخراج الزيت اللازم لها فى خلال شهرين فقط من العام ، ثم تغلق بعد ذلك بقية السنة ، مثلما كانت تغلق المعاصر الملكية خلال فترة التوقف عن العمل . وكان حق بيع الزيت يمنح بطريق الالتزام لتجار الجملة وتجار التجزئة على السواء ، وعلى هؤلاء أن يبيعوه للجمهور بالاسعار التى تحددها الحكومة، وكان الملك يجنى من هذه العملية ربحا طائلا قدره الدكتور « تارن » بما

يتراوح بين « ٧٠ ٪ على زيت السمسم ، ٣٠٠ ٪ أو أكثر على زيت الحنظل » (١) أما زيت الزيتون الذى يبدو أنه لم يدخل فى نطاق الاحتكار ، فقد فرضت عليه ضريبة استيراد بلغت ٥٠ ٪ .

وثمة احتكار آخر هو احتكار المنسوجات سواء أكانت من الكتان أم من الصوف أم من التيل . وقد سمح للمعابد بالاستمرار فى صناعة منسوجاتها الكتانية الدقيقة (byssos) التى اشتهرت بها . وذلك لاستخدامها أساسيا فى المعابد ذاتها (فقد كان محرما على الكهنة لبس الصوف) ؛ لكن كان عليها أيضاً أن تسلم للملك كمية معينة من انتاجها للتصدير . كذلك احتكر البطالمة صناعة الملح ، الصودا والجعة . شراب المصريين القومى . وإن سمحوا بعمل هذه الأخيرة فى المنازل .

الضرائب :

وبفضل هذه الاحتكارات ، ومن إيجار الأراضى الملكية ، حصل البطالمة على دخل هائل ، عينا ونقدا على السواء . وازداد هذا الدخل بفضل الضرائب العديدة التى فرضوها : فقد كانت هناك ضريبة على أراضى الاقطاعات وغيرها من الأراضى التى تخلى الملك عن إدارتها لغيره ، وضريبة على الميراث بالنسبة للضياع ، وعلى التراخيص التى تعطى لمزاولة مختلف أنواع الحرف ، وضريبة على المبيعات ، وعلى

(١) أنظر W. W. Tarn, *Hellenistic Civilisation*, 2nd ed., p. 167.

كثير من السلع التى يتداولها الناس ، وضريبة على العمارات ، وعلى دخل الوظائف الكهنوتية ، وضريبة على الرأس ذات طابع خاص لا يزال أمرها موضع خلاف بين العلماء . وأخيراً كان هناك نظام محكم دقيق للرسوم الجمركية التى فرض بعضها لحماية المنتجات المحلية كما كان الحال بالنسبة لزيت الزيتون ، بينما فرض بعضها الآخر لمجرد الحصول على دخل . وكانت طريقة جباية الضرائب ، باستثناء تلك التى كانت تدفع عينا وألقيت مسئوليتها على كاهل موظفى الحكومة ، هى طريقة الالتزام ، أى أن حق جباية مختلف الضرائب كان يعرض فى المزاد كل عام ، ويعطى لمن يتقدم بالعطاء الأكبر . وكان ملتزمو الضرائب يخضعون لرقابة صارمة فى كل خطوة حتى لا تضار مصالح التاج أو مصالح دافعى الضرائب . ولهذا لم يكن من اليسير الحصول على ربح كبير من عملية الالتزام ، وبالتالى أصبح العثور على الملتزمين - بمرور الزمن - أمراً عسيرا بعد أن كان فى أول الأمر شيئاً ميسوراً .

التجارة :

وبذل البطالمة جهدهم لتنشيط التجارة الخارجية ، فبرغم ثراء مصر الزراعى ، كانت البلاد فقيرة فى كثير من المنتجات ، وكان لزاما عليها أن تبحث عن هذه المنتجات فى الخارج. ومن بين ما استوردته على أيام البطالمة ، الأخشاب والمعادن والنبيذ وزيت الزيتون والسمك المملح ومختلف أنواع الفاكهة والجبن والعبيد والخيول . وفى مقابل

هذه الواردات كانت مصر تصدر أثمن منتجاتها وهو القمح . لقد كانت مصر أكبر منتج للغلال فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، لكنها صدرت أيضا البردى الذى كانت تنفرد بتصديره إلى أرجاء العالم القديم. كما صدرت الكتان الدقيق والزجاج ، ولا سيما النوع متعدد الألوان الذى اشتهرت به الاسكندرية ، وكذلك المرمر وغيره من مختلف الأحجار . وكانت مصر مركزا لتجارة عابرة نشيطة : فمن الصومال وشرق إفريقية وبلاد العرب والهند ، كان يأتى الذهب والأحجار الكريمة واللؤلؤ والعاج والتوابل والأصباغ وبعض أنواع الأخشاب النادرة والقطن والحرير . وكانت هذه تنقل براً من موانى البحر الأحمر عبر الطرق الصحراوية إلى قفط (Coptus) على النيل . ولهذا ، وتيسيرا للنقل الداخلى أيضاً . يحتمل كما ذكرنا أن يكون البطالمة أول من عمم استخدام الجمل فى مصر . وفى بعض الأحيان كانت السلع سالفة الذكر تصدر من مصر إلى الخارج مباشرة عقب وصولها ، وأحيانا أخرى تتناولها أيدى مهرة الصناع المصريين بالصقل ، ثم تستهلك محليا أو يعاد تصديرها .

الاسكندرية :

كانت الاسكندرية أهم موانى مصر وأكبر مدنها التجارية والصناعية ، وهى أعظم المدن التى أسسها الاسكندر إزدهاراً . ومامن شك فى أن الاسكندر قد شيد هذه المدينة بتوجيه من الأهالى، لكن عينه الفاحصة هى التى رأت فى قرية راكوتيس (Rhacotis) الفقيرة مكانا

صالحاً لمدينة عظيمة . وقام المهندس الرودسي دينوكراتيس (Dinocratês) بوضع تصميم المدينة الجديدة وفقاً لأحدث القواعد فى فن تخطيط المدن ، فاختار لها شريطاً من الأرض الرملية يقع بين بحيرة مريوط والبحر . وكانت تقع فى البحر قبالة هـــذا الشريط جزيرة فاروس (Pharos) التى وصلت بالأرض ، فنشأ عن ذلك ميناء واسع آمن فى الجانب الشرقى ، وميناء أكبر منه ، وإن كان أقل أمناً ، فى الجانب الغربى . وانتظم القسم الغربى من المدينة قرية راكوتيس القـــديمة التى أصبحت منـــذ ذلك الوقت الحى الوطنى الخـاص بالمصريين . وعلى بضـعة أميال إلى الشرق كانت تقع مدينـة كانوب Canopus [أبو قـــير] التى أصبحت مكاناً سيء السمعة يرتاده طلاب اللهو والعبث الشديد ، وكانت المدينة مستطيلة الشكل ، يشقها من الشرق إلى الغرب شارع فسيح مستقيم يسمى « شارع كانوب » تحف به الأعمدة والبواكى ، وتقطعه مجموعة أخرى من الشوارع الفسيحة . وقسمت المدينة إلى خمسة أحياء سمى كل منها باسم حرف من الأحرف الخمسة الأولى فى الأبجدية الاغريقية، وهى ألفا وبيتا وجاما ودلتا وأبسيلون .

وكان يعيش فى الاســـكندرية منذ البداية خليط من السكان فى مقدمتهم مجموعة المواطنين المتمتعين بكافة حقوق المواطنة ، وهم من الاغريق أومن تجرى فى عروقهم دماء إغريقية . وكان هؤلاء كمواطنى

المدن الاغريقية الحرة ينقسمون إلى قبائل (phylae) وأحياء (dêmoi) ، ولهم مجلس للشورى (boulê) وجمعية شعبية ؛ وفيهم الموظفون المعروفون فى المدن الاغريقية الحرة . ولم يكن بالاسكندرية مجلس للشورى تحت حكم الرومان حتى اعتلى العرش الامبراطور سپتيميوس سفيروس (Septimius Severus) ، ولا يزال الجدل محتدما حول مسألة مجلس الشورى ، وهل وجده أوغسطس قائماً ، وهل هو الذى ألغاه ؟ وعندى أن الاسكندرية لم يكن بها مجلس للشورى عندما فتحها الرومان ، لكن من العسير علينا أن نتصور أن الاسكندر قد شيد مدينة إغريقية بدون مجلس للشورى (١) . ومن ثم يتحتم علينا أن نستنتج أن أحد الملوك الذين جاءوا بعده قد ألغى هذا المجلس أثناء إحدى المنازعات العديدة التى احتدمت بين المدينة والتاج . ويبدو أن المقدونيين كمجموعة لم يكونوا جزءاً من جماعة المواطنين . وإذا كان المستعمرون الأول قد انتظموا عدداً من

---

(١) يرى « تارن » فى ص ١٦١ فى كتابه سالف الذكر أن الاسكندر لم يؤسس مدينة بالمعنى المألوف لدى الاغريق (polis) وانما كانت المدن التى شيدها من طراز مختلط جديد فيما يرجح ، وعندى أن اعتناق هذا الرأى دون أدلة حقيقية فيه كثير من التجنى .
[وعن الاسكندرية انظر : **زكى على** « الاسكندرية » ، مجلة كلية الآداب بجامعة فاروق (الاسكندرية) ، ١٩٤٤ ، وانظر أيضا لنفس المؤلف : « الاسكندرية فى عهد البطالمة والرومان » مجلة كلية الآداب بجامعة فاروق (الاسكندرية) ، ١٩٤٨]

المقدونيين ، فإن بعضهم على الأقل قد كوّن طبقة ممتازة تألفت منها قوات الحرس ورجال البلاط وعدد من كبار الموظفين . وعاش بالاسكندرية عدد كبير من الاغريق الذين أتوا من بقاع أخرى من العالم القديم ، لكن هؤلاء لم يكتسبوا حقوق المواطنين ، كما عاش بها أيضاً عدد كبير من المصريين . أما الأجانب الآخرون الذين استقروا بها فكان اليهود أهم عناصرهم ، وقد اختص هؤلاء بالحى « دلتا » الذى يقع على مقربة من القصر الملكى ، ثم انتشروا بعد ذلك بالمدينة حتى احتلوا معظم أجزاء الحى « بيتا » . ويحدثنا « فيلون » بأن بيع اليهود كانت على أيامه منتشرة فى كل مكان بالمدينة . ولم يعتبر اليهود من المواطنين وإن تمتعوا ببعض الامتيازات : فكانت لهم محاكم خاصة ، ودار للسجلات ، ومجلس للشيوخ ، كما كان لهم ـ كطائفة ـ رئيس خاص يدعى (genarchês) أو (ethnarchés) . وكان يشاهد على أرصفة المدينة وفى شوارعها خليط من الناس ينتمون إلى عناصر مختلفة ويتحدثون بلغات ولهجات متباينة . وقد أمدنا « ثيوكريتوس » فى قصيدته أدونيازوساى (Adoniazusae) بصورة تنبض بالحياة لهذا الخليط من السكان حيث يقول أحد الغرباء لامرأتين تتحدثان « سيدتى الطيبة ، أوقفا هذه الثرثرة التى لا تنتهى ، لكأنكما زوج من الحمام . إنى لأضيق بهذه اللهجة الدورية » . فتجيبه براكسينوا (Praxinoa) « يا إلهى ، من أى بلد أتى السيد ؟

وما الذى يعنيك من ثرثرتنا ؟ إنى لأراك تشترى عبيدك قبل أن تدفع الثمن ! إنك يا سيدى تصدر أوامرك لسيدتين من سيراكيوز ... أو ليس من حق الدوريين أن يتحدثوا بالدوريه ؟ » .

وشهدت الاسكندرية أيضاً بعض الهنود ، ولا سيما بعد اكتشاف الرياح الموسمية (ويحتمل أن ذلك قد حدث فى أوائل العهد الرومانى) (١) التى يسرت الملاحة من افريقية الى الهند مباشرة بدلا من التزام الشاطىء . لكن حدث قبل ذلك أن أرسل أسوكا (Asoka) - أمبراطور الهند البوذى - رسله الى بطلميوس الثانى يدعونه الى الهدى والصلاح ، وان المرء ليتوق إلى معرفة أثر تعاليم جوتاما (Guatama) فى نفس بطلميوس . هذا الملك الذى عشق الدنيا وملاذها .

وسرعان ما أصبحت الاسكندرية أعجوبة العالم ، ولاسيما بعد أن غدت - فى تاريخ غير معروف تماماً - عاصمة البلاد بدلا من منف . وكانت ترتفع فوق جزيرة فاروس هذه المنارة الشهيرة التى خلعت اسمها من بعد على مثيلاتها فى كثير من اللغات الحديثة . وفى المكان

---

(١) انظر :

M. Rostovtzeff, *Hellenistic World*, pp. 927 ff.

وهو يرى أن الرياح الموسمية لم تكتشف فى العصر الرومانى ، وانما خلال حكم الملك بطلميوس يوارجيتيس الثانى (١٤٥ - ١٠٧ ق.م.) لكن أدلته لاتبدو فى نظرى أقوى من أدلة الرأى المعارض .

المعروف باسم "سيما" (Sêma) كان يرقد جثمان الاسكندر الاكبر، وفى منطقة راكوتيس القديمة كان معبد السرابيوم الشهير بدوره يقوم شاهداً على أن "سرابيس" كان الهاً مصرياً (١). وكان هناك غير ذلك عدد من المبانى الشهيرة مثل معهد التربية الفاخر (Gymnasium)، وميدان الالعاب الرياضية (Stadium)، وحلبة سباق الخيل (Hippodromos)، والمسرح، والقصر الملكى. وكان القصر يقوم فوق جزيرة صغيرة شرقى الميناء، وإلى جواره دار العلم والمكتبة. وكانت دار العلم (Museum) فى الاصل معبداً لربات الفنون والعلوم (Musae)، وهى فى الواقع أشبه شىء بالأكاديمية والجامعة فى لغتنا الحديثة، وكان يقيم فيها على نفقة الحكومة عدد من العلماء والادباء لاتجبى منهم ضرائب .

وقد جمع البطالمة لاستعمالهم الخاص مكتبة ضخمة (Bibliothêkê) تحتوى على مايقرب من نصف مليون لفافة بردية [٢]. ولكى يزيد بطلميوس الثالث من عدد هذه المجموعة أصدر أمراً يقضى بان كل مسافر ينزل

---

(١) يبدو أن المكان قد عرف الآن تماما، انظر على سبيل المثال :
J.H.S. LXV, 1945, pp. 106-8.
وتدل اللوحات التى عثر عليها بين الاطلال على أن المؤسس الاول كان بطلميوس الثالث، غير أن البنــاء الذى شــيده لايمكن أن يكون الاول .

[٢] انظر :
W. L. Westermann, *The Library of Ancient Alexandria*, Alex., 1954
محمد احمد حسين، «مكتبة الاسكندرية فى العــالم القديم»، القاهرة ١٩٤٣ .

بالاسكندرية عليه أن يسلم أى كتب توجد بين متاعه لضمها إلى المكتبة إذا لزم الامر، على أن يعطى نسخة رسمية بدلا منها . ويقال أيضا انه استعار من أثينا الاصول الرسمية لمؤلفات « آيسخولوس » و« سوفوكليس » و« يوريبيديس » كى يقوم بنسخها نظير ضمان مالى قدره خمسة عشر تالنتا (١) لكنه فضل أن يخسر هذا المبلغ على أن يرد الاصول التى وصلته، وأرسل بدلا منها نسخاً فقط . وفى مكتبة الاسكندرية وضعت أسس علوم التصنيف ونقد النصوص، كما وضعت قوائم للمؤلفات الاغريقية الادبية، ونقحت مؤلفات هوميروس ثم أخرجت فى صورة لا تختلف كثيرا عن التى بين أيدينا الآن، كذلك ابتكرت العلامات الصوتية التى يضيق بها الآن كثير من طلاب المدارس والجامعات، كما ابتكرت علامات الاستفهام والتعجب وما اليها من فواصل الكلام، ولم تهمل الرياضيات والعلوم البحته : ففى الاسكندرية استطاع اريستارخوس (Aristarchus) (٢) أن يكتشف دوران الارض حول الشمس قبل أن يكتشفه كوبرنيكوس (Copernicus)، وفى الاسكندرية استطاع إراتوستينيس (Eratosthenês) أن يقيس محيط الكرة الارضية (دون أن يخطىء فى أكثر من خمسين ميلا)، وفيها أيضا كتب إقليدس

(١) كان التالنت يساوى ستة آلاف دراخمة ، وبمقارنته بالجنيه الاسترلينى في الوقت الحالى يتضح أن قيمة الفضة فيه قد تساوى حوالى أربعمائة جنيها .

(٢) يجد القارىء مقالا حديثا عن أريستارخوس فى :
M. Meyerhof, « Aristarque de Samos », *Bull. de l'Inst. d'Egypte,* XXV, 1943, pp. 269-74.

(Euclidês) « المبادىء » [فى علم الهندسة]، واخترع هيرون (Hêrôn) الآلة البخارية، أو لعله نقلها عن غيره، كما اخترع الآلة الأوتوماتيكية. وقد ذاع صيت مدرسة الطب السكندرية، ولاسيما فى التشريح والجراحة. وفى الاسكندرية أيضا ترجمت التوراة إلى اللغة الإغريقية لينتفع بها اليهود فى المهجر، وهى الترجمة المعروفة باسم السبعينية (Septuaginta) [١]، وفيها أيضا نشر فيلون (Philon) مذهبه عن اللوغوس الالهى (Logos) [٢]

بوادر التدهور :

وليس من شك فى أن الحكم البطلى قد عاد على مصر فى أول عهده بزيادة عظيمة فى الرخاء، فقد أتى هذا الحكم فى ركابه بإدارة قوية قادرة استطاعت أن تحفظ النظام فى البلاد، وبنظم جديدة فى الرى أدت إلى ازدياد واضح فى مساحة الأراضى المنزرعة، وبمحاصيل جديدة لم

---

[١] السيبتواجنتا هى الترجمة الاغريقية للعهد القديم (التوراة)، وقد سميت كذلك لانها تمت ــ فيما يقال ــ على يد سبعين من اليهود المسنين، وكان ذلك فى عهد بطلميوس فيلادلفوس .

[٢] اللوغوس أى الكلمة، والمذهب فى جملته يقول بوجود وسيط بين الله والناس، وقد تعددت فيه الاقوال « فهو تارة الوسيط الذى به خلق الله العالم، والذى به نعرف الله، والذى يشفع لنا عند الله، وهو طورا ملاك الله الذى ظهر للآباء وأعلن اليهم أوامر الله، على ماتذكر التوراة، وهو مرة قانون العالم وقدره، ومرة أخرى ابن الله البكر، ومرة ثالثة مثال الانسان أو الانسان الاعلى، الى غير ذلك من الصور .... » انظر : **يوسف كرم**، تاريخ الفلسفة اليونانية، القاهرة (١٩٤٦) ص ٢٥٠ ــ ٢٥١ . الطبعة الثانية .

تعرفها مصر من قبل ، استغلت فى زراعتها الأراضى المستصلحة استغلالا كاملا. كذلك لقيت الصناعة تشجيعاً كبيرا ، وشهدت التجارة الخارجية نشاطا جما ، وهذه جميعاً من الفوائد الجوهرية التى تحققت لمصر . بيد أن الاحتفاظ بهذا الرخاء ، بعد أن فقدت طاقة النشاط الأولى ، كان رهنا بعاملين غير مؤكدين : فلا بد من كفاية متصلة فى الهيئة الحاكمة أولا ، ولابد من تجاوب وتعاون من جانب المحكومين ثانياً . والواقع أن هذا العامل الثانى لم يتحقق أبدا من ناحيـة المصريين ، فبعضهم فيما يظن قد رحب بالنظام الجديد ترحيباً شديدا ، كما حاول كثير منهم دون شك أن يستفيد منه أكبر فائدة ممكنه . لـكن موقف الفلاحين بوجه عام ، ولاسيما فى مصر العليا ، كان فيما يبدو موقفا سلبياً فى خير حالاته ، وموقف معارضه واضحة فى أسوئها . ولقد نشك فيما إذا كان الفلاح المصرى العادى قد استشعر أى تحسن فى مصيره . فقد ظل هذا الفلاح قرونا عـديدة يكد فى أرضه ثم يؤدى ما عليـه من التزامات للملك وللكهنة ولصاحب الأرض . واستمر حاله كذلك فى ظـل الحكم المقدونى . وطالما استطاعت الحـكومة الجديدة أن تحفظ السلم فى داخل البلاد ، وأن تبعد شبح المجاعة ، فقد كان الفلاح المصرى يجنى بعض الفوائد . لـكنه لم يشعر إطلاقاً بأنه شريك فى حكم بلاده . لقد كان سادته الجدد غرباء عنه أتوا من مكان بعيد ، وكانت سياستهم التى اتجهت خارج البلاد نحو عالم البحر الأبيض المتوسط تستهـدف أغراضا

لا يحيط بها إدراكه . أما المجد الذى أدركته مدينة الاسكندرية ، تلك المدينة الأجنبيـة التى كادت لا تعتبر جزءاً من مصر (إذ كانت توصف رسمياً بعبارة «المتاخمة لمصر» وذلك على الأقل فى أواخر الحكم البطلى) [١] ، فلم يكن شيئاً بالنسبة له . وطبيعى أن البطالمة الأقوياء قد فعلوا الكثير فى سبيل توفير الرخاء لضيعتهم ، لكن اهتمامهم بها كان يستوحى المصالح الشخصية . لقد كان هدفهم كما وصفته الآنسة پريو هو « جمع أكبر قدر ممكن من الثروة ، وتكبد أقل ما يمكن من النفقات ، وإجراء أقل تغيير مستطاع فى النظم القائمة ، والتعرض لأقل قدر ممكن من الخسائر » . وتلك دون جدال سياسة تنطوى على الحكمة وإن خلت من الشجاعة ، بالنسبة لصاحب أية ضيعة من الضياع . لكن الدولة شيء والضيعة شيء آخر : فى الدولة جموع من الآدميين لهم حقوق ومطالب ، والأمر قبل ذلك أبعد من مجرد براعة فى الميدان الاقتصادى ، فلا بد من أهداف أنسانية خلقية يسعى إليها إذا أريد لهذه الجموع البشرية أن ترتبط برباط الوحدة القومية ، ولعل خير مايقال فى هـذا الصدد هو ماقالته پريو : « إن حصر التفكير فى

---

[١] انظر :
H.I., Bell, « Alexandria ad Aegyptum », *J.R.S.* XXXVI, pp. 130-32
P.M. Fraser, « *Alexandria ad Aegyptum* again », *J.R.S.* XXXIX (1949), p. 56.

الميدان الاقتصادى لا يمكن أن يبنى هدفا إنسانياً »(١).

وهكذا أخذ رخاء المملكة وقوتها يتضاءلان نتيجة للتدهور الخلقى الذى أصاب الأسرة الحاكمة . لقد كان البطالمة الثلاثة الأول حكاما أقوياء . وبرغم ماعرف عن بطلميوس الثانى من حب للملذات والترف، وبرغم أنه كان دون أبيه عزماً وبأساً حتى ليقف منه موقف سليمان من أبيه داود ، فإنه يبدو فى الوثائق البردية رجلا جم النشاط يتمتع بكفاية إدارية واضحة ، ولعله يدين ببعض ذلك لأخته أرسينوى التى نجحت فى إبعاد زوجته الأولى ـ وكانت سميتها ـ وأصبحت هى زوجة شرعية له . والواقع أن الأغريق كانوا يستنكرون الزواج بين الأشقاء كما نستنكره نحن تماما ، ولهذا عبئت جميع مواهب شعراء البلاط ودعاته كى يصبح هذا الزواج شيئاً مستساغا (٢) . ومع ذلك فقد برهنت أرسينوى

---

(١) انظر المقال القيم الشائق التالى :

W. L. Westermann, « The Ptolemies and the Welfare of their subjects, » in *Actes du Vème Congrès International de Papyrologie,* pp. 565-79.

(وانظر أيضا : *(Am. Hist. Rev.* XLIII, 1938, pp. 270-87.

ويعارض وسترمان فى مقاله بعض الانتقادات الشديدة التى وجهت للحكم البطلمى ، ويرى أن البطالمة قد أبدوا اهتماما وعناية برفاهية المصريين ، ويعتقد أن الكراهية التى انطوت عليها صدور المصريين للاسرة الحاكمة قد بولغ فيها مبالغة شديدة . وليس من شك فى أن وسترمان قد أصاب حين استنكر هذا الحكم القاسى على البطالمة الذين يعتبر عصرهم خيرا من عصر الرومان بوجه عام ، لكن لعله أسرف فى امتداحهم .

(٢) من أجل هذا شبه ثيوكريتوس ذلك الزواج بزواج الاخوة بين الآلهة الاولمبية فقال: «انه هو وشريكته الجميلة النبيلة التى كانت =

الثانية هذه ، التى تعتبر نموذجا لنساء اسرتها ، بإرادتها القوية وكفايتها واستخفافها بصوت الضمير ، برهنت على أنها كانت شريكة نافعة لزوجها ، على استعداد لأن تغمض عينيها على خياناته العديدة . ولقد خلع عليها لقب فيلادلفوس (Philadelphus) أى محبة أخيها، وبعد وفاتها وتأليهها شاركها بطلميوس شرف التأليه ، وخلع عليهما لقب الإلهين الأخوين (theoi adelphoi) . ولقد عبد بطلميوس الأول تحت اسم سوتير (Sotêr) أى المنقذ، كالقب خليفة بطلميوس الثانى وابنه بلقب يوارجيتيس (Euergetés) أى الخير ، ومنذ ذلك الحين حمل جميع ملوك الأسرة (وكانوا بلا استثناء يسمون بطلميوس) ألقابا إلهية عبدوا بها حتى وهم على قيد الحياة .

وشهد عهد بطلميوس الرابع فيلوپاتور (Philopator) ، الاله المحب لأبيه، بداية فترة الانهيار الشديد. وقد وصف فيلوپاتور فى نقش كهنوتى[١]

= لهخير من أيةزوجة أظلها سقف ، ذلك أنها تحب من صميم فؤادها زوجا وأخا فى شخص واحـد • وهكذا حدث فى السـموات حيث تم الزواج المقدس بين هؤلاء الذين أنجبتهم ريا الجليلة ليكونوا سادةفى اولمبوس • وهكذا أيضا أعدت أيريس ــ الوصيفة الامينة ــ بيديهـا المعبقتين بالبخور مضجعا واحدا لزيوس وهيرا • » أنظر :
(٤ *Idyll.* XVII. 128-34, trans. by J.M. Edmonds).
(٥) عن تسمية عدد من شوارع الاسكندرية باسم ارسينوى مشبهة فى كل حالة باحدى الآلهات الاغريقية ، انظر :
H. I. Bell, *Arch.*, VII, 1924, pp. 21-24.

[١] هذا النقش هو المعروف باسم « لوحة بيثوم » ، وهـو قرار أصدره الكهنة فى منف فى شهر نوفمبر عام ٢١٧ بمناسبة الانتصار فى معركة رفح ، وهو مكتوب بالهيروغليفية والديموطيقية والاغريقية، سمى باسم مدينة بيثوم « تل المسخوطة » التى تقـع شرقى الدلتـا حيث عثرنا عليه •

بأنه حورس الممتلىء شباباً ، القوى ، الذى نصبه أبوه ملكا ، صاحب التاجين ، ذو القوة العظيم الذى امتلأ قلبه بتقوى الآلهة ، حامى الناس ، المتفوق على أعدائه ، الذى أسعد مصر وملء معابدها نوراً والذى وطد دعائم القوانين التى وضعها تحوت العظيم الأعظم ، سيد حفلات الثلاثين عاماً ، شبيه بتاح العظيم ، وشبيه الشمس ، ملك مصر العليا ومصر السفلى ، سليل الملكين الخيّرين ، الذى باركه بتاح وحبته الشمس بالنصر ، صورة آمون الحية ، الملك بطلميوس ، الخالد ، حبيب إيزيس ، (١) هذا الملك الذى خلع عليه الكهنة هذه الصفات ، كان فى الواقع ملكا ضعيفاً خليعاً ، وألعوبة فى يد وزيره الفاجر سوسيبيوس (Sôsibius) وخليلته الفاسقة أجاثوكليا (Agathoclea) وشقيقها ، الذى يفوقها فسوقاً ، أجاثوكليس (Agathoclês) ، وأمهما الشاحبه أوينانثى (Oenanthê) ، وتلك عصابة من الأوغاد الأفاقين لم تبتل بمثلهم إمبراطورية حتى قيام العهد النازى . (٢) وأدى الانغماس فى

---

(١) هذه هى ترجمة بفان للترجمة الالمانية التى قام بها شبيجلبرج ، انظر :
E. Bevan, *A History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty*, pp. 388-9.

(٢) يقف تارن *(C.A.H.* VII, p. 727) موقفا أكثر عطفا على فيلوباتور من موقف بفان *(Egypt under the Ptol.* pp. 220 ff.) غير أنى أعترف بأن حججه التى يسوقها غير مقنعة . ونحن لاننكر احتمال وجود مبالغات شديدة فيما قيل عن فيلوباتور ، كما يحتمل أن يكون بوليبيوس قد حكم حكما ظالما على هذا الملك (وان لم يقم على ذلك دليل) . لكن ماذا نقول فى مقتل والدة فيلوباتور وفى مقتل أخيه ماجاس =

الملذات إلى إهمال شئون الجيش والاسطول على السواء ، فلما هاجم

(Magas) وهي حقائق ثابتة، ولا بد أن كلا الجريمتين قد باركهما هذا الملك ان لم يكن هو الذى حرض عليهما • واذا قيل أن اهمال الجيش والاسطول قد بدأ فى أواخر عهد بطلميوس الثالث • فان فيلوباتور ووزراءه لم يحاولوا تدارك هذا الامر حتى أحدق بهم الخطر • ولا يقل عن هذه الامور وضوحا تلك المعاملة السيئة المشينة التى لقيتها منه زوجته ارسينوى • ثم ان الحكم على الملك لابد أن يرتكز جزئيا على أخلاق أصفيائه والمقربين اليه ، ونحن نعرف أن سمعة بطانته كانت غاية فى السوء • وفى التاريخ أمثلة عديدة تدل على أن هواية الجمال ، بل والاحساس الدينى الاصيل ، وكلاهما توافر فى فيلوباتور دون شك (انظر قراره عن عبادة ديونيسوس فى B. G. U. VI, 1211 حيث تجد قائمة بالمراجع) ، قد يقترنان فى الانسان بالانحلال الخلقى • ويذهب توندريو J. Tondriau فى مقاله :

« Les thiases royaux de la cour Ptolemaïque, » *Chronique d'Egypte* XXXI, No. 41 pp. 149-71.

الى أن جلسات الشراب وغيرها من الحفلات والمآدب التى تذكر عن فيلوباتور وغيره من ملوك الاسرة لم تكن مجرد لهو وعبث ، وانما كانت جزءا من سياسة مرسومة وذات طابع دينى • وعلى فرض صحة هذا الزعم فان حفلات فيلوباتور الماجنة لم تكن فوق مستوى الشبهات، مثال ذلك ما أبدته ارسينوى من ازدراء شديد رواه اراتوستنيس ، أستاذ فيلوباتور، ونقله لنا أثينايوس Athenaeus (VII, 267 b-c) « سألت أرسينوى حامل الاغصان عن هذا اليوم الذى يحتفلون به ، وعن اسم الحفل نفسه ، فأجابها : « انه يدعى حفل الدنان ، وفيه يضجع المدعوون على أسرة من البوص ويلتهمون ما أحضروه معهم من طعام ، ويشرب كل منهم من دنه الخاص الذى أتى به من منزله » فلما انصرف عنها نظرت الينا وقالت : « انه يبدو حفلا مبتذلا ، ولا بد أن المدعوين فئات مختلطة كل منهم يتناول طعاما عفنا من أحط اصناف ! »

وبعد، فان كل ما نستطيع أن نقوله حقيقة دفاعا عن فيلوباتور هو ان سياسته ربما كانت على جانب من الصلابة صمتت عنه الروايات التى وصلتنا عنه •

انتيوخوس الأكبر (Antiochos) ـ ملك سوريا الطموح ـ أملاك مصر فى سوريا ، لم يلق فى الواقع قوة فى البلاد تستطيع الصمود فى وجهه . لكن أساليب السياسة البارعة عطلت تقدم أنتيوخوس بينما كانت الاستعدادات فى مصر تجرى على قدم وساق (الواقع أن سوسيبيوس كان داهية بصرف النظر عن سلوكه الشخصى) ، فاستؤجر المرتزقة ، وعبء أصحاب الاقطاعات العسكرية ودربوا تدريباً مركزاً ، وأعيد تنظيم الجيش ، وسلح المصريون الذين كانوا حتى ذلك الوقت لا يعملون إلا فى الصفوف الخلفية ، ودربوا على طراز الفيلق الاغريقى المقدونى المتراص (phalanx) ، ثم كشف سوسيبيوس النقاب عن وجهه ، ورفض مطالب أنتيوخوس الذى استأنف تقدمه فأنزلت به القوات المصرية هزيمة فادحة ، وظفرت بنصر مؤزر فى معركة رفح (٢٢ يونيه عام ٢١٧ ق . م .)

نتائج معركة رفح :

ولم يكن الانتصار فى رفح ربحاً صافيا ، ذلك أن المصريين وقد عوملوا للمرة الأولى كأنداد للإغريق من الناحية العسكرية ، قد أخذتهم العزة بأنفسهم ، فإذا بثوراتهم تتكرر على نطاق واسع فى منطقة طيبه وإن لم تقتصر عليها ، وكانت طيبه هى المرتع الخصيب للحركات القومية . وقد كان فى وسع البطالمة أن يعالجوا هذه الحركات بصورة أجدى لو أنها

كانت المشكلة الوحيدة التى واجهتهم[١] . لكن الاسرة البطلمية كانت تمزقها المنازعات الداخلية فى خلال الشطر الأخير من القرنين الثانى والأول ق . م . [٢]. كما تعرضت مصر فى نفس الوقت لتهديد خارجى متصل ؛ فقد ظهرت فى أرجاء عالم البحر الابيض المتوسط قوة جديدة أوجدت فى جميع الممالك الهلينستية إحساساً قويا بالقلق ، وعملت هذه القوة الجديدة لصالح مصر فى أول الامر : فمنذ عام ٢٧٣ ق . م . عقد بطلميوس الثانى معاهدة تجارية مع الجمهورية الرومانية ، وعندما بدأت روما تتدخل فى شئون شرقى البحر الابيض عقب انتصارها فى الحرب البونية الثانية ، وجدت فى مصر قوة نافعة لحفظ التوازن أمام الدولة السليوكية ، وإذا كانت العلاقة بين الدولتين قد انطوت على شيء من المصلحة لها ، إلا أنها عادت على مصر فى بعض الاحيان بأعظم الفوائد . وقد اقترنت الاخطار الخارجية والاضطرابات الداخلية المستمرة، سواء كانت نتيجة للنزاع حول العرش بين أفراد الاسرة المالكة ، أو

---

[١] انظر : **محمد عواد حسين** « حركات المقاومة الوطنية فى مصر البطلمية » القاهرة ١٩٤٩

[٢] انظر : **محمد عواد حسين** « الحرب السورية السادسة وبداية النزاع الاسرى فى مصر البطلمية » حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس ، المجلد الاول (١٩٥١) ، ص ٧١ ـ ١٢٥ .

وانظر ايضا : النزاع الاسرى فى مصر البطلمية من ١١٦ الى ٨٠ ق.م. ، حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس ، المجلد الثانى (١٩٥٣) ، ص ١١١ ـ ١٣٨ .

للثورات القومية ، بتدهور اقتصادى بدأ منذ عهد بطليموس الرابع . بل إنها كانت سبباً جوهرياً فى زيادة حدته .

واستحدث فيلادلفوس عملة برونزية استعملت إلى جانب العملة الذهبية والعملة الفضية ، وبهذا أوجد نظام المعادن الثلاثة فى التداول النقدى . وكانت العملة البرونزية متداولة بين المصريين بوجه خاص . بينما تداول الاغريق العملة الفضية والذهبية . وعندما اعتلى فيلوباتور العرش ، اتخذ البرونز قاعدة أساسية للنقد ، وكانت نسبته إلى الفضة ٦٠ : ١ . وفى عهود خلفائه نجد فترات يسود فيها التضخم المالى الذى يؤدى إلى انكماش الدخل ، وبالتالى إلى ضغط الموظفين على الأهالى. وكان هؤلاء يواجهون هذا الضغط بالمقاومة السلبية أحياناً وبالثورات العلنية أحياناً أخرى . وحاول الملوك وضع حد لهذه المساوىء ، لكن سلطانهم على الموظفين المحليين كان محدوداً (١) . وكان الاضطراب الاقتصادى وفساد الأداة الحكومية والقلق العـــام ، من الامور الواضحة تماماً فى النصف الثانى من القرن الثانى ق. م. واقترنت هـذه المســاوىء جميعاً بكســاد فى التجارة الخارجية . وأدى الضعف المطرد فى الحكومة المركزية إلى قيام حركات انفصالية محلية ، وإلى ازدياد

---

(١) انظر :
C. Preaux, « Un Problème de la politique des Lagides : la faiblesse des édits », in *Atti del IV Congresso Internazionale di Papirologia,* 1936, pp. 183-93.

فى نفوذ الكهنة وإذعان لسلطانهم ، وإلى استسلام لذوى النفوذ والجاه، وإلى مقاومة عنيفة أبدتها جموع الفلاحين ، أى أنه أدى فى الواقع إلى حالة تذكرنا بفترات الانحلال التى شهدتها مصر على أيام الاسرة التاسعة عشرة الفرعونية ، وما سوف تشهده فى صدر العصر البيزنطى (١) .

تدخل روما :

وفى عام ٢٠٢ ق.م. انتهز فيليب ملك مقدونيا وأنتيوخوس ملك سوريا فرصة اعتلاء صبي للعرش المصرى ، هو بطلميوس الخامس Epiphanês (الاله الظاهر) ، وتعاهدا معاً على أن ينتزعا من مصر ممتلكاتها الخارجية ، فاجتاح انتيوخوس ممتلكاتها فى سوريا ، وغزا فيليب ممتلكاتها فى بحر إيجة دون أن تبدى روما احتجاجاً . لكننا لا نستبعد أن نفوذ روما كان له أثره فى إبعاد انتيوخوس عن التفكير فى غزو مصر نفسها . وفى عام ١٧٠ ق.م. عندما حاول وزراء الملك الصغير بطلميوس السادس فيلوميتور (الإله المحب لامه) إستعادة أملاك مصر فى سوريا فنوا بهزيمة ساحقه ، انتهز أنتيوخوس إيبفانيس (Epiphanês) فرصة إشتغال روما بمحاربة مقدونيا ، وغزا مصر وتوج ملكا عليها كما جاء فى

---

(١) انظر :

C. Preaux, « La Signification de l'époque d'Evergète II. » in *Actes du V Congrès International de Papyrologie*, pp. 345-54.

وعن فترات التضخم المالى انظر :

F. Heichelheim, *Wirtschaftliche Schwankungen der Zeit von Alexander bis Augustus*, Jena, 1930.

إحدى الوثائق البردية(١). لكنه لم ينعم بلقبه الجديد إلا قليلا، إذ أرسلت له روما فى عام ١٦٨ ق. م. ، عقب الهزيمة النهائية التى لحقت بفيليب ، سفيرها جايوس پوپيليوس لايناس(Gaius Popilius Laenas) يطلب إليه الانسحاب من مصر . وحاول أنتيوخوس أن يماطل ، فما كان من سفير روما إلا أن رسم بعصاه دائرة فى الرمال حول الملك ، وأصر على أن يتسلم منه الرد قبل أن يخطو خارجها . لقد كانت أساليب روما الدبلوماسية تخلو من الذوق فى بعض الأحيان ، إن لم تكن فظة غليظة ، لكن قوتها كانت أخطر من أن يتحداها إنسان . واضطر أنتيوخوس ، أن يبتلع الإهانة ويكظم غيظه ويذعن لطلبها . ومنذ ذلك الحين ، ولا سيما بعد أن أدمجت سوريا ومقدونيا فى الأملاك الرومانية ، لم تحتفظ مصر باستقلالها إلا لأن روما لم تجد أن الوقت مناسب لالتهامها .

تحسن مركز المصريين :

وفى القرن الأخير من الحكم البطلمى ظفر المصريون الوطنيون بمكانة جعلتهم أقرب إلى المساواة مع الإغريق عما كانوا عليه فى عهود البطالمة الاوائل ، وذلك بفضل الضعف المطرد الذى أصاب الحكومة،

(١) انظر : P. Tebt. III. 698.
وعن تاريخ هذه الاحداث انظر :
Eric G. Turner, *Bull. of the John Rylands Library*, XXXI, 1948, pp. 4-6.

واحتياج الملوك المتنافسين على العرش إلى التأييد الشعبى . ولهـــذا نسمع عن مصريين يحتلون المراكز السامية الرفيعة فى السلكين المدنى والعسكرى على السواء . ومنح الجنود المصريون المسرحون إقطاعات من الأرض كزملائهم الإغريق، وإن كانت أصغر منها مساحة . وحصلت المعابد ، واحدتلو الآخر ، على حق حماية اللاجئين (asulia) . ولم يؤد هذا كله إلى تحسين العلاقات بين المصريين والإغريق، بل على العكس، أدى شعور المصريين بأهميتهم ، وتضاؤل أحترامهم للأجانب ، إلى ازدياد روح العداء نحوهم . ولعله من الأمور ذات المغزى فى هذا الصدد ، أن بطلميوس الناسك المقدونى ، الذى تؤلف أوراقه جزءاً كبيرا من برديات السرابيوم ، قد شكا عدة مرات فى منتصف القرن الثانى ق.م. من اعتداء الأهالى عليه « لأنه أغريق » . كما نسمع عن نبوءات شائعة كانت تمنى المصريين بطرد الأجانب وتدمير مدينة الإسكندرية . أما الإغريق ، فبرغم أنهم كانوا وقتئذ قد امتزجوا بالمصريين عن طريق الزواج ، وتمصروا بطرق شتى ، إلا أنهم نظراً لموقف المصريين منهم قد ازدادوا تشبثاً بتقاليدهم الإغريقية ، فاستمروا يترددون على حلبات الرياضة ومعاهد التربية الثقافية والبدنية ومنظمات الشباب ، وإذا كانت رسائلهم التى وصلتنا لا تدل على اهتمامهم بالآداب والفنون ، إلا أننـا نعرف من الوثائق التى اكتشفت فى مصر الوسطى أن مؤلفات فحول الأدب الأغريقى ، مثل هوميروس بوجه خاص ، وغيره من كتاب

المسرح ، والخطباء والفلاسفة والشعراء الغنائيين، كانت لا تزال تدرس، ومع ذلك فينبغى ألا نبالغ فى تصوير الكراهية العنصرية ، إذ توجد أدلة عديدة على قيام علاقات الصــــداقة ، بل والصداقة الحميمة بين الإغريق والمصريين .

وعاشت مصر فى خضم الحروب الأهلية خلال فترات طويلة من القرنين الثانى والأول ق . م . ، وبدا فى بعض الأحيان أن أقليم طيبة قد استقل فعـلا عن حكومة الاسكندرية [١] . وفى عام ٨٥ ق. م . اشتعلت بهذا الإقليم ثورة عنيفة انتهت بتدمير طيبه عاصمة مصر فى أيام مجدها التليد . وأصـبحت « طيبة ذات الأبواب المائه » كما أسماها هوميروس ، مجرد مجموعة من القرى المنتثرة فوق أطلال ماضيها القديم ، ولا تزال كذلك منذ ذلك الحين .

كليوبتره ونهاية البطالمه :

وأصبحت مصر ـ مرة أخرى ـ فى خلال الاعوام الاخيرة من حياتها كدولة مستقلة عاملا فى سياسة البحر الابيض الدولية . وأنجبت أسرة البطالمة فى آخر أيامها شخصـية ذاع صيتها فى الآفاق . ولقـد يكون التعليق الشهير الذى علقت به سيدة من عصر « فكتوريا » على حياة

[١] عن أحداث هذه الفترة ، انظر :
W. Otto & H. Bengtson, *Zur Geschichte des Niederganges des Ptolemäerreiches* (=Abh. Bay. Akad. Wiss. Phil. - Hist. Abt. N.F. Heit 17) München, 1938.

كليوبتره ، بعد أن شاهدت عرضا لمسرحية « انطونيو وكليوبترة » حيث قالت «كم تختلف حياتك المنزلية عن حياة ملكتنا العزيزة» قد يكون هذا التعليق متفقا مع رأى جمهرة الناس فى كليوبترة . لكن إذا نحن اعتبرنا هذه الملكة مجرد عاهرة كما وصفها شكسبير فى مسرحيته متمشيا مع ماذاع عنها ، أو إذا نحن اعتبرناها كفتاه صغيرة فى سن المراهقة كما صورها « برنارد شو » فى « قيصر وكليوبترة » فإننا لا نظلمها ظلما شديدا فحسب ، وإنما نكون قد خرجنا خروجاً صارخا على الحقائق التاريخية. لقد وصفها أكبر أساتذة التاريخ الهلينستى الأحياء بأنها أعظم خلفاء الإسكندر الأكبر ، وإنها لمنزلة رفيعة ، لكنها لم تتبوءها فى نظر هذا الاستاذ دون جدارة واستحقاق . وقد تأثر المؤرخون طويلا فى حكمهم على كليوبترة بالدعاية الرومانيـة الرسمية المغرضة التى شوهت سمعتها . ومهما قيـل عن زلاتها الخلقية ، فقد كانت أمرأة ذات عبقرية فذة ، جديرة بأن تهابها روما كخصم ، وفى ذلك يقول الدكتور تارن (١)« إن روما التى لم تستسلم إطلاقا للخوف من أية دولة أو أى شعب ، قد خشيت شخصيتين ، إحداهما هانيبال ، والأخرى إمرأة » . ويبدو أن تارن كان على

---

(١) انظر : C.A.H. X, p. 111.

جانب كبير من الصواب (١) حين اعتبر النبوءة السبيلّيه [٢] تتحدث عن كليوبترة وهى تنذر بسقوط روما على يد ملكة (despoina) يبدأ بحكمها عصر ذهبي جديد : « سوف يسود السلام جميع ربوع آسيا ، وسوف تسعد عندئذ أوروبا ، وسوف يسود جو بديع مثمر لأطيب الثمرات خلال أعوام طويلة ، يقوم على أساس وطيد ، لاتفسده العواصف أو الأعاصير ، ولسوف ينعم بهذا الجو كل شيء في الوجود حتى الطيور والحيوانات التى تدب على الأرض . . . ذلك لأن السماء المتألقة بنجومها سوف ترسل العدل والنظام إلى الكون فينعم فى ظلهما الناس أجمعين ، وفى ركاب هذا وذاك يمشى الوئام والقناعة ، وكلاهما خير للناس وأبقى من كنوز الدنيا جميعا . كذلك سوف تسود المحبة والوفاء والاخاء بين الغرباء ، وفى هذه الايام يختفى الفقر والحرمان

(١) انظر : J.R.S. XXII, 1932, pp. 135-60.
ويعارض الاستاذ H. Fuchs فى كتابه :
Der geistige Widerstand gegen Rom in der antiken Welt, (Berlin, 1938), p. 36.
وجهة نظر تارن • راجع :
(F. Oertel, *Klassenkamph, Sozialismus und organischer Staat im alten Griechenland*, Bonn, 1942, p. 63, note 133.)
غير أنه لايحاول بصورة جدية هدم حجج تارن التى تعتبر مقنعة جدا وان لم تكن قاطعة حاسمة •

[٢] تنسب هذه النبوءة الى عدد من النسوة المتنبآت ، يقال ان عددهن قد اختلف باختلاف المكان ، بين ٢ ، ١٠ ويسمون (Sibyllae) • وقد دونت نبوءاتهن فى مجموعة من الكتب باعتها احداهن للملك الرومانى تاركوينيوس . ومنذ ذلك الحين حفظت هذه الكتب فى الكابيتول بروما حيث كان يرجع اليها فقط عندما يرى السناتو ذلك •

والفوضى والسباب والحسد والغضب والحماقة والقتل والتباغض والمهاترات المريرة ، والسرقات التى تحدث تحت جنح الظلام ، وكل أنواع الشرور » .

ولم يكن المسيح المنتظر الذى أنيط به إقامة هذا العصر الذهبى سوى هذه الفاجرة العنيدة التى تلوك سيرتها الالسنة ! وهل هناك من يستطيع الكشف عما كان يدور بخلد كليوبتره ؟ لعلها أحبت أنطونيوس كما أحبها هو بكل تأكيد ، ولعلها لم تحبه إطلاقاً . لقد كان شغلها الشاغل دون ريب هو الاحتفاظ لمصر باستقلالها وتوسيع رقعتها إذا استطاعت ، وضمان العرش لابنائها من بعدها . وهى لتحقيق هذه الاهداف تستغل افتتان أنطونيوس بها . غير أنها كانت عند كثير من الشرقيين رمز المقاومة ضد الرومان ، والأمل المرموق لتخليصهم من النير الرومانى ، وأغلب الظن أن الالتواء الظاهر فى السياسة الرومانية لم يكن وليد تلاعب مقصود بقدر ما كان فى بعض الأحيان نتيجة للتردد وللتيارات الحزبية المتضاربة . ولكن الشرق كانت فكرته قد ساءت عن روما لأن حكوماته إبان تداعى الجمهورية اتبعت مع السكان أساليب الضغط وابتزاز الأموال . وهكذا وجدت المقاومة الطويلة ، والكراهية المتصلة ، والآمال التى داعبت الشرقيين أعواما عدة ، وجدت نصيراً لها فى كليوبتره . لكن هذه الملكة فشلت فى تحقيق الآمال التى عقدت عليها كما فشل هانيبال من قبل . وعقب معركة اكتيوم [٣١ ق.م.] وجد انطونيوس

نفسه وحيداً بعد أن تخلى عنه أصدقاؤه ، فغرق فى لجج من اليأس . ولم يعد ذا فائدة ترجى لكليوپترة ، وبرغم أنهـا لم تفقد ذرة من شجاعتها ، فقد أحست بأن مواردها المادية لم تعد كافية ، ولم يبق أمامها إلا أحد سبيلين : إما أن تموت ، وإما أن تساق فى موكب النصر عبر شوارع روما . ولم يكن هناك مجال للتردد فى الاختيار .

وكان السؤال الذى ألقاه الجندى الرومانى على " شارميون " وهى تحتضر عندما وجد كليوپتره صريعة بين وصيفاتها " أتم ذلك على خير وجه ؟ " فكان الجواب كما جاء فى مسرحية شكسبير : " لقد تم على خير وجه وبصورة تليق بأميرة تنحدر من أسرة كلها ملوك . " وكان اختيار كليوپتره للثعبان كى يخلصها من الأسر تصرف له مغزاه (١) : كان هذا الثعبان هو « الكوبرا » المصريه، الثعبان المقدس فى مصر السفلى ، وكفرعونة وسيدة للأرضين ، لبست كليوپترة التاج المزدوج ، تاج العقاب لمصر العليا ، وتاج الكوبرا لمصر السفلى . وكانت الكوبرا

---

(١) انظر على سبيل المثال :

W. Spiegelberg, « Weshalb waehlte Kleopatra den Tod durch Schlangenbiss ? » in *Aegyptologische Mitteilungen* (Sitzungsber. der Bayerischen Akademie, 1925, Abh. 2, No. 1).

وقد زل شبيجلبرج زلة غريبة فقال ان الناجاهاجي (naja haje) أو الـ uraeus هي الافعى القرناء (ص ٥) . ولكن الناجاهاجي هي الكوبرا المصرية ، وان كان ثعبان جنوب أوربا يسمى (vipera aspis) ؛ وقد أصاب بفان حين تحدث عنها بوصفها الكوبرا فى كتابه :

Egypt under the Ptolemaic Dynasty, p. 382.

خادمة لإله الشمس ، ولدغتها لا تمنح الخلود فحسب ، وإنما الألوهية أيضاً . لقد سلكت كليوپتره الطريق الملكى إلى الموت ، ولحقت بزمرة الآلهة . ولم يبق لاوكتاڤيوس (Octavius)[١] من بعد إلا أن يضم مصر إلى أملاك الشعب الرومانى .

---

[١] أوكتافيوس هو اسمه الاصلى ، وبعد أن تبناه يوليوس قيصر ، حمل اسم اوكتافيانوس (Octavianus) . أما أوغسطس (Augustus) ومعناها « الجليل » ، فهو اللقب الذى أطلق عليه فيما بعد . وكان القدماء يسمونه « قيصر » .

الملوك البطالمه

بطليموس الاول (سوتير) ٣٢٣ـ٢٨٥/٤ ق٠م٠
« الثانى (فيلادلفوس) ٢٨٥/٤ـ٢٤٦ ق٠م٠
« الثالث (يوارجيتيس) ٢٤٦ـ٢٢١ ق٠م٠
« الرابع (فيلوباتور) ٢٢١ـ٢٠٤ ق٠م٠
« الخامس (ابيفانيس) ٢٠٤ـ١٨١ ق٠م٠
« السادس (فيلوميتور) ١٨١/٨٠ـ١٤٥ ق٠م٠
« السابع (يوباتور) ٤٥٠ ق٠م٠
« الثامن(يوارجيتيس الثانى) بالاشتراك مع أخيه فيلوميتور) ١٧٠/٦٩ـ١٤٥ ق٠م٠
(منفردا) ١٤٥ ـ ١١٦ ق٠م٠

كليوبتره الثالثة مع أبنائها بطلميوس التاسع (سوتير الثانى) وبطلميوس العاشر (الاسكندرالاول) « الحادى عشر (الاسكندرالثانى) ١١٦ـ١٠١ق٠م

بطلميوس العاشر الاسكندر الاول) ١٠١ـ٨٨ ق٠م (منفردا)
« التاسع (سوتير الثانى) ٨٨ ـ٨٠ ق٠م (منفردا)
برينيكى الثالثة ٨٠ ق٠م
بطلميوس الثانى عشر (نيوس ديونيسوس) ٨٠ ـ٥١ ق٠م٠

كليوبتره السابعة مع أخويها بطلميوس الثالث عشر و « الخامس عشر وابنها « الرابع عشر ٥١ـ٣٠ ق٠م٠

مراجع الفصل الثانى

Bevan (E.), *A History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty*. London, 1927.

Wilcken (U.), *Alexander the Great*. Transl. by G.C. Richards London, 1932.

Jouguet (P.), *L'Impérialisme macédonien et l'hellénisation de l'Orient*. Paris, 1926.

Jouguet (P.) — « Les Assemblées d'Alexandrie à l'Epoque Ptolémaïque », *Bull. Soc. Roy. d'Arch. d'Alex.* No 37 (1948), pp. 3-26.

Tarn (W.W.), *Hellenistic Civilisation*. 2nd ed. London, 1930. Chapter V, « Egypt ». [3rd ed. by Griffith, 1951]

Rostovtzeff (M.), *The Social and Economic History of the Hellenistic World*. 3 vols. Oxford, 1941. Chapters on Egypt.

Rostovtzeff (M.), « Ptolemaic Egypt », in *Cambridge Ancient History*, VII, pp. 109-54.

Koerte (A.), *Hellenistic Poetry*. Transl. by J. Hammer and M. Hadas. New York, 1929.

Préaux (Claire), *L'Economie royale des Lagides*. Brussels, 1939.

Lesquier (J.), *Les Institutions militaires de l'Egypte sous les Lagides*. Paris, 1911.

[ونضيف الى قائمة المؤلف الكتب التالية :

Bouché-Leclercq, (A.) *Histoire des Lagides*. Paris 4 vols. Paris 1903-1906.

Seidl (E.), Ptolemaeische Rechtsgeschichte. Erlangen, 1947.

Launey (M.), *Recherches sur les Armées Hellénistiques*, 2 vols. Paris, 1949-1950.

Couat, (A.), *Alexandrian Poetry under the First Three Ptolemies*. Trans. by J. Loeb. New York, 1931.

Parsons, (E. Alexander), *The Alexandrian Library*. London, 1952.

ابراهيم نصحى « تاريخ مصر فى عصر البطالمة » جزءان ، القاهرة ١٩٤٦ .

محمد صقر خفاجه « شعر الاسكندرية » القاهرة ١٩٥٢ (ترجمة كتاب **فيليب أميل لجران** ، ١٩٢٤)]

الفصل الثالث

العصر الرومانى

وضع مصر كولاية فى الامبراطورية :

يقول أوغسطس (Augustus) فى الوثيقة المشهورة التى سجل عليها أعماله والمعروفة باسم «Res Gestae» لقد ضممت مصر إلى أملاك الشعب الرومانى [١] . وقد جادل بعض العلماء المحدثين فى صحة هذه العبارة لأن مصر فى زعمهم لم تكن أبداً ولاية رومانية بالمعنى الصحيح ، وإنما كانت ملكا خاصاً للإمبراطور . والحق أن هذا الرأى ليس من الميسور الدفاع عنه لأن مصر كانت فى الواقع ولاية (provincia) ، وإنما من

---

[١] Mon. Ancyr. 27 : *Aegyptum imperio populi Romani adieci.* وتعرف الوثيفة أيضا باسم Monumentum Ancyranum أى « أثر أنقرة » نظرا لاننا عثرنا عليه فى تلك المدينة ، وهو نسخة من الاصل الذى كان أوغسطس قد أمر بحفره على البرونز ووضعه فى ضريحه (Mausoleum) فى روما . وقد سمى المؤرخ الالمانى المشهور مومسن (Th. Mommsen) هذه الوثيقة نظرا لاهميتها القصوى «ملكة النقوش اللاتينية » . وقد عثرنا أيضا فى آسيا الصغرى على نسخ منها مكتوبة بالاغريقية ، وهى لغة الشرق الهلينستى الذى كان خاضعا لروما ، أنظر :

E.G. Hardy, *The Monumentum Ancyranum*. Oxford, 1923
F.W. Shipley, *Res Gestae Divi Augusti*. Loeb Classical Library, 1924.
V. Ehrenberg & A.H.M. Jones, *Documents illustrating the Reigns of Augustus and Tiberius*. Oxford, 1949.
J. Gagé, *Res Gestae Divi Augusti*. (Publ. Fac. Lett. Univ. Strasb. Textes d'Etudes 5). Paris, 1950

طراز فريد . وبمقتضى التسوية التى تمت عام ٢٧ ق.م. ، كانت حكومة الإمبراطورية الرومانية من حيث الشكل ـ إن جاز لنا أن نستعمل مصطلحاً شائعاً اليوم ـ حكومة ثنائية . فلم يكن أوغسطس إمبراطورا مطلق السلطة ، وإنما كان بمثابة المواطن الأول فى جمهورية حرة (princeps civitatis) وقد وزعت السلطة فى الولايات بينه وبين مجلس الشيوخ أو السناتو (senatus) ، وكما كان الحال فى الماضى ، فقد تولى إدارة الولايات التابعة للسناتو حكام مسئولون أمام هذه الهيئة يحمل كل منهم لقب بروقنصل (pro consule) [١] أو بروپريتور (pro praetore) ، وأما تلك التابعة للإمبراطور فقد نصب عليها حكام يحمل كل منهم لقب نائب أوغسطس (legatus Augusti) ، وكانوا يختارون عادة من بين طبقة السناتو .

هكذا كان النظام الجديد من حيث الشكل ، ولكن جوهره كان مختلفا عن ذلك بعض الإختلاف . وليس من الدقة فى شىء أن يقال،

---

[١] كان كبار الموظفين الرومان (magistratus) ، وعلى رأسهم القنصلان ، رئيسا الدولة ، (consules) فى العصر الجمهورى ، ينتخبون لمدة عام واحد ولا يجوز لهم ترشيح أنفسهم لنفس المنصب الا بعد مرور عشر سنوات . وكان من عيوب هذا النظام اضطرار القناصل الاكفاء ذوى الخبرة العسكرية ، الى التخلى عن مراكزهم لمن يخلفونهم فى وقت قد تكون الدولة فيه منهمكة فى حروب خارجية . وقد تغلب الرومان على هذه المشكلة باطالة مدة خدمة القنصل المنشغل بالحرب فى الخارج لفترة غير محدودة بعد موافقة السناتو ، على أن يسمى هذا القنصل السابق فى هذه الحالة (pro consule) ومعناها الحرفى نائب قنصل .

كما يردد بعض الباحثين ، إن الولايات التى كانت تتطلب وجود حاميات عسكرية بها هى التى خصصت للإمبراطور ، بينما خصصت للسناتو الولايات التى لم تتطلب ذلك . فقد سمعنا عن حكام لولايات سناتوريه يتولون قيادة الجيوش. ومع هـــذا فالكلام صحيح فى جملته. وكان أوغسطس يتمتع فوق ذلك بالسلطة الأعلى (maius imperium) التى كانت تخوله الاعتراض على أى سلطة أخرى فى كافة أرجاء الامبراطورية .والتدخل أحياناً فى شئون الولايات السناتورية . والواقع أنه احتكر السلطة الحربية . فقد أحرز أوغسطس مركزه بحد السيف ، وكان السيف آخر الامر هو الذى يمكنه من الإحتفاظ به ، وإلى جانب السيف رضاء المحكومين عنه .ولامراء فى أنه من المستطاع إقامة حكومة دكتاتورية ضد رغبة السواد الاعظم من المواطنين، لكن إذا لم يتيسر لهذه الحكومة أن تحيل مناوءتهم لها إلى رضاء عنها ، فلن يكون لديها أى أمل فى البقاء طويلا . ولئن كانت طبقة الاشراف الرومان ، التى أتاح لها نظام الجمهورية المحتضرة فرصاً جمة لاقتناء الثروة وإحراز المجد ، قد تبرمت من العهد الجديد لأنه حرمها هذه الفرص، فليس ثمة شك فى أن الامبراطورية بأسرها ، بعد ماعانت الأهوال من جراء الحروب الأهلية الطويلة ، قد تنفست الصعداء باستقرار الأحوال على يد أوغسطس، بل إن كثيرا من الناس رحبوا بهذا الاستقرار ترحيبا شديدا . ومهما يكن من شىء،

فقد كان على أوغسطس لكى يحتفظ برضاء الجماهير أن يحقق شرطين وهما : صيانة الأمن الداخلى . وضمان وصول المؤونة بانتظام إلى ايطاليا والعاصمة . وكان أهم مستودعين للغلال فى الإمبراطورية هما افريقيه ومصر . وكانت افريقيه ولاية سناتورية . قد استتب فيها السلام منذ أمد بعيد ولا تتطلب وجود حامية عسكرية ضخمة فيها ؛ وأما مصر ، التى لم تفتحها روما الا فى وقت متأخر ، والتى اشتهر شعبها بالميل الى الشغب ، فكانت بحاجة الى حاميـــة قوية . لذلك وضع أوغسطس فيها مالا يقل عن ثلاث فرق رومانيـة (legiones) [١] ـ بالإضافة الى القوات المساعدة الملحقة بها (auxilia) [٢] ـ ولم تكن الحالة تستدعى

---

[١] كان الجيش الرومانى (exercitus) يتألف فى عصر الامبراطورية من فرق بلغ أقصى عدد لها فى وقت ما ٣٠ فرقة ، (حوالى ١٥٠٫٠٠٠ جندى) . يحمل كل منها اسما خاصا وشعارا مميزا . ولم يكن يجند فيها سوى المواطنين الرومان (cives) سواء من ايطاليا نفسها ـ كما كان الحال فى أول الامر ـ أو من الولايات فيما بعد . وكانت الفرقـة الواحدة (legio) تشمل مابين ٥٠٠٠ ، ٦٠٠٠ جندى ، وتنقسم الى كتائب ، تسمى كل منها (cohors) وتشمل حوالى ٦٠٠ رجل . كما كانت الكتيبة تنقسم بدورها الى ٦ سرايا ، كل سرية منها (centuria) تتكون من حوالى ١٠٠ جندى .

وكان قائد الفرقة الرومانيه عادة رجلا من طبقـة الفرسـان يسمى (legatus legionis)، وأما فى مصر وحدها فكان رجلا من طبقة الفرسان يسمى (praefectus legionis) . وكانت مدة خدمة الجندى فى الفرقـة ١٦ سنة زيدت بعدئذ الى ٢٠ ثم الى ٢٥ سنة فى أواخر القرن الاول الميلادى .

[٢] وكانت تتألف من كتائب من المشـاة (cohortes) وآلايات من الفرسان (alae) ، كل منها يشمل مابين ٥٠٠ أو ١٠٠٠ رجل تحت =

وجود مثل هذا الجيش الضخم ، حتى أنه خليفته تيبريوس (Tiberius) أدرك ذلك فسحب واحدة من هذه الفرق [١] . ومصر ، كما أسلفنا ، بلد من السهل الدفاع عنه . فكان في وسع أي قائد طموح ، اذا وطد مركزه فيها ، أن يقطع عن روما مؤونة الغلال ، وأن يقطع عليها في نفس

= امرة قواد (praefecti) ، مجندين من بين رعايا الولايات غير المواطنين . وكانت بعض هذه الكتائب تنتظم مشاة وفرسانا وتعرف باسم (cohortes equitatae) وقد قدر عدد رجالها جميعا في كافة أنحاء الامبراطورية على عهد أوغسطس بحوالي ١٣٠٫٠٠٠ ، وفي القرن الثاني بحوالي ٢٢٥٫٠٠٠ . وكانت مدة الخدمة فيها ٢٥ أو ٢٦ سنة ، يمنح بعدها الجندي المسرح أو المحارب القديم (veteranus) حق المواطن (civitas) هو وابناؤه . مع حق الزواج الشرعي (conubium) وما يترتب عليه من آثار أهمها اكتساب الابناء جنسية الاب حتى لو كان متزوجا بامرأة غير رومانية . ولا نعرف على وجه التحقيق عدد الكتائب والآلايات المساعدة التي كانت مرابطة في مصر نظرا لتغيره من وقت لآخر . على أننا نعرف حتى الآن أسماء ١٨ كتيبة ، ٨ آلايات على عهد الامبراطور أنطونينوس بيوس ،

أنظر : P. Mich. VII, 441 (introd. p. 50 f.)

[١] اسم هذه الفرقة غير معروف حتى الآن . وأما الفرقتان اللتان بقيتا في مصر فهما « ديوطاروس الثانية والعشرين » (legio XXII Deiotariana) و « الفرقة البرقية الثالثة » (legio III Cyrenaica) وحوالي عام ١٠٩ م . اضيفت اليهما ثالثة ، وهي « فرقة تراجان الثانية » (legio II Traiana) . وقد سحبت « الفرقة البرقية الثالثة » من مصر بعد عام ١١٩ م . وأبيدت « فرقة ديوطاروس الثانية والعشرين » ، في الحرب اليهودية (١٣٢ ــ ١٣٥ م .) . وبذلك لم تبق في مصر بعد هذا التاريخ سوى « فرقة تراجان الثانية » ومعها القوات المساعدة . ومن الصعب تقدير عدد جنود الجيش الروماني المحتل في مصر في وقت بعينه . ولكن لسكييه (Lesquier) يرى أنه لم يزد أبدا عن ١٧٫٠٠٠ أو ١٨٫٠٠٠ بعد عام ٢٣ م . على أن غيره من العلماء يعتقد ، استنادا الى الوثائق المكتشفة حديثا ، أنه كان يزيد عن هذا العدد ، أنظر : P. Mich. VII, 441, p. 49.

الوقت إحدى الطرق التجارية الهامة التي تصل الإمبراطورية بالشرق . وقد رأى أوغسطس أنه من الخطر إتاحة مثل هذه الفرص لحاكم من طبقة السناتو . ولذلك لم ينصب عليها حاكما من هذه الطبقة ، بل حاكما من طبقة الفرسان . ولا نجد إلا في مصر وحدها دون سائر ولايات الإمبراطورية رجلا عاديا من طبقة الفرسان يتولى قيادة جيش مؤلف من الفرق . وفضلا عن ذلك فقد أستن أوغسطس قاعدة ، غدت بمثابة سراً من أسرار الإمبراطورية (arcana imperii) ، التي ائتمن عليها تيبريوس ، مؤداها أنه لا يجوز لعضو من طبقة السناتو أو رجل ذائع الصيت من طبقه الفرسان (eques illustris) أن يدخل مصر دون إذن صريح من الإمبراطور .

وبينما كان أوغسطس يحرص في روما على أن يظهر فقط بمظهر المواطن الأول ، فإنه كان في مصر وريثا للبطالمة ، وفي نظر المصريين فرعونا و « سيد الأرضين » ، وترسم صوره على الآثار مقرونة بالألقاب الإلهية المألوفة . وكان نائبه في مصر ، المسمى حاكم مصر (praefectus Aegypti) ، محظورا عليه ، كأي ملك من ملوك مصر القدامى ، أن يركب النيل في زمن الفيضان ، وظلت الأراضي الحكومية تحمل اسم « الأراضي الملكية » ، وظل كل أقليم محتفظا « بكاتبه الملكي » لقد كانت مصر ، كما أسلفنا ، ولاية ،

ولكنها ولاية من طراز فريد فى الامبراطورية .

الادارة المركزية :

ومع أن البلاد وقفت ، فيما يبدو ، جبهة واحدة إلى جانب كليوپتره ، إلا أن الساحة الملكية كانت بلا ريب ضعيفه خلال الشطر الأكبر من القرن الاخير من عصر البطالمة ، حتى أن أقليم طيبه كاد أن يستقل فى بعض الأحيان . وكانت أولى المهام التى واجهت روما هى إقرار النظام . وإقامة حكومة قوية . وقد خصص أوغسطس لمصر ، كما ذكرنا ، قوات حربية تفوق القدر اللازم لها . وجعل معسكرها الرئيسى فى الإسكندرية[١] ولو أن بعض كتائب منها كانت ترابط فى مواضع مختلفة من مصر العليا . وقد تركزت الساحة العليا فى يد الحاكم الذى كان فى نفس الوقت قائدا أعلا للجيش ، ورئيساً للإدارة المدنية ، ومديراً للشئون الماليه ، كما كان هو المتصرف الوحيد فى شئون العدالة ، بغض النظر عما كان فى يد بعض الموظفين المركزيين من سلطات محدودة للفصل

---

[١] كان هذا المعسكر (castra) يقع فى ضاحية للمدينة تعرف باسم Nicopolis ، وموضعها الآن سيدى جابر ومصطفى باشا . وفى هذا المكان رابطت أيضا قوات الاحتلال الانجليزية ، وبعدئذ رابطت فيه قوات الجيش المصرى بعد الجلاء ، أنظر :
Ev. Breccia, *Alexandrea ad Aegyptum*. Bergamo 1922, p. 86 f.

فى قضايا معينة(١) . والواقع أن الإدارة القضائية أصبحت مركزة إلى حد بعيد . إذ استبدلت المحاكم المتنقلة القديمة بالمجلس القضائى (conventus) الذى كان ينعقد دوريا ثلاث مرات فى السنة برئاسة الحاكم : مرة فى بيلوزيم (Pelusium) للنظر فى قضايا أقاليم شرق الدلتا ، ومرة فى الاسكندرية للنظر فى قضايا أقاليم غرب الدلتا ، ومرة فى منف للنظر فى قضايا أقاليم مصر الأخرى . وتيسيراً المشاق التى قد يتجشمها المتقاضون من جراء هذا النظام ، فقد جرت العادة على أن يفوض الحاكم أمر الفصل فى القضايا للموظفين المحليين أوغيرهم من رجال الإدارة ، أويقوم هو نفسه بجولات تفتيشية كانت الظروف تسمح أثناءها أحياناً بعقد المجلس القضائى لمنطقتى مصر العليا ومصر الوسطى فى بعض البلاد الواقعة جنوب الدلتا . ولم تكن مهمة هذا المجلس مقصورة على النظر فى القضايا أو الإجراءات المشابهة ، بل كانت تفحص فيه أيضاً التقارير والحسابات المقدمة من موظفى الاقاليم .

---

(١) وخاصة تلك السلطة التى كانت مخولة للموظف القضائى الكبير المعروف باسم Iuridicus . ومن الجائز أن الـ Archidikastês كان هو الآخر مستقلا ببعض السلطات القضائية ، كما كان الحال بالنسبة للـ« Dioikêtês » (وهو موظف مالى) ، والـ« Idios Logos » (مراقب الحسابات الخاصة) ، كل فى المسائل الداخلة فى نطاق اختصاصه . وعن حاكم مصر (praefectus) ، أنظر :
O. W. Reinmuth, «The Prefect of Egypt from Augustus to Diocletian» *(Klio,* Neue Folge, 21, Beiheft), Leipzig, 1935.

وأما عن كبار موظفى الحكومة المركزية فكان من بينهم الـ (Iuridicus) [١]، الذى كان يختار دائماً من الرومان المنتمين إلى طبقة الفرسان، ولا تتبين لنا بصورة واضحة مهام هذا الموظف، لكن من الجائز أنها كانت تتضمن بعض اختصاصات وزير العدل فى العصر الحديث، كما كان من بينهم الـ (Archidikastés)، وهو موظف قضائى آخر، وربما تجوز مقارنته، إزاء ما كان له من سلطة على دار المحفوظات العامة، «بأمين المحفوظات» فى انجلترا [٢]، ومنهم أيضاً الـ (Idios Logos) أو «مراقب الحسابات الخاصة» الذى كان مختصاً بجميع موارد الدخل غير المنتظمة مثل الغرامات والمصادرات والأملاك التى لا أصحاب لها، وكان «الكاهن الأعلى للإسكندرية وسائر مصر» [٣] موظفاً هاماً من كبار الموظفين، ومع أنه لم يكن هو نفسه كاهناً بل موظفاً مدنياً رومانى الجنسية، إلا أنه كان صاحب السلطة العليا على كافة المعابد، والمشرف العام على العبادة والهيئة الكهنوتية، وبواسطته كانت روما تسيطر سيطرة تامة على هذه الهيئة التى كانت تنبعث منها دائماً الحركات القومية، وكان الكهنة مطالبين بأن يقدموا سنوياً لمدير الإقليم (stratêgos) بياناً بأسماء سدنة المعبد وممتلكاته، مع

---

[١] ومعناها اللغوى (القاضى)، ويعرف فى الوثائق اليونانية باسم Dikaíodctês

[٢] ويعرف هناك باسم «Master of the Rolls»، وهو قاضى محكمة الاستئناف المهيمن على بعض المحفوظات العامة.

[٣] ويسمى فى اليونانية
Archiereus alexandreias kai aigyptou pasês.

كشف بحساباته . وكانت الحكومة تقوم بتفتيش المعابد تفتيشاً دورياً ، وتحدد عدد الكهنة فى كل منها . وتفرض على الزائدين عن هذا العدد ضريبة الرأس التى كان الكهنة فى عصر البطالمة معفوين منها . على أن الحكومة كفلت من ناحية أخرى للكنيسة ، إن صح استعمال الكلمة فى هذا المقام ، التمتع بحقوقها وامتيازاتها المحدودة ، ولا نسمع أن الكهنة بدأوا يناوءون الحكم الرومانى مناوءة جدية إلا بعد انقضاء فترة طويلة على الفتح الرومانى .

وفى أواخر عهد البطالمة كانت الحكومة المركزية ، تدعيما لسيطرتها على إقليم طيبه ، قد عينت هناك موظفاً يحمل لقب (epistratêgos) مزوداً بسلطات مدنية وعسكرية واسعة . وراقت لأوغسطس الفكرة فقسم مصر إلى ثلاث مناطق كبرى ، على رأس كل منها (epistratêgos) أو «مدير عام» ، وكانت المناطق الثلاث هى منطقة طيبة (Thebais) ومصر الوسطى (التى سميت رسمياً « الاقاليم السبعة واقليم أرسينويتيس ») والدلتا . ولم يكن لمديرى المناطق الثلاث الذين كانوا دائماً من المواطنين الرومان ، أى سلطة عسكرية ، ولا - فيما يبدو - دخل بالشئون المالية الا فيما ندر ، وانما كانت اختصاصاتهم إدارية بحته ، ومن بينها تعيين الموظفين المحليين.

التمييز بين طبقات المجتمع :

ومن المرجح برغم اعتراضات بعض العلماء أن الاسكندرية كانت قد فقدت قبل نهاية العصر البطلمى . مجلس الشورى (boulê) الذى يعتقد أنه كان موجوداً بها منذ تأسيسها . ومن المقطوع به أن أوغسطس رفض مطلب مواطنى الاسكندرية الخاص بإنشاء مجلس للشورى أو إعادته للمدينة . وطالما أنه لم يستجب لمطالب الاسكندرية ، فلم يكن من المتوقع أن يسمح بقيام مجالس للشورى أو مايشبهها فى عواصم الأقاليم (mêtropoleis) التى وإن كانت فى الغالب بلاداً كبيرة ، إلا أنها ظلت من الناحية الدستورية البحتة ، قرى ضخمة (kômai) . على أن سياسة أوغسطس أدت إلى رفع مركز هذه العواصم . وكانت هذه السياسة تقوم على أساس تقسيم المجتمع إلى طبقات محددة إحداها فوق الأخرى . وهو نظام كان الرومان مولعين به . وقد ساد الاعتقاد فى وقت من الاوقات أن سياسة التمييز العنصرى التى تعزى إلى البطالمة والتى تراخوا فى تنفيذها أثناء الحقبة الأخيرة من عصرهم ، انبعثت من جديد بشكل متطرف على عهد الرومان . وقد رأينا كيف أن هذا الرأى فى حاجة إلى التعديل بالنسبة للعصر البطلمى ، ويبدو أنه لا بد من تعديله أيضاً بالنسبة للعصر الرومانى . كانت الحكومة الرومانية ، وفقاً للرأى القديم ، تميز تمييزاً دقيقاً بين الإغريق بما فيهم المتأغرقين من سكان عواصم الاقاليم المختلطين بغيرهم من الاجناس وبين المصريين

الذين كانوا على حـــد تعبير الرومان بمثابة dediticii [١] ، أى أدنى مرتبة من غيرهم ولا حقوق سياسية محددة لهم ، خاضعين - كرمز لخطتهم - لضريبة الرأس . وقد جادل الدكتور بيكرمان (E. Bickermann) فى صحة هذه النظرية ، وساق من الحجج ما يبدو - فى نظرى - مقنعاً (٢) ، وإن لم يقتنع بها بعد كافة الباحثين . فنى رأيه أن جميع سكان مصر كانوا فى نظر الحكومة الرومانية بمثابة «مصريين» فيما عدا المواطنين الرومان ومواطنى المدن الإغريقية الحرة الثلاث . وأكبر الظن أيضاً ، وإن لم يكن من المؤكد ، من يعرفون باسم katoikoi ، وهم سلالة أرباب الإقطاعات العسكرية بالفيوم . وتؤيد نظريته الأدلة المستقاة من أوراق البردى الخاصة بضريبة الرأس . فقد كانت هناك بلا ريب على عهد البطالمة ضريبة من هـذا النوع تعرف باسم syntaximon ، ولو أن بعض الغموض لا يزال يكتنف طبيعة هذه الضريبة والطوائف الخاضعة لها فى ذلك العصر . ويبدو أن ضريبة الرأس فى الفترة الرومانية (laographia) ، والتى لدينا عنها معلومات أوفر ، كانت

---

[١] ومعناها الذين استسلموا بلا قيد أو شرط بعد الهزيمة ووضعوا أنفسهم تحت رحمة الدولة الرومانية لتفعل بهم ما تشاء .

(٢) أنظر مقاله :
« Beiträge zur antiken urkundengeschichte » *Archiv*, VIII (1927) pp. 216 - 39.
غير أن حجج بيكرمان بالنسبة للعصر البطلمى غير مقنعة كل الاقناع .

صورة معدلة من نفس الضريبة البطلمية القديمة . هذه الضريبة كانت تجبى من جميع الخاضعين لها نقداً ، بمعدل ثابت ، بغض النظر عن الدخل الفردى (١) . وقد أعفيت منها سلالة أرباب الإقطاعات فى الفيوم على ما يرجح ، والمواطنون الرومان بالتأكيد ، ومواطنو المدن الإغريقية الثلاث - فيما عدا يهود الإسكندرية - وكذلك عدد معين من الكهنة فى كل معبد . وأما سائر السكان دون الطبقات التى ذكرناها فكانوا خاضعين لها . ولو أن الحكومة لم تكن تعامل هؤلاء السكان معاملة واحدة . كان سكان الريف يدفعون ضريبة الرأس كاملة . بينما كان مواطنو عواصم الأقاليم (mêtropolitai) يدفعونها مخفضة وبالأحرى يدفعون نصف قيمتها . كما كان الحال بلا ريب فى الفيوم . وربما فى سائر الأقاليم أيضاً . على أن مواطنى عاصمة الإقليم كانوا لا ينتظمون كافة سكانه بل كانو طائفة ممتازة منهم يحتمل أن أوغسطس حددها وفقاً لمستواها المالى ومركزها الاجتماعى ، ثم طالبت هى نفسها فيما بعد بحقها فى الإعفاء من ضريبة الرأس بحجة انتسابها إلى أرباب الإقطاعات الأوائل . ومغزى التفرقة مفهوم ، فقد استهدفت الحكومة الرومانية بذلك تأكيد تفوق الحضارة الهلينية ، والتميز بين الصفوة

---

(١) عن ضريبة الرأس ، أنظر مقالى الذى نشر حديثا :
The *Constitutio Antoniniana* and the Egyptian Poll-Tax », *J.R.S.* XXXVII (1947), pp. 17-23.
[وأنظر أيضا :
V. Tcherikover, « *Syntaxis and Laographia* », *Journal of juristic Papyrology*, IV (1950).]

المتأغرقة المقيمة بالحواضر وبين جموع الفلاحين . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، فكانت هناك تفرقة بين مواطنى العواصم أنفسهم برغم أنهم كانوا جميعاً يدفعون ضريبة الرأس بالفئة المخفضة ، ومعنى هذا أنه كانت هناك صفوة داخل الصفوة ، وهى الطبقة المعروفة باسم « طبقة الجيمنازيوم » (hoi apo gymnasiou) وكانت تتألف من المواطنين الموسرين الذين تلقوا تعليمهم فى معهد التربية (gymnasium) والتحقوا « بمنظمة تدريب الشباب » (ephêbeia) ، وكانوا وحدهم هم اللائقين لتولى المناصب البلدية بعواصم الأقاليم .

الادارة المحلية فى العواصم والقرى :

وكانت هذه المناصب هى الاخرى من الاشياء التى استحدثها الرومان . لقـــد كان الجيمنازيوم أحد المظاهر الخاصة بالحياة الإغريقية ، مثله فى ذلك مثل النادى أو ملعب الكريكيت فى حياة الانجليز ،وحيثما كان يستقر الإغريق على شكل جاليات منظمة ، كان لابد من إنشاء الجيمنازيوم الذى كان مركزاً عالياً للتربيه ، البدنية منها والثقافيه ، وكان مرتبطا أشد الارتباط بمنظمة تدريب الشباب ، التى كانت بالنسبة للشاب الإغريقى شرطاً جوهريا لإدراج اسمه فى قائمة المواطنين أو فى الجالية (politeuma) ،وهى تلك الهيئةالاجتماعية السياسية التى استعاض بها كثير من الإغريق المستوطنين فى مصر

عن المدينة الحرة . وقد انشئت على أيام البطالمة كثير من معاهد التربية حتى فى القرى حيثما كان يوجد عدد كاف من الإغريق المستوطنين . غير أن هذه المعاهد كانت خاصة ، ويبدو أن أوغسطس ألغى ما كان موجوداً منها فى القرى . ولكنه منح المعاهد الكائنة بعواصم الأقاليم ومديريها (gymnasiarchai) صفة رسمية . كما أنشأ إلى جانب ذلك مناصب بلدية أخرى ، أقتبست أسماؤها واختصاصاتها من أنظمة المدن الإغريقية الحرة . مثال ذلك منصب الـ exêgêtês صاحب الاختصاصات الإدارية المتنوعة ، سيما ما يتعلق بالأوضاع القانونية ، والـ kosmêtês ، الذى كان مختصا بكل ما يتصل بمنظمة تدريب الشباب . والـ archiereus ، الكاهن الأعلى ، المهيمن على الشئون الدينية . والـ hypomnématographos " أمين السجلات " والـ agoranomos " مراقب السوق العامة " الذى أنيط به أيضاً توثيق العقود ، والـ euthêniarchês " مراقب التموين " . وكان هؤلاء الموظفون (archontes) فى أول الأمر مستقلين أحدهم عن الآخر ، وكل منهم مسئولا عن اختصاصاته وحدها . لكن بمضى الزمن ، وقبل نهاية القرن الثانى بكل تأكيد ، أصبحوا يؤلفون لجنة (koinon) كانت بمثابة نواة لمجالس الشورى التى أنشأها الإمبراطور سبتيميوس سفيروس (Septimius Severus) . كما كان يوجد بكل عاصمة من عواصم

الأقاليم ما يشبه الجمعية العمومية للمواطنين (١) . وهكذا اكتسبت هذه العواصم برغم أنها لم تكن مدناً حرة (poleis) بالمعنى المفهوم لدى الإغريق ، ولا بلاداً متمتعة بالحكم الذاتى (municipia) بالمعنى المفهوم لدى الرومان ، اكتسبت على عهد هؤلاء نظاما شبيهاً بنظام البلديات .

وكان يوجد فى مصر البطلمية نظام القيد أى إدراج أسماء السكان فى قوائم . فأدخل الرومان نظام التعداد المنتظم ، الذى كان يجرى مرة كل أربع عشرة سنه ، وكان يعرف باسم « التسجيل المنزلى » (apographê kat'oikian) ويتضمن إحصاء المنازل وكذلك الأشخاص . وكان المالك فى بعض الأقاليم أو مستأجر المنزل فى بعض الأقاليم الأخرى ، مطالبا بتقديم إقرار مؤيد بالقسم عن منزله وجميع سكانه، على اختلاف أعمارهم وأحوالهم ، إلى لجنة معينة لهذا الغرض . وعلى أساس هذه الإقرارات كانت السلطات تعد كشوف التعداد (tomoi) التى تحتوى على سجل واف بأسماء جميع السكان . وكانت شهادات الوفاة والميلاد تستعمل فى الفترة الواقعة بين تعداد وآخر لتصحيح البيانات

---

(١) عن المناصب البلدية وطريقة الاختيار لها ، أنظر :
A.H.M. Jones, « The Election of the Metropolitan Magistrates in Egypt », *J.E.A.* XXIV, pp. 65-72.
وعن مدير معهد التربية ، انظر البحث التالى :
B.A. van Groningen, *Le gymnasiarque des métropoles de l'Egypte romaine,* Groningen, Noordhoff, 1924.

الوارده بهـــذا الكشوف وجعلها متمشية مع الواقع (١) . وكان التسجيل فى طبقة من الطبقات الممتازة يتم بعد فحص مستندات الطالب (epicrisis) التى يتقدم بها أبواه عادة عند بلوغه سن الرابعة عشر (وهى السن التى يبدأ عندها دفع ضريبة الرأس) للجهات المختصة على صورة إقرار يتضمن ما يثبت أنه من سلالة أجداد ينتمون إلى هذه الطبقة .

وقد أنشأ الرومان أيضاً إلى جانب دور المحفوظات المركزية بالإسكندرية دوراً أخرى لحفظ السجلات الرسمية فى جميع عواصم الأقاليم . وقد انقسمت هذه الدور فيما بعد فى أوقات تختلف باختلاف الأقاليم الى اثنتين، أولاهما «دار المحفوظات العامة» (bibliothêkê dêmosion) التى كانت مختصة بحفظ جميع الأوراق الرسمية ، كالمكاتبات ، وكشوف الضريبة . وسجلات الأراضى . وقوائم التعـــداد ، وما إلى ذلك . والأخرى هى «دار التسجيل العقارى» (bibliothêkê dêmosion logôn) المختصة بتسجيل الأراضى والمنازل (وكذلك العبيد). وكانت الإقرارات

---

(١) يشك بعض العلماء في أن هذه الاقرارات كانت اجبارية . فقد كان تسجيل الوفيات من الامور التى يمكن تركها لاسرة المتوفى فتقوم به من تلقاء نفسها ، لان الشخص كان يبقى خاضعا لضريبة الرأس مابقى اسمه مدرجا فى قوائم دافعى الضريبـة . لكن انعدام المصلحة كان لايغرى على تسجيل المواليد ، على الاقل بالنسبة لمن هم غير معفون من الضريبة ، مما يرجح أنه كان اجباريا فى هذه الحالة . ومع هذا فالامر غير مؤكد .

وغيرها من العقود المرسلة الى هاتين الدارين تلصق أطرافها بعضها بالبعض الآخر فتكون منها «كشوف جامعة» ، كما كانت تعد فيهما كشوف أخرى تتضمن «مستخلصات الوثائق» ، وغيرها تحتوى على «قوائم بعناوين الوثائق» . وكانت الكشوف ترتب غالبا ترتيبا أبجديا حسب الحروف الأولى من أسماء أصحاب المستندات . كما كانت «أعمدة الكشوف» ترقم لتسهيل الرجوع إليها . (١)

وفيما عدا ذلك بقيت الحال على ما كانت عليه فى عصر البطالمة ، إذ احتفظ الرومان بتقسيم البلاد القديم إلى أقاليم ، على رأس كل منها «مدير» . ولو أنهم جردوه من جميع اختصاصاته العسكرية . وكان يعاونه ، «كاتب ملكى» . وظل الجانب الأكبر من الأراضى الجيدة يؤلف الأراضى العامة ، ويحمل نفس الاسم القديم وهو «الأراضى الملكية» ، كما ظل اسم «الأراضى المقدسة» يظهر فى سجلات الأراضى ، ولو أن جانباً كبيرا منها صادرته الحكومة عقب الغزو ، كما وضعت المعابد تحت رقابة

---

(١) هناك بحوث كثيرة عن هذين الدارين ، وخاصة «دار التسجيل العقارى» ، أنظر مراجع الفصل العاشر فى :
(*C.A.H.* X, pp. 927 - 8) تحت عنوان « The Document » ولا سيما كتب von Woess. Preisigke, Lewald, Eger عن الموضوع .
[ويسمى الكشف الجامع « synkollêsimon » ، والمستخلص « eiromenon » ، وقائمة العناوين « anagraphê » والعمود (أى الصفحة) «selis» وكان الترقيم بالحروف الابجدية اليونانية]

أشد مما كانت عليه فى أواخر عصر البطالمة . وأما « أراضى الهبات » البطلمية . فكانت تقابلها بعض الضياع الكبيرة (ousiai) التى منحها الأباطرة فى صدر العصر الرومانى لأعضاء من الأسرة المالكة ، أو لنبلاء من الرومان ومواطنى الإسكندرية ، ولكن سرعان ما أدمجت هذه الضياع الواحدة تلو الأخرى ، عن طريق المصادرة أو غيرها من الطرق ، فى أملاك الامبراطور الخاصة (patrimonium) ، التى أصبحت من ذلك الحين تؤلف قسما خاصا من الأراضى يسمى « أراضى الضياع » (gê ousiakê) ، ووضعت تحت إشراف ناظر خاصة الإمبراطور (procurator) . وأما أراضى الاقطاعات العسكرية (gê klêrouchikê) التى أصبح أربابها وقتئذ يمتلكونها تملكا تاما ، فكانت لاتزال تؤلف قسما منفصلا ، ولو أن الحكومة أوقفت منحها للعسكريين . وقد شجع الرومان ملكية الأراضى الخاصة فزادت مساحتها ، لأن الرومان كانوا يفضلون إرساء الجهاز المالى والإدارى على عاتق سكان يملكون عقارا ثابتا ، يكفل اضطلاعهم بالمسئوليات ، ويضمن تحصيل التعويض منهم فى حالة حدوث عجز أو تقصير . وقد صادرت الحكومة الرومانية جانباً كبيراً من الأراضى على أثر الغزو ، وباعت بعضها بالمزاد ، بينما عرضت الاراضى المهجورة أو غير الجيدة للإيجار بشروط مرضيه حتى تغرى الناس على استئجارها واستصلاحها للزراعة .

هكذا كانت الحال فى مصر الرومانية بوجه عام : حكومة مركزية

قوية . ذات جهاز إدارى واضح المعالم ، تسندها قوات عسكرية كافية لحفظ الأمن الداخلى وصد إغارات البدو من الصحراء ، ونظام بيروقراطى محكم حافل بالسجلات والرقابات . ومجتمع هرمى الشكل منقسم إلى طبقات ممتازة وغير ممتازة . وتفرقة فى المعاملة بين المتأغرقين من سكان العواصم وبين جمهرة الأهالى المصريين من سكان الريف .

الاثر المباشر للفتح الروماني :

وعندما تحل حكومة قوية قديرة لا تنقصها النزاهة محل حكومة ضعيفة فاسدة يستتبع ذلك حتما أن تزداد على الفور درجة الرخاء . ومهما قيل عن أحوال مصر على أيام كليوبتره ، فما لاشك فيـــه أن الحكومة خلال الشطر الأكبر من عصر البطالمة الأواخر ، كانت حكومة عاجزة متخاذلة . فقد خربت الحروب الأهلية المتصلة مساحات واسعة من الأراضى ، وركدت التجارة ، وتعطلت الصناعة ، وانهار نظام الرى بسبب الإهمال . ولكن الحكومة الرومانية ، بعد أن أخمدت لهيب الثورة العنيفة التى اندلعت فى أقليم طيبة على أثر ظهور جباة الضرائب الرومان هناك ، أعادت الأمن إلى نصابه ، وأمنت الحدود من خطر الغزو . وقد راجت التجارة الخارجية رواجا كبيراً بدخول مصر فى نطاق الإمبراطورية الرومانية ، وخاصة بعد تطهير البحر المتوسط من القراصنه ، وهى خدمة من أجل خدمات

العصر الامبراطورى ، وأدى اكتشاف الرياح الموسمية ، الذى يرجح أنه تم فى أوائل العصر الرومانى(١) ، إلى نشاط التجارة مع الهند والشرق نشاطا ملحوظاً . كما عهد أوغسطس إلى جنوده فى مصر بمهمة اصلاح قنوات الرى وتعميقها ، وترتب على ذلك ، كما يقول استرابون (Sirabon) (٢) ، أنه بينما كان المحصول الوفير يتطلب قبل الفتح الرومانى ارتفاع منسوب ماء النيل إلى ١٤ ذراعاً ، وكان ارتفاعه إلى ٨ أذرع معناه المجاعة ، ، صار ارتفاعه إلى ١٢ ذراعاً على عهد الرومان يأتى بمحصول وفير جدا ، ولم تكن البلاد تشكو قلة المحصول حتى عندما كان منسوبه يبلغ ٨ أذرع .

لكن إذا استندت حكومة قديرة إلى نظرية فاسدة ، فإن مقدرتها

---

(١) قارن ، مع هذا ، ص ١٠٢ حاشية ١ من الفصل الثانى .

(٢) XVII, 788.

[واسترابون مؤرخ وجغرافى (٦٤/٦٣ ق.م. – حوالى ٢١ م .) وهو اغريقى تجرى فى عروقه دماء آسيوية ، ولد فى بلدة أماسيا (Amasia) بأقليم بونطس (Pontus) بآسيا الصغرى ، وعاش فى روما مابين ٤٤ . ٣٥ ق.م. ، وزار مصر مابين ٢٥ ، ١٩ ق.م. حيث جمع معلومات جغرافية لكتابة مؤلفه ، وقد عاد الى وطنه الاصلى فى ٧ ق.م. حيث توفى هناك . وكان استرابون من الرواقيين ومن المعجبين بالرومان والامبراطورية . ولم يبق لنا من مؤلفاته سوى «الجغرافيا» – وهى فى الواقع جغرافيا تاريخية وفلسفة للجغرافيا – وتقع فى ١٧ كتابا ، يتناول الاخير منها مصر ، ويجده القارىء مترجما الى العربية فى كتاب « استرابون فى مصر » **لوهيب كامل** (القاهرة ١٩٥٣)]

هذه قد تجعلها بمرور الزمن أكثر ضررا للبلاد من حكومة أقل منها كفاية . وهـذا ما حدث بالفعل . فليس بين المؤرخين من لم يعجب بروما ، تلك المدينة الإيطالية الحرة ، التى أنشأت امبراطوية أوسع رقعة وأطول بقاء وأكفأ ادارة من أى امبراطورية أخرى ظهرت فى عالم البحر المتوسط من قبل . والتى كفلت فى كافة أرجاء ممتلكاتها طوال قرون عدة سهولة فى المواصلات ، ووحدة فى الثقافة لم يشهد العالم مثلها ثانية إلا فى العصر الحديث . وجدير بنا ـ نحن الغربيين ـ أن نعترف دواما بجميل تلك الدولة التى نشرت المدنية فى غرب أوربا ، واستنت هناك تقاليد الأمن العام والحكم الذاتى . تلك التقاليد التى قدر لها أن تعمر بعد زوال الإمبراطورية نفسها ، وأن تنبت فى تربتها الحريات العامة التى تنعم فى ظلالها . بيد أن روما كانت أقل توفيقا فى الشرق ، حيث اتصلت بحضارة أعرق من حضارتها وأرقى .

سياسة الاستغلال وبداية التدهور :

ان تاريخ مصر الرومانية قصة محزنة من قصص الاستغلال الذى يدل على قصر النظر وينتهى حتما بالانهيار الاقتصادى والاجتماعى . وقد سبق أن أشرنا الى فساد النظرية القائلة بمعاملة الأمة على أنها مجرد ضيعة تستغل لصالح الحكام . ومهما قيل عن اساءة بعض الملوك البطالمة الأواخر إدارة ضيعتهم ، فقد كان معظم الثروة الناتجة عن هذه الضيعة

يبقى على الأقل فى مصر . ولكن روما كانت مالكا متغيباً . فكان معظم القمح المحصل كإيجارات من مزارعى الأراضى الملكية أو كضرائب من ملاك الأراضى . يرسل إليها مع الضرائب النقدية العديدة لينتفع به الشعب الرومانى فتخسره مصر تماماً . ولم يكن سبب ذلك أن الأباطرة كانوا يضمرون لمصر نوايا سيئة. فكثيراً ماحذروا المسئولين من مغبة اغتصاب أموال الأهالى . وقد قيل إن الإمبراطور تيبيريوس عنف حاكما أرسل إليه حاصل الضريبة زائداً عن النصاب السنوى . وذكره بأنه إنما ولى على مصر ليجز صوفها لا ليسلخ جلدها . ولدينا أمثلة وردت متفرقة فى أوراق البردى تشير إلى أن السلطات كانت فى بعض الحالات الفردية تعامل الناس معاملة مشربة بروح الإنسانية(١).

---

(١) لاينصف رستوفتزف الرومان كل الانصاف حين يقول عنهم فى موسوعة (C.A.H. VII, p. 154) : « ونسمع بين الفينة والفينة فى مراسيم بعض الاباطرة هذه النغمة ، نغمة العطف على المصريين) ، لكن فيما عدا ذلك . ننتقل بمجىء الحكام الرومان الى عهد لايسمع فيه صوت الشفقة » . فالى جانب « بعض الاباطرة » (وعلى الاخص هادريان) . نجد من وقت لآخر بين قرارات الحكام أو غيرهم من المسئولين ماينم عن روح انسانية . ولعل أروع مثل على ذلك هو تغاضى تيتيانوس (Titianus) ، حاكم مصر ، عن القانون المصرى القديم الذى يخول للاب فصل ابنته عن زوجها ، اذ قضى ذلك الحاكم بما يتمشى مع رغبة الابنة لا القانون الذى يجافى روح الانسانية (انظر (P. Oxy. II 237, vii, 34 . كان الاب يطالب بحق مشروع لايقبل الجدال . غير أن تيتيانوس توخى فى حكمه مبدأ العدالة لانه رأى أن القانون غير انسانى (apanthôpos) . ومع هذا فقد كان الحكم الرومانى متسما بوجه عام ، من الناحية المالية والادارية ، بروح استغلالية تفوق التصور .

غير أن النوايا الحسنة كانت عديمة الجدوى طالما كانت الحكومة متمسكة بنظريتها الأصلية وهى أن مصر بقرة ينبغى حلبها لصالح روما. وليس ثمة شك فى أن البقرة كانت حلوباً . ولكن روما دأبت على استدرار لبنها حتى استنزفته . ويكفينا فى هذا الصدد أن نلقى نظرة على بردية برلين المشهورة باسم Gnomon ، أى القواعد المالية لمراقب الحسابات الخاصة (Idios Logos) ،أو ندرس قوانين تأجير الأراضى أو جباية الضرائب . لندرك مدى إصرار الحكومة على مطالبة مزارعيها بأعلى الإيجارات . فى الوقت الذى لا تجزيهم عن مجهودهم الطويل الشاق إلا بأدنى الأجور . ولم تكن السلطات تعالج كل أزمة أو مشكلة مستجدة بإصلاح النظام إصلاحاً جوهرياً مما كان وحده كفيلا باستئصال الداء ، وإنما بالإلتجاء إلى إسعافات مؤقتة تعود بعدها إلى الأمعان فى سياسة الإكراه . وكان صالح الخزانة يتقدم دائماً على غيره من الصوالح : فلا يجوز أن يتم شىء أو يرخص بأى امتياز قد يؤدى إلى عجز فى الإيراد . وكان ضحايا هذا النظام يعلمون ذلك جيداً ، ويدركون أن صالح الخزانة هو الوتر الحساس الذى يستطيعون الضرب عليه باطمئنان ، عندما يرفعون شكاواهم إلى المسئولين . لقد كان الجهاز كله يقوم على أكتافهم ، فلو قصر أحد من المكلفين بخدمة إلزامية فى أدائها ، أو إذا هجر مزارع مثقل بالضريبة أرضه ، لعاد ذلك بالضرر على الخزانة . ولذلك كانت أربح ورقة فى يد هؤلاء البؤساء هى التهديد بعدم التعاون ، وبهذا التهديد

كانوا يختتمون دائماً شكاواهم المرفوعة إلى المسئولين . وتتردد هذه النغمة منذ عهد نيرون (Nero) فى الشكوى التالية على لسان جباة ضريبة الرأس فى بعض قرى الفيوم « هناك إذن خطر من أن نضطر بسبب عدم مقدرتنا المالية إلى التخلى عن تحصيل الضرائب »(١). وبمرور الزمن أصبحت هذه النغمة مألوفة فنسمعها على لسان امرأة ألزمت خطأ فى عام ١٨٠ م . بخدمة إجبارية « إننى فى خطر بسبب ذلك من أن أضطر إلى الرحيل عن محل إقامتى »(٢)

والواقع أن هذه البوادر المنذرة بالشر ظهرت قبل منتصف القرن الأول الميلادى . وينقل إلينا فيلون (Philon) . الفيلسوف اليهودى . الذى عاش فى عصر الإمبراطورين كاليجولا (Caligula) وكلوديوس (Claudius) صورة مؤثرة عن الأحوال المعاصرة له . يحدثنا فيلون عن جباة الضرائب الذين لا يتورعون حتى عن الحجز على جثة الشخص الذى قصر فى أداء الضريبة لإرغام ذويه على دفع المتأخر عليه . ويحدثنا عن زوجات وأطفال وأقارب آخرين يزج بهم فى السجن ويسامون سوء العذاب للإرشاد عن مكان اختفاء أحد الهاربين . وعن قرى بأسرها . بل بلاد أقفرت من سكانها (٣).

---

(١) SB. 7462

(٢) P. Tebt. II 327 = W. Chrest. 394.

(٣) *De Spec. Leg.* II, 92 ff. ; III, 159 ff. ، قارن ايضا : P. Oxy. II, 284-85 ; 393-4.

وكان من الجائز لنا ، طالما لم يكن لدينا من الأدلة ما يؤيد فيلون ، أن نعتبر كلامه ضرباً من التهويل البلاغى ، بيد أن الوثائق التى وجدناها فى مصر . تعزز كلامه فى جملته . فمنذ عام ٢٠ م. ، أى منذ فجر العصر الرومانى، نسمع عن فرار (anachôrêsis) المطالبين بدفع الضرائب [١] كما نسمع على لسان جباة ضريبة الرأس من ست قرى بالفيوم فى بردية مكتوبة بين عامى ٥٥ ، ٦٠ م. « إن سكان القرى المذكورة ، بعد أن كانو كثرة ، قل عددهم حتى غدوا حفنة من الأفراد . لأن البعض لاذوا بالفرار ، لانقطاع مواردهم ، والبعض الآخر ماتوا دون أن يتركوا أقارب» [٢] . ولدينا فوق ذلك أيضاً القرائن المستمدة من المنشور الذى أصدره تيبيريوس يوليوس الإسكندر (Ti. Iulius Alexander) ، ابن أخت فيلون ، الذى ارتد عن اليهودية والتحق بالجيش الرومانى برتبة ضابط ونصب حاكما على مصر من سنة ٦٦ إلى ٦٩ م . نحن لا ننكر أن هذا المنشور - كما يرى بعض الباحثين - ربما كان الغرض منه هو الدعاية لصالح الحزب المناوىء للامبراطور نيرون ، وأن حاكم مصر الذى كان من أنصار فسپاسيان (Vespasianus) [٣] ، خصم الإمبراطور ، قد تعمد تهويل

(١) P. Oxy. II, 251 - 3.

(٢) SB. 7462

(٣) تنقل الينا الوثيقة (P. Fouad, 8) برغم أنها لسوء الحظ مهلهلة جدا ، صورة ممتعة عن مظاهرات حدثت فى الاسكندرية ترحيبا بفسباسيان ، واسم الحاكم مذكور فى السطرين ١٧ ، ١٨ ، وفيما يحتمل فى سطر ٢ أيضا .

الشرور الموجودة ، غير أن المظالم المشار إليها فى المنشور ، والشكاوى التى يزعم أنها رفعت إليه بشأنها ، والتدابير التى وعدت الحكومة باتخاذها للقضاء عليها ، محددة تحديداً لا يدع مجالا للشك فى أن الوثيقة تمدنا بدليل صادق على ارتكاب السلطات مخالفات بالغة الخطورة . فنسمع عن أشخاص يكرهون على التعهد بالتزام جباية الضرائب وعلى استئجار الأراضى العامة (وهذه النقطة تؤيدها الوثائق البردية كل التأييد) . وعن وشاة لا هم لهم سوى التبليغ عن المتهربين من دفع ما فى ذمتهم « لمراقب الحسابات الخاصة » . وعن فلاحين فى شتى أنحاء البلاد مرهقين بضرائب جديدة غير مشروعة [1] .

مبدأ الالزام :

ويبدو أن التدابير التى اتخذها تيبيريوس يوليوس الإسكندر كانت ناجعة ، لأنه ليس من باب المصادفة وحدها ، فيما يرجح، ألا تتضمن وثائق النصف الثانى من القرن الأول الميلادى سوى إشارات طفيفة عن وقوع اضطرابات خطيرة . لكن السلطات الرومانية ابتكرت نظاما اداريا ترتبت عليه أوخم العواقب . لقد كانت البيروقراطية البطلمية مهنية فى جوهرها ، يزاول فيها الناس حرفهم بمحض اختيارهم، فكانت جباية الضرائب تعهد الى ملتزمين يتقدمون بعطاءاتهم مختارين ،

---

(١) انظر :
H.I. Bell, « The Economic Crisis in Egypt under Nero », *J.R.S.* XXVIII, pp. 1 - 8.

وكان مزارعو الأراضى الملكية ، برغم تقييد حريتهم فى التنقل ، يتقدمون من تلقاء أنفسهم بطلبات استئجار الأراضى . صحيح أن الحكومة البطلمية كانت لاتتردد عندالأزمات فى تجنيد الأشخاص اللائقين لتولى الوظائف ضد مشيئتهم ، أو فى ارغامهم على تحرير عقود بالتزام جباية الضرائب ، أو فى اجبار الفلاحين على استئجار الأراضى الملكية . ولكن هذه كانت حالات استثنائية . فلما جاء الرومان أبقوا فى أول الأمر على النظام البطلمى ، بيد أنهم أخذوا يطبقون بالتدريج خلال القرن الأول الميلادى مبدأ جديد وهو مبدأ «الإلزام» [leitourgia] ، وهى كلمة مأخوذة عن نظم المدن الإغريقية الحرة ، حيث كان المواطنون الأثرياء ملزمين بتأدية بعض الخدمات العامة كتمويل الجوقات المسرحية فى الأعياد [chorêgia] ، وتجهيز السفن الحربية [trierarchia] وقد طبق هذا المبدأ فى مصر بالتدريج أولا فى حالة الوظائف المحلية الصغيرة ، وبعدئذ فى حالة المناصب الكبيرة ، فكانت السلطات ترغم الأشخاص اللائقين على شغل وظائف عامة معينة ، كوظيفة شيخ القرية وكاتب القرية والخفير والموظف المالى ومحصل الضريبة (عندما حل نظام التحصيل المباشر محل الالتزام بالنسبة لمعظم الضرائب) . وكان الملزمون بتولى هذه الوظائف يتقاضون بعض مرتبات عنها فيما

يرجح (١) ، ولو أن معلوماتنا عن هذا الموضوع طفيفة جداً وعلى أى حال فلم تكن المرتبات كافية لسد النفقات التى تتطلبها الوظائف ، هذا فضلا عن أن الموظفين كانوا مسئولين بأشخاصهم وأملاكهم عن كل مايحدث من عجز أوخسارة مالية. وقد عمم مبدأ الإلزام فانتشر كالوباء فى جميع مرافق الإدارة ، فيما عدا المراكز العليا ، وطبق بمرور الزمن حتى فى حالة المناصب البلدية التى كانت من الوجه النظرية ، مناصب اختيارية ، وشرفا يطمع فيه الناس (فقد كانت تسمى فى اللاتينية (honores) للتفرقة بينها وبين الخدمات الإلزامية المسماة (munera)) . هذا النظام الذى طبق بمنتهى الدقة، انتهى بالقضاء أولا على طبقة الفلاحين الميسورة . وبعدئذ على الطبقة المتوسطة الأكثر يسارا (٢) . ولم يقف الإرغام عند هذا الحد . فقد كانت شروط استئجار الأراضى العامة مجحفة . وامتيازات التزام جباية الضرائب أو مزاولة غيرها من الأعمال فى وقت الضائقات المالية مشوبة بروح التقتير الشديد، إلى حد أنه أصبح من المتعذر أن تجد الحكومة فى كثير من الأحيان من يتقدم لها بعطائه مختارا . وعندئذ كانت تلجأ إلى الإرغام . وكانت إحدى

---

(١) هذا مايفهم قطعا من وثيقة مثل (P. Harris 64) ، لكن بما أن المرتب المذكور هو مرتب شخص قائم بالعمل نيابة عن آخر . فالدليل المستمد من الوثيقة غير قاطع . ولدراسة موضوع «الخدمات الالزامية » بوجه عام ، أنظر :

F. Oertel, *Die Liturgie*. Leipzig, 1917.

(٢) أنظر ص ٢٣٣ حاشية ٢ فى الفصل الرابع .

وسائلها فى هذا الصدد الإجراء المعروف باسم (epimerismos) ، ومعناه أن ترغم قرية من القرى على زراعة الأراضى غير المستأجرة الكائنة فى قرية أخرى . وتوزع مسئولية زراعتها بالقرعة بين أهالى تلك القرية. وكانت وسيلتها الأخرى هى الإجراء المعروف باسم (epibolê) ، ومعناه أن تلحق قطعا من الأراضى العامة بالأراضى الخاصة وترغم أصحاب الأخيرة على زراعة الأولى مع أراضيهم سواء بسواء . وهكذا اختفت معظم الأراضى العامة آخر الأمر فى العصر البيزنطى باندماجها فى الأراضى الخاصة التى كانت تلحق بها (١) . وبمقتضى الإجراء الأول (epimerismos) كانت القرية كلها مسئولة عن الزراعة ، وتبعاً لذلك مسئولة أيضاً (وهو ما يهم الحكومة) عن دفع الضرائب المستحقة ؛ وبمقتضى الإجراء الثانى (epibolê) كانت المسئولية فردية ، لكن بمرور الزمن ، كما يقول فيلون ، صارت جماعية ، فإذا فرّ أحد مطالب بدفع الضريبة ، يلتزم أهالى قريته بسدادها عنه متضامنين ، واذا عجز مستأجر أو مالك عن الوفاء بالتزاماته أو اختفى عن الأنظار ، يلقى عبء زراعة أرضه على الآخرين . وفضلا عن ذلك فإن المكلفين بترشيح غيرهم سواء للخدمات الإلزامية (munera) أو للمناصب

---

(١) انظر على سبيل المثال :
H.I. Bell, « An Epoch in the Agrarian History of Egypt ». *Recueil Champollion*, Paris, 1922, pp. 261 - 71.

البلدية (honores) . كانوا يعتبرون ضامنين لمرشحيهم ، بل كانوا أنفسهم مسئولين عن أى عجز مالى يتسبب فيه هؤلاء . وهكذا بالتدريج بدأ الفرد يحس على مر السنين بأنه حبيس فى شبكة ضيقة الثغرات لا يستطيع منها فكاكا .

الثقافة والتعليم :

ولم تتضح جميع آثار هذا النظام فى أول الأمر . وما لدينا من قرائن يشير فى جملته إلى أن معظم أنحاء مصر كانت تتمتع بدرجة لا بأس بها من الرخاء فى القرن الأول الميلادى . وأما مظاهر الأزمة الحادة التى ألمعنا إليها فكانت أكبر الظن مؤقتة أو محلية . ويميل بعض الكتاب ، حتى بالنسبة إلى القرن الثانى الذى أخذت الحالة تسوء فيه تدريجياً ، إلى المغالاة فى تصوير حلكته . لكن ينبغى ألا ننسى أنه قد تعاقب على العرش فى الشطر الأول من ذلك القرن بعض الأباطرة الأكفاء المستنيرين ، وكان من بينهم هادريان (Hadrianus) الذى اشتهر بالذات بعطفه على رعايا الولايات . وقد ارتفع بفضل جهود هؤلاء الأباطرة مستوى الكفاية والعدالة فى الأداة الحكومية . ولا يتبين من المخلفات الأثرية ، كتلك التى وجدتها جامعة ميشيجان (Michigan) أثناء قيامها بالحفريات المنظمة فى قرية كرانس Karanis [كوم أوشيم] بالفيوم ، أى تدهور ملموس فى مستوى

العمارة أو فى رواء الحياة الاجتماعية قبل أواخر القرن الثانى ، فدب النشاط بصورة واضحة فى المجالس البلدية بعواصم الأقاليم وظل لواء الثقافة الهلينية مرفوعاً . وقد أظهرت الاكتشافات فى اكسيرينخوس ، التى لم تكن مدينة إغريقية بل مجرد عاصمة للإقليم، أنه كان فى متناول قرائها عدد ضخم من المؤلفات المتنوعة فى الأدب الإغريقى الكلاسيكى بصورة تبعث على الدهشة . كانت أشعار هوميروس ، وهى الكتاب المدرسى الرئيسى فى التعليم الإغريقى ، منبثة بداهة فى كل مكان ، ولا ينبغى أن ندهش لوجود قصائد هيسيود (Hesiodus) [١] ، لكن المثير للدهشة حقا هو أن نجد ، بالإضافة إلى المؤلفات التى قدر لها البقاء إلى ما بعد العصور الوسطى ، وأغانى سافو وروايات مناند

---

[١] شاعر أخلاقى تاريخه غير معروف وان كان يرجح أنه عاش بعد هوميروس فى القرن السابع ق.م. وفد من أيوليس (Aeolis) بآسيا الصغرى الى بلدة اسكرا (Ascra) باقليم بيوتيا (Boeotia) ببلاد الاغريق . وقد بدأ حياته بنزاع مع أخيه برسيس (Persês) فى الميراث الذى حاول الاخير بتقربه الى الحكام أن يحصل على أكثر من نصيبه فيه . ومن أشهر مؤلفاته « الاعمال والايام » وهى قصيدة يندد فيها الشاعر بجور النبلاء وتعسف الحكام مع صغار الفلاحين ، ويحث فيها هؤلاء على العمل المضنى ، ويورد فيها الى جانب ذلك كثيرا من الارشادات والحكم والامثال . وشعره كشعر هوميروس من الوزن السداسى الوحدات (hexameter) ، الذى تتألف فيه الوحدة (metron) من مقطع طويل يليه مقطعان قصيران (dactylus) أو من مقطعين طويلين (spondeus)

Menander [١] وقصائد كاليماخوس ، التى كان معظمها قد ضاع وقتئذ ولو أنها كانت معروفة للقراء فى القرون الأولى الميلادية ، من المثير للدهشة أن نجد كثيراً من المؤلفات التى كان بعض علماء اليوم قد تعجلوا فى الحكم بأنها لم تكن متداولة فى ذلك الوقت . ومن بينها أجزاء من قصائد الشعراء الغنائيين وروايات الكتاب المسرحيين الأوائل . « كأناشيد الشكر » وغيرهامن المنظومات لپندار والشعراء المعاصرين . وروايات آيسخيلوس المفقودة (التى يمكن أن نتبين أثر حوالى ٤٠ منها) فضلا عن روايات أخرى لسوفوكليس ويوريپيديس وأرسطوفان . ومقتطفات من الشعر المليامبى والخوليامبى [٢] . ومن الواضح أنه كان

---

[١] شاعر مسرحي من أثينا (٣٤٢ ـ ٢٩١ ق٠م٠) ، ويعتبرامام الكوميديا المعروفة باسم « الكوميديا الجديدة » التى ازدهرت منذ صدر العصر الهلينستى ٠ وبرغم غزارة انتاجه فليس لدينا روايه واحدة كاملة من رواياته التى بلغت المائة ٠ وبفضل البرديات المكتشفة فى مصر أصبح لدينا الآن اجزاء كبيرة من أربع روايات له وهى (التحكيم) ، (فتاة ساموس) ، (مقصوصة الشعر) ، و (البطل) ٠ وتتميز كلها بالفكاهة ، وبراعة تصوير الشخصيات، وسهولة الاسلوب ، وعدم التكلف ، وبساطة اللغة التى تقرب أحيانا من اللغة الدارجة (koine) ، وتعطينا صورة صادقة عن الحياة اليومية والاحوال الاجتماعية فى عصره ٠ وقد حاكاه كتاب المسرح الرومان أمثال بلاوتوس (Plautus) وترينتيوس (Terentius) ، وكان له أثر كبير على كتاب القرون الحديثة مثل موليير ٠

[٢] عن الشعر المليمابى ، أنظر ص ٢٠ حاشية ١ ٠ وأما الخوليامبى (choliambus) فهو ضرب من الوزن الايامبى غير أن آخر وحدة فيه مكونة من مقطعين طويلين (Spondeus) بدلا من مقطع قصير يليه مقطع طويل (iambos)

فى وسع المقيم بأكسيرينخوس وربما أيضا بجهات أخرى من مصر ، أن يحصل على مجموعة كبيرة من المؤلفات التى لم يصلنا منها سوى جانب ضئيل . ولا ريب فى أنه كان هناك جمهور كبير من القراء ، وتجارة رائجة فى الكتب. ولدينا خطاب بردى طريف نشر من عهد غير بعيد(١)، ينقل إلينا طرفا ممتعا من حياة جماعة من هواة الكتب فى أكسيرينخوس

---

(١) أنظر : P. Oxy. VIII, 2192 ، والترجمة للاستاذ الذى نشر البرديه . لم يرد لكتاب هوبسيكراتيس ذكر فى أى مكان آخر ولم يكن ثرساجوراس معروفا من قبل . أنظر أيضا :

H.I. Bell, « The *Thyestes* of Sophocles and an Egyptian Scriptorium », *Aegyptus* II, pp. 281 - 8.

وقد ورد فى كتالوج احدى المكتبات التى يجد القارىء نبذا منه منشورة فى مقالى سالف الذكر ، اسم رواية بلوطس « Plutus » لارسطوفان ، وأسماء غيرها من المؤلفات ، الى جانب رواية « ثويستيس » الثالثة . وقد نشرت القصاصة البردية كلها التى يرجح أنها من أكسيرينخوس ، فى المقال التالى :

K. Ohly, *Stichometrische Untersuchungen* (Leipzig, 1928), pp. 88 - 9.

وعن المؤلفات الادبية التى كانت فى متناول القراء فى أكسيرينخوس، أنظر :

Sir F.G. Kenyon, « The Library of a Greek of Oxyrhynchus », *J.E.A.* VIII, pp. 129 - 38.

وفى وسعنا الان أن نضيف كثيرا من الاسماء الى القائمة التى نشرها سير كينيون ، فيجد القارىء قائمة بالمؤلفات الادبية المدونة على أوراق البردى أو الشقافات والتى كانت ميسورة للقراء وقتئذ فى الكتاب التالى :

C.H. Oldfather, *The Greek Literary Texts from Greco-Roman Egypt*. Madison, 1923.

وقد أكمل هذه القائمة وأضاف اليها ما اكتشف حديثا الاستاذ :

L. Giallani, *Testi letterari greci di provenienza egiziana* (1920-45). = Florence, 1946.

ويقول مرسله فيه : « انسخ لى الجزئين السادس والسابع من كتاب شخصيات فى الكوميديا » لهوبسيكراتيس (Hypsicrates) وأرسلهما لى ، لأن هربوكراتيون يقول إنهما بين كتب بوليون ، وإن كان من المحتمل أن آخرين أيضاً قد اقتنوهما . ولديه كذلك موجز منثور لكتاب ثرساجوراس (Thersagoras) عن الأساطير التراجيدية » وتضيف يد أخرى إلى ما فات هذه الملاحظة : « وكما يقول هربوكراتيون ، فهما يوجدان لدى ديمتريوس بائع الكتب .

وبالرغم من انتشار الأمية ، وخاصة بين النساء ، فإن التعليم لم يكن مقصوراً بأى حال على الصفوة من الأثرياء ، فقد أدركت قيمته وسعت فى طلبه تلك الطبقة المتوسطة التى بذل الرومان قصارى جهدهم فى سبيل بنائها . كان التعليم يبدأ بالقراءة والكتابة ، أولا الحروف الأبجدية ، فالمقاطع المكونه من حرفين ، فالمكونة من ثلاثة ، ثم المكونة من أكثر من ذلك ، وبعدئذ الكلمات الكاملة التى تكتب

= [أنظر الان :

W. Schubart, *Griechische literarische Papyri* (- Berichte über die Vernhandl. d. Sächs, Akad. d. Wiss. in Leipzig, Phil.-Hist, Kl. Bd. 97, Heft 5.), Berlin, 1950.

R.A. Pack, *The Greek and Latin Literary Texts from Greco-Roman Egypt* (= Univ. Mich. Gen. Lib. Publ. No. 8), Ann Arbor, 1952.

ويجد القارىء جانبا من البرديات الادبية منشورا ومترجما فى الكتاب التالى :

[D. L. Page, *Greek Literary Papyri* (Poetry, vol. I) L.C.L. 1942.

عادة مقطعاً مقطعا (١) .

وكان منهج الدراسة يتدرج بعد ذلك فى المراحل الآتية: النحو والبلاغة والأدب والرياضة (بما فى ذلك المقاييس) ، والفلسفة . وكان التلاميذ يطالبون بكتابة موضوعات إنشائية ، وفى مرحلة أعلى ، بكتابة خطب فى موضوعات مقررة . وإلى جانب ذلك كانوا يدرسون شيئاً عن القصص والأساطير الإغريقية . ويتبين من كثرة اختيار الحكم والأمثال لتمرين التلاميذ على المطالعة ، إهتمام المربين بالناحية الاخلاقيه ، ولو أن بعض هذه الاقوال المأثورة (gnômai) كانت من النوع التهكمي الساخر ـ مثل الأبيات المنسوبة إلى سيمونيديس (Simonidês) [٢] . وكان هوميروس هو حجر الزاويه فى نظام التعليم : وتقول أم فى خطاب إلى ولدها « لقد حرصت على الكتابه إليك لأستفسر عن صحتك وأعرف ماذا كنت تقرأ . فقد قال لى [المدرس] إنه الكتاب السادس » فلم يكن هنالك ما يدعو إلى تحديد الاسم لأنه كان معروفاً أنها تقصد الكتاب السادس من

---

(١) مثال ذلك : a di kos ê the os (= adikos hê theos)

أنظر :

O. Guéraud & P. Jouguet. *Un livre d'écolier du IIIème siècle avant J.-C.* Cairo, 1938, p. 14, l. 121.

[٢] شاعر غنائي مجيد (٥٥٦ـ٤٦٨ ق٠م٠) ولد فى جزيرة كيوس (Ceos) ٠ وقد كتب فى موضوعات متنوعة منها المديح (Encomia) =

الإلياذه(١). وإلى جانب ذلك كان التلاميذ يدرسون كتاب القصص التمثيلي، التراجيدي منه والكوميدي، وأئمة الشعر الغنائي، وبالطبع الخطباء.

وفي المراحل الأولية من التعليم على الأقل كانوا يكثرون من استعمال كسر الفخار (الشقافات)، وكذلك الألواح المكسوة بالشمع، التي كانوا يستطيعون الكتابة عليها أكثر من مرة. وطبيعي أن الحاجة كانت شديدة إلى الكتب المدرسية. ويقول تلميذ في خطاب يرجع إلى أوائل القرن الثاني (٢) « أرجوك أن (تطلب ؟) من الوصي أن يمدني بلوازمي المدرسية ومنها كتاب للمطالعة من أجل هيرايدوس». ولما كان هيرايدوس (Heraidous) اسماً لتلميذة، هي إبنة أحد مديري الأقاليم، فالخطاب يتضمن إشارة إلى نظام التعليم المختلط. ويرى

= وتقع في هذا الباب أهازيج النصر (Epinicia) التي نظمها تمجيداً للفائزين في الألعاب الرياضية، ومنها المراثي (Threnoi) وتدخل فيها أبياته الجنائزية التي تكتب على شواهد القبور (Epigrammata) وأشهرها رثاؤه لابطال اسبرطه الذين استماتوا في الدفاع عن ثرموبيلاى (٤٨٠ ق.م.)، ومنها خمرياته (Scolia) وهي أغاني تنشد في المادب وتعبر عن الاحاسيس الشخصية. كما كتب قصائد قصيرة متنوعة من الشعر الاليجي (Elegeia) وهو شعر تتألف فيه وحدة القصيدة من بيتين أحدهما من الوزن السداسي يليه آخر من الوزن الخماسي. كما تنسب اليه بعض الحكم والاقوال المأثورة (gnômai). ويمتاز سيمونيديس ببراعة في انتقاد الالفاظ، وطلاوة الشعر، وموسيقية الاسلوب.

(١) P. Oxy. VI, 930 = *Select Papyri* I, No. 130

(٢) P. Giss. 85.

بعض العلماء (١) أن كثيراً من البرديات المأخوذة من لفافة كانت مستعملة من قبل لكتابة وثيقة رسمية ، والتى نجد نصاً أدبياً مكتوباً على ظهرها ، ربما تكون مسودات مدرسية . وكان يوجد فيما يبدو إلى جانب المدارس المحلية ومعاهد التربية مدرسون خصوصيون لهم مكانة فى المجتمع يفد إليهم التلاميذ من جهات نائية مما يقابل إلى حد ما المدارس الداخلية فى العصر الحديث . وعندما يتم التلاميذ المراحل الأولى من التعليم ، كان الراغبون منهم فى التعليم العالى يلتحقون بجامعة الإسكندرية . ويعطينا خطاب نشر حديثاً (٢) كتبه طالب يحتمل أنه كان مقيما بتلك المدينة، فكرة واضحة عن عقلية الطالب الجامعى القديم. ومع أن مضمون الخطاب مفهوم ،إلا أن كاتبه للأسف لا يذكر لنا شيئاً عن مقرر دراسته . وليس ثمة مايدعو إلى أن نحمل حكمه على التدريس محمل الجد حين يقول « أما عن نفسى ، فلو أننى وجدت بعض المدرسين الأفاضل، لما كنت والله نظرت إلى ديدوموس (Didymus) حتى من بعيد ـ إن ما يدخل اليأس على قلبى هو أن ذلك السيد الذى لم يكن سوى معلم ريفى ، يعتبر نفسه نداً لبقية المدرسين . ولما كنت أعلم ـ بغضّ النظر عما أتكبده من مصروفات باهظة تذهب هباء ـ أنه لاخير يرجى من المدرس ، فأنا أعتمد على نفسى» . وأما الراغبون

---

(١) الاقتراح للاستاذ أولدفاذر (Oldfather) على صفحة ٦٨ وما بعدها من كتابه المذكور أعلاه (انظر ص ١٥٩ حاشية ١)

(٢) P. Oxy. XVIII, 2190. (والترجمة هنا أيضا بقلم الناشر)

فى تعلم المواد الخاصة كالاختزال الذى كانت تتطلبه حاجة العمل فى المحاكم والمصالح الحكومية ، فكانوا فيما يبدو يتتلمذون فترة معينة على يد معلم يلقنهم أصول الحرفة (١)

الحياة الاجتماعية :

كان هذا التعليم الإغريقى فى طابعه يتضمن بداهة ، كعنصر لاغناء عنه ، التربية البدنية كالألعاب التى كان يمارسها الصبية فى حلبة الرياضة (palaestra) ، والتدريبات شبه العسكرية الخاصه بالشباب (ephêboi) .وكانت استعراضات الشباب، والاحتفالات الرسمية العامة ، التى تقام بمناسبة الأعياد الدينية أو أعياد جلوس الأباطرة أو أعياد ميلادهم ، تتخللها مهرجانات يتمتع بمشاهدتها سكان عواصم الأقاليم ، كما كانت تقام حفلات رياضية دورية يتبارى فيها الهواة من جميع الطبقات فى الملاكمة(٢) والمصارعة والجرى وغير ذلك من الألعاب . كما كانت هناك بلا ريب حفلات تمثيلية . ومن المحتمل أن سكان العواصم

(١) أنظر : P. Oxy. IV, 724 = *Select Papyri* I, No. 15.
والوثيقة عبارة عن عقد يرتبط فيه شخص بابقاء عبده سنتين لدى معلم يلقنه خلالهما أصول الاختزال .
وعن الاختزال فى اللغة الاغريقية ، أنظر :
H.J.M. Milne, *Greek Shorthand Manuals*. London, 1934
A. Mentz, « Beiträge zur hellenistischen Tachygraphie », *Archiv*, XI, pp. 64 - 73.

(٢) أنظر : P. Lond. III, 1178 = W. Chrest. 156.
والوثيقة عبارة عن شهادة عضوية فى « الجمعية الهادريانية الانطونينية الرياضية المتجولة [أى الدولية !] المقدسة لاتباع هيراكليس والمشمولة برعاية الامبراطور سبتيميوس » أصدرها أكبر نوادى الامبراطورية الكائن فى نابلى لملاكم من بلدة هرموبوليس [الاشمونين] فى مصر عام ١٩٤ م .

كانت تسنح لهم الفرصة بين الفينة والفينة لمشاهدة روايات من التراچيديا الإغريقية الكلاسيكية ، ومن « الكوميديا الجديدة » . كما تيسر لهم دون شك الاستمتاع بمشاهدة الروايات الشعبية المضحكة والأدوار الهزلية فى المسارح المحلية أو قاعات الموسيقى [1] . وفضلا عن ذلك كانت هناك فرق متجوله للموسيقى والرقص والألعاب البهلوانية ، وما إلى ذلك ، للترفيه عن الفلاحين فى القرى النائية الكائنة بأطراف الأقاليم (٢) ، فلم تكن الحياة فى مصر خالية بأى حال من المباهج فى القرن الثانى الميلادى . وكان العمال برغم شبكة القيود والتعليمات التى تكتنفهم من كل جانب ، لايعدمون وسيلة للتعبير عما يجيش فى صدورهم من هم وضيق . وتكتب إحدى سيدات الطبقة الثرية ببلدة هرموبوليس [الأشمونين] على أيام الإمبراطور تراچان الى ابنتها قائلة « كان جميع الناس هنا يســـيرون فى مظاهرة حول المدينة مطالبين بزيادة الأجور » (٣)

وبرغم انتشار عادة التخلص من الاطفال غير المرغوب فيهم بتركهم فى العراء ، وهى عادة كانت فيما يرجح مقصورة على الطبقات الفقيرة ، لأنها

---

(١) تحتوى البرديه P. Oxy. III, 413 على كوميـدية شعبيـة وتمثيلية هزلية ، ولا ريب أنهما عرضتا فى المسارح المحلية . ولدينا أمثلة عديدة أخرى .

(٢) عن هذا الموضوع ، أنظر على سبيل المثال :
Teresa Grassi, « Musica, Mimica e Danza », *Studi della Scuola Papirologica*, III (Milan, 1920), pp. 117-35.

(٣) P. Brem. 63 .

ترجع أصلا إلى عوامل اقتصادية ، فإن أوراق البردى تضفى أضواء باهرة على الحياة العائلية السعيدة ، وما يتخللها من حفلات خاصة بأعياد الميلاد ، وولائم للغذاء أو العشاء ، ومناسبات اجتماعية أخرى ، ومشتروات دمى وحلوى للأطفال ، ورسائل خاصة متبادلة بين أفراد الأسرة زاخرة بالأشواق .

ازدياد التدهور :

لكن حالة الرخاء ، كما سبق أن نوهنا ، كانت مع كل هذا ، فى تدهور مطرد . ولم يأت القرن الثانى حتى كان مبدأ الإلزام قد طبق تطبيقا تاما على كافة الوظائف العامة (munera) ، فيما عدا العليا منها ، وكان على وشك أن يطبق أيضاً على المناصب البلدية (honores) . وفى عام ١١٥ م . كان منصب مدير معهد التربية فى بلدة هرموبوليس لا يزال فى العادة اختياريا (١) ، لكن عندما أسس الإمبراطور هادريان المدينه الإغريقيه الجديدة أنتينوبوليس Antinoopolis [الشيخ عباده فى مديرية أسيوط] . فى عام ١٣٠ م . تخليدا

(١) أنظر : P. Amh. II, 70, 2-4 « لقد أمر سعادة الحاكم روتيليوس لوبوس (Rutilius Lupus) بتخفيف عبء النفقات التى يتطلبها منصب مدير معهد التربية حتى يقبل المرشحون على تحملها عن طيب خاطر . وفى ذلك دليل على أن السلطات بدأت وقتئذ تجد صعوبة فى ايجاد مرشحين لائقين ، ولكن هؤلاء كان لايزال فى استطاعتهم أن يرفضوا المناصب . وكان روتيليوس لوبوس حاكما على مصر من ١١٣ (أو ١١٤) الى ١١٧ م .

لذكرى صفيه أنتينوس (Antinoos) ، وأحضر المواطنين لتعميرها من شتى الاقاليم ، منحهم بجانب الامتيازات الخاصة الاخرى حق الإعفاء من عبء الوظائف العامة (munera) والمناصب البلديه (honores) خارج حدود مدينتهم (١) ، ولدينا قرار من عهد خلفه الإمبراطور أنطونينوس پيوس (Antoninus Pius) أصدره أهالى أكسيرينخوس تكريما لأحد مواطنى بلدتهم ، يؤكدون فيه أنه قبل «بمحض إرادته» أن يتولى منصب مدير معهد التربيه (٢) . ولم ينته القرن الثانى حتى كان الإجبار هو القاعدة المتبعه التى لاتتغير (٣) ، واختفى تقريبا مبدأ الاختيار حتى غدت كلمة (leitourgia) فى القرن الثالث تستعمل للدلالة على الوظائف العامه (munera) والمناصب البلدية (honores) على السواء . ولدنيا بردية بتاريخ ٢٠٢ م . يطلب فيها أحد ثراة الإسكندرية من الإمبراطور أن يأذن له بإنشاء

---

(١) يفهم من بردية نشرها ك.س.جاب (K.S. Gapp) أن هذا الامتياز الغى حوالى عام ٢٥٤ م . ، أنظر :
Trans. Am. Phil. Ass. LXIV (1933), pp. 89 - 97.
قارن أيضا :
E.P. Wegener, *Symbolae van Oven*. Leyden, 1946, p. 182. m. 117.
وعن أنتينوبوليس ووضعها القانونى وامتيازاتها ، أنظر :
P. Oxy. VIII, 1119 = W. Chrest. 397, 16.
وعن وجود الامتياز ، أنظر :
H.I. Bell, « Antinoopolis : A. Hadrianic Foundation in Egypt », *J.R.S.* XXX (1940), pp. 133-47.
(٢) P. Oxy. III, 473 = W. *Chrest*. 33.
(٣) أنظر : P. Ryl. 77 (بتاريخ ١٩٢ م .) ونجد فيها وصفا مفيدا (وفكها بالنسبة للقارىء الحديث) عن ترشيح رجل لمنصب ومحاولاته اليائسة غير المجدية للتهرب من أعبائه .

صندوق خيرى لإعانة المكلفين بالخدمات الإلزامية فى بعض القرى بإقليم أكسيرينخوس لأن هذه القرى على حد قوله ، قد أصبحت من جراء الأعباء السنوية المرهقة الملقاة على عاتق أهلها، مهددة بالخراب مما يعود بالضرر على الخزانة ويؤدى إلى ترك أراضيك غير مزروعة (١). وأخذت مشكلة إيجاد مرشحين لائقين للمناصب البلدية تزداد صعوبة على مر الأيام . وتسجل برديات عديدة انتهاك السلطات لحق الإعفاء الذى منحه هادريان لمواطنى أنتينوبولس ، وترينا كيف كان سكان العواصم ، وقد ناءت كواهلهم بالأعباء ، يحاولون بدورهم إرغام سكان القرى على تولى المناصب البلدية ، وهو أمر اضطر الإمبراطور سپتيميوس سفيروس أن يحظره . وإزاء تناقص عدد القادرين على تحمل هذه الأعباء المضنية مدة عام كامل ، فقد أخذ المنصب الواحد يسند لا إلى فرد بل إلى لجنة يباشر أعضاؤها مهام المنصب بالتناوب ، ففى أواخر القرن الثالث نجد بعض مديرى معاهد التربية مثلا يتولون منصبهم لأيام معدودات .

ظهور المسيحية فى مصر :

وعند هذا التاريخ ينبغى أن ندخل فى حسابنا عاملا جديدا ، وهو المسيحية ، التى لاتزال معلوماتنا عن بدأ انتشارها فى مصر طفيفة

(١) P. Oxy. IV, 705 = W. *Chrest.* 407

جدا (١) . ولئن كنا نميل إلى استبعاد القصة القائلة بأن القديس مرقس هو الذى أسس كنيسه الإسكندرية باعتبارها خرافة ، إلا أننا نظن أن الدين الجـــديد لم يكن ليتأخر فى الوصول إلى أكبر ميناء فى شرق البحر المتوسط ، وأنه لم يكن هناك محيص بعد ذلك عن انتشاره فى سائر أنحاء مصر . ومع هذا فلم يترك الدين الجديد أى أثر فى برديات القرن الأول التى عثرنا عليها حتى الآن ، بل لا تمدنا حتى برديات القرن الثانى إلا بمعلومات ضئيله جداً عن مدى تأثيره . على أننا نستخلص من أوراق البردى الادبية أن المسيحية كانت قد تغلغلت فى مصر الوسطى ومصر العليا ، ولدينا الآن ما لا يقل عن سبع قصاصات من البرديات الإنجيلية ، التى يمكن أن ننسبها باطمئنان إلى القرن الثـانى ، بل إن جميع الباحثين الثقاة ينسبون إحدى هذه القصاصات ، التى تتضمن بعض فقرات من انجيل القديس يوحنا ، إلى مستهل القرن الثانى (٢) . ولابد أنه كان يوجد فى مقابل كل بردية مسيحية حفظتها لنا محض الصدف ، مئات من البرديات التى عفا عليها الزمن ، وأن كل مسيحى كان لديه مثل هذه البردية يقابله عشرات لم يكن لديهم شيء .

---

(١) اقرأ عن هذا الموضوع المقال التالى :

H.I. Bell, « Evidences of Christianity in Egypt during the Roman Period », *Harv. Theol. Rev.* XXXVII (1944), pp. 185-208.

(٢) P. Ryl. III, 457. • وقد نشر الاستاذ ك•ه• روبرتس (C.H. Roberts) هذه البردية منفصلة فى بحث بعنوان :

An Unpublished Fragment of the Fourth Gospel. Manchester, 1935.

وقد يقال فى تعليل قلة الإشارات إلى الديانة المسيحية فى وثائقنا البردية أن الناس كانوا مضطرين إلى إخفاء صلتهم بطائفة مضطهدة. ولكن ليس هناك ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن ذلك هو السبب الوحيد. فالعقود القانونية والإقرارات المقدمة للسلطات لم تكن تقتضى ذكر المسيحية، كما أن الرسائل الخاصة غالباً ما تصاغ فى عبارات تقليدية على نمط واحد وتدور عادة حول شئون مصلحية بحته، فلا تستدعى هى الأخرى الكلام عن العقيدة. وإنه لمن الخطأ أن نعتقد أن الاضطهاد كان حملة متصلة أو أن الحكومة الرومانية اضطهدت المسيحيين بسبب عقائدهم الدينية بالذات. فقد كانت روما متسامحة كل التسامح فى المسائل الدينية، ولم تحاول أن تستأصل شأفة أى عبادة جديدة إلا بحجة منافاتها للمبادىء الأخلاقية أو تعارضها مع السياسة العامة. كان المسيحيون فى نظر السلطات مواطنين أشراراً وعنصراً خطراً فى المجتمع لأنهم كانو يترفعون عن ممارسة شعائر الديانة الرسمية، ولا يقدسون صور الأباطرة، ولا يشتركون فى عبادة « روما المؤلهة » أو « الروح الحارس » للإمبراطور. وكان فى تضامنهم وخلوتهم وقت التعبد ما يوحى بأنهم جماعه سرية. وقد اتهموا بممارسة أبشع العادات كالزواج المحرم والشعائر المخلة بالآداب وإهراق الدماء البشرية طبقاً للطقوس ـ هذه هى التهم التى كالها الوثنيون للمسيحيين، وهى نفس التهم التى كالها المسيحيون لليهود فى القرون التالية. غير أنه كان هناك

دائماً بين الوثنين من كانوا مستعدين للتستر على أصدقائهم المسيحيين ، كما كان حكام الولايات يحجمون أشد الإحجام، فى معظم الأحيان، عن تطبيق قانون العقوبات عليهم . ولم يكن الاضطهاد عاماً إلا عند حدوث كارثة قومية أو هياج شعبي ، وكما يقول ترتوليان (Tertullianus) فى إحدى فقراته المشهورة[١] «فإذا فاض التيبر على الأسوار، أو غاض النيل فلم يبلغ الحقول ، أو أمسكت السماء عن المطر ، وإذا زلزلت الأرض ، أو حدثت مجاعة ، أو انتشر وباء ، تتعالى الصيحات على الفور هاتفة: «فليلق بالمسيحيين إلى الأسد» . وفى تلك الأوقات كان هناك بين الناس من يعوزهم الجلد على احتمال البلاء ، ولو أن كثيرين منهم صمدوا للمحنة . ومن المستحيل أن نقرأ القصص الأولى ، الحقيقية فيما يبدو ، عن الاستشهاد ، مثل آلام القديسة پرپتوا (Perpetua) ، أو أعمال شهداء سكيلي (Scilli) دون أن تهتز مشاعرنا إهتزازاً للبطولة الرائعة التى أبداها كل من الرجال والنساء فى غير مباهاة ، وخاصة عندما نتذكر أن مضمون هـــذه القصص يتلخص فى العبارة البسيطة «أنا مسيحي» (Christianus sum) أو «أنا مسيحية» (Christiana sum)(٢)

---

(١) *Apol.* XL

(٢) واليك على سبيل المثال ، قصة استجواب القديسة بربتوا كما ترويها (ولو أنها في الواقع لم تكتب الا الجزء الاول من القصة، التي تابعها أحد زملائها في الاستشهاد ، ثم أتمها فيمـا بعد كاتب ثالث) : « وما أن وصلنا الى السوق العامة Forum ، حتى انتشر الخبر في الاحياء المتاخمة لها،فاحتشدت جموع غفيرة من الناس . =

فهذه العبارة كثيراً ما يتحرج الناس حتى فى أيامنا هذه من ذكرها فى البلاد المسيحية ، غير أنها كانت فى القرنين الثانى والثالث لا تثير فقط تهكم أو سخرية من لا تصادف هوى فى نفوسهم ، بل كانت تعرض قائلها لنوع من الموت الذى ينخلع له فؤاد أثبت الناس جناناً : فالمسرح غاص بالجماهير المتعطشة للدماء ، وحفنة من المسيحيين واقفة فى وسط

= ثم صعدنا الطريق الى المحكمة ، وهناك استجوب غيرنا واعترفوا . ولما جاء دورى ، أطل والدى ومعه ابنى ، وجذبنى من حظيرة المتهمين ، وقال لى متوسلا « ارحمى ولدك الرضيع » . وقال لى هيلاريانوس ، مدير الشئون المالية للولاية procurator . الذى كانت سلطة العفو والاعدام قد آلت اليه عقب وفاة الحاكم تيمينيانوس « ارحمى أباك الذى وخط المشيب رأسه ، ارحمى ولدك الرضيع ، وقدمى القرابين من اجل سلامة الاباطرة » فأجبته «لن افعل ذلك». وسألنى هيلاريانوس « أمسيحية أنت ؟ » فأجبته « أنا مسيحية » . وعندما هم والدى أن يسحبنى أمر هيلاريون بجره الى أسفل وضربه بعصا . وقد حز فى نفسى ما لحق ابى من اذى ، كما لو كنت انا التى ضربت وغمرنى الاسى على شيخوخته التعسة . وبعدئذ قضى هيلاريانوس بادانتنا جميعا وحكم برمينا طعمة للسباع . ونزلنا الطريق الى السجن مبتهجين » ، انظر :

J. Armitage Robinson, *Texts and Studies*, vol. I, No. 2, « The Passion of S. Perpetua ». Cambridge, 1891, p. 70.

قارن فى نفس المرجع :

« Acts of the Scillitan Martyrs », p. 114 :

« قال ساتورنينوس الحاكم pro consule «كفوا عن هذه الحماقة» فأجاب كتينوس « نحن لانخشى أحدا غير المسيح ، ربنا الذى فى السماء » . وقالت دوناتا « الاجلال لقيصر بوصفه قيصرا ، ولكن التقوى لله » . قالت فستيا « إنا مسيحية » . وقالت سيكوندا « ان ما أتمناه هو أن أكون على ما أنا عليه » . وسأل الحاكم سبيراتوس « أمصر أنت على مسيحيتك ؟ » فأجابه سبيراتوس « أنا مسيحى » . وأمن الجميع على كلامه .

الساحة ، والأسد أو النمر الضارى يفتك بهم على الرمال المخضبة بالدماء ، وفى النهاية يهوى السيف الرحيم فيضع حداً لآلام الجسد الممزق إرباً .

ولدينا من منتصف القرن الثالث طائفة من البرديات التى توضح بجلاء اضطهاد المسيحيين على أيام الإمبراطور ديكيوس (Decius) وهى عبارة عن شهادات بتقديم القرابين للآلهة الوثنية (libelli) ، كان الإمبراطور قد أصدر أمراً بأن يقدمها جميع رعايا الإمبراطورية للسلطات الرومانية . وكان الذين لا يقدمون هذه الشهادات يعتبرون مسيحيين . على أن بعض ضعاف النفوس سمحت لهم ضمائرهم أن يقدموا للسلطات شهادات مزورة (١) .

وكانت المسيحية فى مصر تميل فيما يبدو إلى « الهرطقه » ، أى الأخذ بالمعتقدات المخالفة لآراء الكنيسة ، وخاصة بمذهب « الغنوسية » (gnôsis) [٢] ، ولعل ذلك يفسر سبب ذيوع إنجيل يوحنا فى

---

(١) انظر :
J.R. Kniphing, « The *Libelli* of the Decian Persecution », *Harv. Theol. Rev.* XVI (1923), pp. 345-90.

[٢] اللفظ اليونانى « gnôsis » معناه « معرفه » والغنوسيه مذهب لشيعة دينية فلسفية ، « ومبدؤها أن العرفان الحق ليس العلم بوساطة المعانى المجردة والاستدلال كالفلسفة ، وانما هو العرفان الحدسى التجريبى الحاصل عن اتحاد العارف بالمعروف . وأما غايتها فهى الوصول الى عرفان الله على هذا النحو ، بكل مافى النفس من قوة حدس وعاطفة خيال . فالغنوسيه صوفية تزعم أنها المثلى الاعلى للمعرفة ، وترجع بأصلها الى وحى أنزله الله منذ البدء وتناقله =

مصر ، ومذهبه عن « اللوغوس » أو الكلمه (Logos) [١] ، وإبهامه الصوفى . ويرى بعض العلماء أن هذا الإنجيل كتب فى الاسكندرية (٢) ،

= المريدون سرا، وتعد مريديها بكشف الاسرار الإلهية وتحقيق النجاة. فكان العامة منهم يؤخذون بسحر طقوسها ، وكان الخاصة يتعلقون بتعاليمها النظرية ... وكانت الغنوسية تعدو على الاديان والمذاهب بالتأويل والتحوير . مدعية تحويلها الى معنى أعمق . (من كتاب « تاريخ الفلسفة اليونانية » **ليوسف كرم** ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٤٦ ، ص ٢٤٤) .

« وما كادت المسيحية تظهر حتى تناولتها الغنوسية ، فتزيت بزيها ونافستها منافسة قوية ... فكانت خطرا كبيرا عليها طوال القرون الاربعة الاولى ... والغنوسيون المسيحيون بالاجمال يؤولون عقائد المسيحية تبعا لمذهبهم ، ويصوغون أساطيرهم بألفاظها . فهم يقيمون الثنائية على مايزعمون من تعارض بين التوراة والانجيل ، اذ يقولون ان التوراة تصور الها قاسيا جبارا ، بينما الانجيل يكشف لنا عن اله وديع حليم خير للغاية .... فاله العهد الجديد هو الاله الاعلى ، الاله الآب ، خالق العالم المعقول ، أبو المسيحية واله المسيحيين ، واله العهد القديم صانع العالم المحسوس واله اليهود.. فالغنوسيون ينبذون التوراة نبذا تاما . ويقبلون من بين الاناجيل مايروقهم ، ويحذفون مما يقبلون الفصول والآيات المناقضة لآرائهم.

يوسف كرم « تاريخ الفلسفة اليونانية » ص ٢٥٥ ـ ٢٥٨

[١] وعن (اللوغوس) أنظر صفحة ١٠٥ هامش ٢ أدناه .

(٢) أنظر :

J.N. Sanders, *The Fourth Gospel in the Early Church*. Cambridge, 1943.

الأمر الذى يعيننا دون شك على تفسير عـــدم معرفة القديس بوليكارب (Polycarpus) بهـــذا الإنجيل (١)، وبعد ما عانت الاسكندرية كثيراً من جراء الحروب الأهلية والاضطرابات العنيفة التى كدرت صفو الأمن فى مصر خلال الحقبة الأخيرة من عصر البطالمة ، وكانت هى نفسها مركزاً لهذه الاضطرابات أكثر من مرة ، تمتعت بفترةمن الرخاء المطرد تحت الحكم الرومانى . كانت الاسكندرية ثانية مدن الامبراطورية ، وأعظم موانىء البحر المتوسط ، ومركزاً للتجارة الرائجة مع الغرب والشمال حتى إيطـاليا والولايات الغربية ، ومع بلاد الإغريق وآسيا الصغرى ، ومع الشرق حتى الهند . وبرغم أن المدينة لم تعد كما كانت فى القرن الثالث قبل الميـــلاد موطنا لفحول الشعراء ، فقد كانت لا تزال بها مدرسة للشعر والأدب التصويرى ، وقد تألق صيتها بفضل العلماء من أمثـال بطلميوس وهيرون ، كما

---

(١) أنظر :

P.N. Harrison, *Polycarp's Two Epistles to the Philippians.* Cambridge, 1936, pp. 257, 302 ff.

ولكننى لا أستطيع أن أشارك هاريسون رأيه فى أن أنجيل يوحنا لم ينتشر الا حوالى ١٣٥ م .

[وبوليكارب هو احـد آباء الكنيسـة ، وقد استشهد فى أزمير عام ١٥٥ م . وأهم ماكتبه هو « رسائله الى أهل مدينة فيليبى »]

أنجبت الجالية اليهودية بالمدينة كتابا نابهين مثل فيلون ، واجتذبت جامعة الاسكندرية الطلاب لا من مصر وحدها بل من وراء البحار .

النزاع بين اليهود واغريق الاسكندرية :

ولكن هذا الرخاء لم يؤد إلى استمالة مواطنى الاسكندرية إلى جانب الرومان . وكان هؤلاء المواطنون قد أثاروا فى وجه الملوك المقدونيين متاعب جمة ، غير أن ضياع المركز الذى تمتعت به الاسكندرية كمقر للملك البطلمى ، وعاصمة لدولة مستقلة ، أوغر صدورهم فاستمروا طوال العصر الرومانى يناصبون الحكومة العداء الشديد على الرغم من أن بعض الأباطرة من أمثال جايوس (Gaius) المشهور باسم « كاليجولا » ، ونيرون ، كانوا يختصون المدينة بالعطف والرعاية . ولما كان أوغسطس قد أقر لليهود جميع امتيازاتهم ، فى حين أنه رفض مطلب مواطنى الاسكندرية بإنشاء مجلس للشورى ، فقد اتخذ عداء المواطنين للرومان مظهر عداء لليهود إذ كان الهجوم عليهم أسلم عاقبة لهم من الهجوم على الرومان مباشرة . وكثيراً ما أدت المذابح الطائفية العديدة التى وقعت فى شوارع المدينة إلى تدخل الحامية الرومانية لقمع الاضطرابات ، وإلى إرسال الوفود من جانب أحد الفريقين أو كليهما إلى الامبراطور (مثل الوفد المبعوث إلى جايوس

الذى وصفه فيلون وصفاً دقيقاً شائقاً فى مؤلفه « Legatio ad Gaium »)، وإلى محاكمة بعض زعماء الاسكندرية أمام مجلس الامبراطور . وقد نشأ عن ذلك نوع من الأدب الوطنى أحرز رواجاً واسعاً بين الجماهير ويسميه العلماء الآن ، نظراً لما بينه وبين « أعمال الشهداء المسيحيين » من تشابه " بأعمال السكندريين " (Acta Alexandrinorum) [١] ، أو " أعمال الشهداء الوثنيين " [٢] ـ هذه الرسائل تبالغ فى وصف شجاعة زعماء الاسكندرية واعتدادهم بأنفسهم ، وتصورهم وهم يخاطبون الإمبراطور بقحة متناهية ، حتى أن أحد مديرى معاهد التربية بالمدينة يقول لكلوديوس « أنت الابن الذى تبرأت منه سالومى اليهودية » (٣) ويصف بازدراء هيروديس أجريبا (Herodes Agrippa) ، صديق الإمبراطور ، بأنه "يهودى لا يساوى شروى نقير (٤)" . وقد أحضر الوفد السكندرى معه الى روما ذات مرة تمثالا نصفياً لراعى المدينة

---

[١] معنى كلمة Acta اما «رسائل» كرسائل القديس بوليكارب مثلا ، (أنظر ص ١٧٥ حاشية رقم ١) ، أو « محاضر جلسات محاكمة الشهداء » أنظر : C.A.H. XII, p. 518 .

[٢] أحدث ماظهر عن هذا الموضوع الكتاب التالى :
H.A. Musurillo, (Editor), *The Acts of the Pagan Martyrs* (Acta Alexandrinorum). London, 1954
(ويتضمن النصوص البردية مضبوطة مع الترجمة والتعليق)

(٣) W. *Chrest.* 14 = B.G.U. II, 511 + P. Cairo 10448

(٤) H.I. Bell, « A New Fragment of the *Acta Isidori* », *Archiv. X*, pp. 5-16 (أنظر سطر ١٨ من البرديه)

الإله سرابيس ، فتصبب عرقا بمعجزة ـ كما تروى القصة ـ مما ملأ قلوب الرومان رعباً (١) . وقد ظلت ذكرى هؤلاء الشهداء ماثلة فى قلوب أهل الاسكندرية مدة طويلة ، مثلما كان المسيحيون يجلون ذكرى شهدائهم (٢) .

الاسكندرية كمركز للمسيحية :

وكما شهدت الاسكندرية على عهــــد البطالمة ترجمة التوراة إلى الاغريقية لتستخدمها الجاليةاليهودية المتأغرقة ، وكما وضعفيلون هناك فى القرن الأول الميلادى فلسفة يهودية باللغة الاغريقية ، ناهجاً فيهـا منهج التفكير الفلسفى الاغريقى ، كذلك غدت الاسكندرية فى القرنين الثانى والثالث مركزا للتقريب بين أسمى الأفكار فى الوثنية والأفـكار الوليدة فى المسيحية . وإنها لحقيقة جـــديرة بالتنوية أن يختار أهالى الاسكندرية أحد مواطنيهم ، وهو أناطوليوس (Anatolius) الذى

---

(١) P. Oxy. X, 1242, 52 ff.

(٢) P. Oxy. I, 33 (= W. *Chrest.* 20), 3-7

عن كراهية اليهود فى الاسكندرية ، أنظر على سبيل المثال :

U. Wilcken, « Zum alexandrinischen Antisemitismus », *Abhandl. d. Kön. Sächs. Gesellsch. d. Wissensch.*, phil.-hist. Kl. XXVII, pp. 783-839 ;
A. von Premerstein, « Zu den sogenannten alexandrinischen Märtyrerakten », *Philologus*, Supplementband XVI, Heft 11 ;
H.I. Bell, *Juden und Griechen im römischen Alexandreia* (Beihefte zum 'Alten Orient', Heft 9), Leipzig, 1926 ; *idem*, « Antisemitism at Alexandria », *J.R.S.* XXXI (1941), pp. 1-18.

(٣) Eusebius, *Hist. eccles.* VII, 325.

وانظر :

Norman H. Baynes, *The Thought-World of East Rome*. Oxford 1947, p. 26.

ثم أسقفا للاذقيـــه (Laodicea) فى عام ٢٦٩ م ، أستاذاً للفلسفة الارسطاليه فى تلك المدينه . وقد ازدهرت جنباً إلى جنب مع الاكاديمه ، ودراساتها الوثنية، والمدرسه «المسيحيه الكبرى »[١] التى أسسها پنتاينوس (Pantaenus) ، وكان من ألمع نجومها القديسان كليمينس (Clêmens) وأوريجينيس (Origenês) . كان الأول وثنياً ثم اعتنق المسيحيه ، ورجـلا واسع الاطلاع (ولعله كان شديد الولع بإظهار علمه) ، وقد أسهم بنصيب كبير فى التوفيق بين الديانه المسيحيه والثقافه الاغريقيه . ومع أنه كان شديد الايمان بالمسيحيه ، متمسكا بعقائدها الأصيلة القويمة . ونصيراً متزمتاً بل متطرفاً للأخلاق، إلا أنه كان خبيراً بالطبيعة البشريه ، فهو يحلل شرب النبيذ بل ويبرره أيضا ، ولا يحرم تحريماً باتاً الاستمتاع بما فى الحياة من جمال ومباهج . وقد ظل حريصا حتى بعد دخوله المسيحيه على قراءة الأدب الاغريقى ، وعلى إجلاله لأفلاطون . ولم تكن تعوزه روح الدعابه أوملكة النقد اللاذع . ويتبين لنا من تعريضه بالكهنه الوثنيين الذين ـ على حد قوله ـ لايقربون الحمام أبداً ويدعون أظافرهم تنمو حتى لتبدو فى طولها

---

[١] وهى مدرسة كانت أصول الايمان تعلم فيهاعن طريق السؤال والجواب (katêchêsis)

المتناهي كمخالب الوحوش الضارية(١) ، مدى حرصه الشديد على النظافه . الأمر الذي ربما أثار دهشة نساك العصور التالية الذين كانوا لا يغتسلون حتى قال عنهم أحد الساخرين إن " رائحة القداسة " تفوح منهم حقيقة لا مجازاً (٢) . وأما أوريجينيس [١٨٥ - ٢٥٣ م .] فكان أقل من كليمنس معرفة بالأدب الاغريقي، ولكنه كان أعمق منه تفكيراً وأرسخ فهما للمذاهب الفلسفيه ، وأدق إلماماً بمناهج البحث العلمي ، وأقدر على الإبتكار . الحق انه يعتبر من أعظم رجالات الكنيسة المسيحية . وأخيراً ، فكما تركت الإسكندرية أثراً باقياً في نصوص كتاب العصر الكلاسيكي ، فقد أسهمت مساهمة جليلة أثناء تلك الفترة في تحقيق نص للإنجيل موثوق به ، ولا تزال طبيعة هذه المساهمة ومداها مثاراً للجدل بين العلماء ، وإن لم يشك أحد منهم في قيمتها الكبيرة . وإذا كان أوريجينيس قد أتم مؤلفه العلمي الضخم ، المعروف باسم

---

(١) *Protrept.* X

(٢) « وعندما خرج « ثيودور السوكيوني » من كهفه ، كان أسقف أنستاسيوبوليس ، احدى مدن « جالاتيا بريما » حاضرا . ولما رأى الاسقف القروح بجسم ثيودور تنضح بالصديد ، وأبصر شعره الاشعث يموج بالديدان التي لاتحصى ، وشم رائحته الكريهة التي تنفر من الاقتراب منه ، عندئذ آمن بقداسة ثيودور فرسمه على الفور واعظا ، فمساعد شماس ، فشماسا ، فقسا » (انظر **(Baynes, op. cit. p. 17)**

Hexapla [١] ، فى قيصريه (Caesarea) لا فى الإسكندرية ، فقد بدأه أصلا فى الإسكندرية ، مسقط رأسه ، حيث تزود بالمعرفة التى تؤهله للاضطلاع بتأليفه .

انشاء مجالس الشورى فى العواصم :

وقد طرأ على وضع عواصم الأقاليم تغيير هام فى سنة ٢٠٢ م ، عندما أنشأ فيها سبتيميوس سفيروس مجالس للشورى أو مجالس بلدية . وتحققت فى نفس الوقت أمنية الإسكندرية القديمة وصار لها هى الأخرى مجلس للشورى ، وإن كانت هذه المنحة بالنسبة للمدينة قد فقدت بعض بهجتها لإحساسها بأن عواصم الأقاليم تشاركها فيها . ولم تظفر العواصم بمقتضى النظام الجديد بالحكم الذاتى الكامل ، إذ كان المدير (stratrêgos) لا يزال صاحب السلطة العليا فى الإقليم ، وله السيطرة على مجلس الشورى وعاصمة الإقليم ، التى ظل يتخذها مقراً رسمياً له . ولم يكن النظام الجديد سوى صورة معدلة من صور الحكم الذاتى المألوف فى البلديات . ومع أن العواصم تلقته فيما يبدو على أنه امتياز من لدن الامبراطور ، إلا أنه كان فى حقيقة الأمر عبئاً جديداً على

[١] نسخة للعهد القديم (التوراة) تتضمن ست ترجمات واحدة هى الاصل العبرى، وأخرى هى نفس الاصل مكتوبا بأحرف يونانية ، والاربعة الاخرى باللغة اليونانية ، وموضوعة فى ست أعمدة متقابلة بالغرض مقارنة النصوص لتحقيقها .

الطبقة الموسرة التي كان أعضاء مجلس الشورى يختارون من بينها . وقد أصبح هذا المجلس وقتئذ مسئولاً عن الشئون المالية للعاصمة ، وكان عليه أن يعين ومن ثم أن يضمن لا موظفي العاصمة فحسب ، بل كثيراً من موظفي الدولة أيضاً ، ومن بينهم الموظفين العموميين الجدد المعروفين باسم dekaprôtoi [١] الذين أنيط بهم الإشراف على تحصيل وتخزين ضريبة القمح النوعية ، كما كان عليه أن يراقب الشئون المالية للمعابد . وكانت المسئولية جماعية : فكل موظف في لجنة من لجان أصحاب المناصب (archôn) ، وكل عضو في مجلس الشورى (bouleutês) ، كان مسئولاً لا عن تقصيره الشخصي فحسب بل عن تقصير زملائه في اللجنة (koinon) التي ينتمي إليها . ولما كان الأشخاص الذين لم يسبق أن أدرجت أسماؤهم في قائمة المرشحين لتولي المناصب ، يقيدون فيما

---

(١) أنظر :

E.G. Turner, « Egypt and the Roman Empire : *The decaprôtoi* », *J.E.A.* XXII (1936), pp. 7-19.
E.P. Wegener, « The BOULEUTAI of the METROPOLEIS in Roman Egypt », *Symbolae van Oven*. Leyden, 1946, pp. 167-72.

والمقال المذكور للآنسة فيجينر (ص ١٦٠ ـ ١٩٠ من الكتاب المشار اليه) على أكبر جانب من الاهمية لدراسة موضوع مجالس الشورى والمناصب البلدية .

يحتمل كأعضاء فى مجلس الشورى (١)، فقد اتسعت دائرة الأعباء المالية عن ذى قبل ، وإن لم تخف وطأتها على المشتركين فى تحملها .

(١) أنظر عن هذا الموضوع ص ١٧١ وما بعدها من مقال الانسة فيجينر الوارد في الحاشية السابقة • وهى على صواب ، دون شك، اذ تستخلص من البردية (P. Lond. Inv. No. 2565 = SB. 7696, ll. 69-74)
ـ قارن ص ١٨٦ حاشية ١ أدناه ـ انه لم يكن هنـاك فارق بين أصحاب المناصب البلدية وأعضاء مجلس الشـورى العاديين أى غير الرؤسـاء (prytaneis) فى مسـألة النصـاب العقـارى غير أن هـذه البردية ترجع الى منتصف القرن الثالث ، ولا يستتبع ذلك حتما أنه عنـدما أنشـئت مجالس الشورى لم تدرج فيها أسماء أشخاص ممن كانوا غـير ملزمين من قبل بتولى المناصب البلـدية (archai = honores فى اليونـانيـة)ومهما يكن من شىء ، فبينما كان صاحب المنصـب البلدى لايرهـق بالنفقات التى تتطلبها وظيفته الا خلال فترة قيامه بها ، كان عضـو مجلس الشورى مسئولا بوصفه ضامنا ، عمن يعينون فى الوظائف العامة (leitourgiai = munera فى اليونانية) ، وربما أيضا عن غير ذلك من الخدمات حتى ولو لم يكن هو نفسه يشغل أى منصب •

[وتوضيحا لما فات نقول ـ استنادا الى نفس المقال ص ١٦٢ ـ ١٧٣ ـ انه بينما كان مجلس الشورى هو المشرف العام على الادارة فى عاصمة الاقليم ، كان أصحاب المناصب البلدية هم المكلفين بتنفيـذ مايدخل فى دائرة اختصاصهم من أعمال • وفى خارج مصر ـ أى فى البـلاد المتمتعة بالحكم الذاتى كالبلديات الرومانية (municipia) كان لايختار لشغل المناصب الا من كانوا أصلا أعضاء بمجلس الشورى • غير أن هذه القاعدة لم تتبع فى مصر ، حيث كان معظم أعضاء مجلس الشورى (الذين يقدر عددهم بحوالى ١٠٠ فى كل عاصمة) يشغلون فى نفس الوقت مناصب معينة أو سبق لهم أن شـغلوها • ومن المستبعد أن مجلس الشورى كان ينعقد بدون حضور سائر أصـحاب المنـاصب البلدية • ولم ينته القرن الثالث حتى كان الحد الفاصل بين الفريقين قـد اختفى تقريبـا ، فاصبحت كلمـة « archôn » ادف كلمـة « bouleutes » (قارن عبارة (archontes boulê)) وأنظر :
V. Martin, *Aegyptus* XIII, pp. 294 ff..
Wilcken, *Archiv.* VIII, p. 291.]

ولم يكن هناك سبيل إلى التخلص من المنصب البلدى أو عضوية مجلس الشورى الا عن طريق الاجراء المعروف باسم « cessio bonorum » أو « المبادلة » ومعناها أن يتنازل المرشح عن ثلثى أملاكه (١) [لمن رشحه فيتولى الأخير المنصب بدلا عنه]. وليس من المبالغة فى شىء أن نقول إن إنشاء مجالس الشورى كان هو الخطوة الحاسمة التى انتهت بالقضاء على طبقة المتأغرقين المتوسطه (البورچوازيه)

دستور كراكلا ومظاهر الانهيار العام :

كما حدث تغيير آخر بعد ذلك بعشر سنوات عندما منح الامبراطور كراكلا (Caracalla) فى عام ٢١٢ م. بمقتضى دستوره المشهور باسم (Constitutio Antoniniana)، حقوق المواطنه الرومانية لكافة سكان الإمبراطورية. وإذا كان المواطنون الجدد فى مصر قد غنموا أى شىء من وراء رفعهم إلى مصاف الرومان، فقد كان هذا الغنم ضئيلا، إذ أصبحوا عندئذ خاضعين لضريبة الميراث (vicesima hereditatum) التى كانت تجبى على تركات المواطنين الرمان بنسبة ١ : ٢٠، دون أن يترتب على ذلك إعفاؤهم من ضريبه الرأس. كما أصبحوا خاضعين للقانون المدنى الرومانى. غير أن النظام القضائى القديم، كما يتبين من الوثائق البردية، لم يطرأ عليه فى الواقع أن تغير جوهرى كما كنا نتوقع.

(١) أنظر على سبيل المثال : C.P.R. 20 = W. *Chrest.* 402

وكان القانون المصرى ـ الاغريقى قد تأثر من قبل بالقانون الرومانى ، فاصطبغ الأخـــير وقتئذ بصبغة القانون الأول ؛ والواقع أن النظام القضائى الذى كان سائداً بعد عصر كراكلا ـ كما يتبين من برديات تلك الفترة ـ لم يكن متفقا تمام الاتفاق مع شرائع الفقهاء الرومان .

وقد أخذت مظاهر الانهيار المحدق بالبلاد تزداد على مر الأيام فى غضون القرن الثالث(١) ، وذلك على الرغم من شيوع الألقاب الرنانه مثل وصف أهل أكسيرينخوس بلدتهم "بالمدينة الشهيرة وأشهر مدينة "، وعلى الرغم من اضطلاع عواصم الأقاليم بمشروعات باهظة التكاليف كتخطيط المدن. وقد تفاقمت مشكلة إيجاد اللائقين لملء المناصب البلدية ، وزيد عدد موظفى المنصب الواحد ، وقصرت مدة الخدمه . ونعلم من خطاب رسمى كتب حوالى عام ٢٨٩ م(٢). أن أكسيرينخوس بقيت بلا « مراقب تموين » فترة طويلة قبل ذلك التاريخ . ونسمع كثيرا عن فرار المكلفين بالخدمات الالزامية أو تهديدهم بالفرار. وأصبح إرغام الناس على استئجار الأراضى العامه أمراً عاديا مألوفا . ولدينا قرائن على اقفار الريف من السكان . وتمدنا بردية مهلهلة مودعة الآن بالمتحف البريطانى بدليــل ساطع على ســوء الأحوال فى منتصف القرن الثالث ، وهذه

---

(١) يجد القارىء عرضا رائعا لهذه الفترة فى المقال التالى :
Claire Préaux, « Sur le déclin de l'Empire au IIIème siècle de notre ère », *Chronique d'Egypte* XVI, No. 31 (1941), pp. 123-31.

(٢) P. Oxy. X, 1252 verso

البردية عبارة عن محضر قضية نظرت فى النصف الأول من عام ٢٥٠ م. فيما يرجح ، أمام ابيـــوس سابينوس (Appius Sabinus) حاكم مصر (١) . كانت السلطات فى أرسينوى ، عاصمة الفيوم، تحاول ثانية برغم الحظر الذى وضعه سپتيميوس ، أن تجبر القرويين على تولى المناصب البلدية ، فقاوم القرويون ذلك . وعرضت القضية على الحاكم، وأبرز محامى القرويين قانون سپتيميوس سڤيروس فسأل الحاكم هيئة الدفاع عن الخصوم إن كان فى وسعهم أن يستشهدوا بقرار يناقض ذلك القانون ، فأجابه أحدهم بمايلى « إن القانون بلا ريب هو موضع الاعتبار . لكن ينبغى عليك ، عند الفصل فى القضية ،أن تتبع (قرارات ؟) الحكام الذين وضعوا حاجيات المدن نصب أعينهم . إن تطبيق القانون رهن بحاجة المدنية » . وفى مرحلة تاليه من مراحل المحاكمة واجه الحاكم محامى العاصمة مرة أخرى بقانون سپتيميوس سڤيروس، فكان الجواب كما يلى « رداً على قانون سڤيروس أقول الآتى : لقد سن سڤيروس القانون لمصر عندما كانت المدن لا تزال تنعم

(١) أنظر :

T.C. Skeat & E.P. Wegener, « A Trial before the Perfect of Egypt Appius Sabinus, *C.* 250 A.D. », *J.E.A.* XXI (1935), pp. 224-47.

اذا كانت امتيازات مواطنى أنتينوبوليس ، كما يبدو محتملا ، قد ألغيت حوالى عام ٢٥٤/٢٥٥ م . (قارن حاشية ١ ص ١٦٧ أعلاه) ، فان ذلك ينطوى أيضا على مغزى بالغ الاهمية بالنسبة للحـــالة فى عواصم الاقاليم .

بالرخاء . فرد عليه الحاكم قائلا «إن حجة الرخاء ، أو بالأحرى تدهوره ، قائمة بالنسبة للقرى والمدن على حد سواء» . ومعنى هذا الكلام أن الأزمة الاقتصادية كانت شاملة . والواقع أن الأحوال كانت وقتئذ سيئة فى كافة أنحاء الإمبراطورية ، فقد استعر أوار الحرب الأهلية حقبة طويلة بين مدعى عرش الإمبراطورية الذين ظهروا الواحد تلو الآخر ، وأفلح قليل منهم فى الاحتفاظ بالعرش زهاء عشر سنوات ، غير أنهم جميعاً لقوا حتفهم غيلة . وقد نشبت أيضاً إلى جانب الحروب الأهلية حروب خارجية ، فاقتحم البرابرة التيوتون الاستحكامات الشمالية للإمبراطورية ، وتوغل القوط فى بلاد الإغريق ونهبوا أثينا ، واستفحل فى الشرق خطر الإمبراطورية الفارسية بعد إحيائها من جديد على يد آل ساسان (Sassanidae) ، ووقع الإمبراطور ڤاليريان (Valerianus) نفسه أسيراً فى يد أحد الجيوش الفارسية ، وأهلك وباء الطاعون عشرات الآلاف من الضحايا ، وأجدبت مساحات شاسعة من الأراضى فى جميع أرجاء الإمبراطورية ، وأدى التخفيض المستمر فى قيمة العملة إلى التضخم وارتفاع الأسعار إرتفاعاً جنونياً ، لقد كانت هذه الأزمة فى الواقع أشد الأزمات التى انتابت الإمبراطورية ، وبدا كما لو كانت روما تعانى سكرات الموت .

وقد سبق أن ذكرت أن دستور كراكلا لم يترتب عليه ، كما هو واضح ، إلغاء ضريبة الرأس . على أن هذه الضريبة لم تقم إلا بدور

ثانوى فى اقتصاديات مصر خلال القرن الثالث . فبعد منتصف ذلك القرن لا يرد لها ذكر مباشر فى الوثائق البردية ، والإشارات إليها حتى قبل ذلك التاريخ نادرة جداً فى الوثائق المكتوبة بعد عهد كراكلا ، إذ أخذت ضريبة الرأس وغيرها من الضرائب العديده التى ترد بكثرة فى برديات القرنين الأول والثانى ، تستبدل بموارد جديدة للدخل ، كان من بينها ضريبة التاج [aurum coronarium] التى كانت فى الأصل ، كما يتبين من اسمها ، هدية اختيارية يقدمها الأهالى للإمبراطور بمناسبة اعتلائه العرش . ولكنها تحولت فيما بعد ، مثل التبرعات الإجبارية على عهد الملك إدوارد الرابع وغيره من ملوك إنجلترا ، تحولت إلى ضريبة إجبارية وما لبثت أن صارت سنوية . وكانت هذه الضريبة تجى نقداً على الأراضى ، ولم تكن كضريبة الرأس تجى بمعدل ثابت ، بل كانت تتغير فيما يرجح حسب الحاجة (١) . وأبعد منها أثراً كانت الضريبة المعروفة باسم (annona militaris) أو « التموينة العسكرية » ، وهى ضريبة فرضت على الأهالى لتموين الجيش ، الذى كان جنوده وقتئذ يتقاضون الجانب الأكبر من رواتبهم عيناً . فكان الأهالى ملزمين بتقديم المؤونة عندما يطالبون بها وبالقدر الذى تقتضيه الظروف

(١) عن ضريبة التاج [وتسمى فى اليونانية *stephanikon*] أنظر :

S. L. Wallace, *Taxation in Egypt from Augustus to Diocletian*, Princeton (1938), pp. 281-84.

H. I. Bell, «The *Constitutio Antoniniana* and the Egyptian Poll-Tax», *J.R.S.* XXXVII (1947), p. 20.

الطارئه . ولذلك كانت هـــذه الضريبة مرهقة لهم كل الإرهاق، وملائمة كل الملائمة لجباتها الذين كانوا مسئولين بأشخاصهم وأملاكهم عن تحصيل نصابهم كاملا . وقـــد تدهورت قيمة النقود ، ولم يرتفع معدل ضريبة الرأس إرتفاعاً يتناسب مع انخفاض القيمة الشرائية للعملة ، ولم يعـــد فى وسع المرهقين بالضرائب ، عندما كان اليأس يستبد بهم ، سوى الاختفاء عن أعين السلطات . ولا ريب فى أنه كان من الأيسر على الجباة أن يقتفوا أثر الضريبة النوعية وأن يضعوا أيديهم عليها . هذا إلى أن « التموينية العسكرية » كانت ضريبة جماعية ، لا فرديه كضريبة الرأس . فإذا ماتهرب شخص من أدائها كانت جبايتها من أقرانه المتخلفين فى القرية أيسر منها فى حالة الضريبة النقدية. وينبغى أن نضيف هنـا أن الحكومة كانت تقبل دفع هـذه الضريبة نقداً بدلا من دفعها عيناً عندما تقتضى المصلحة ذلك . ويبدأ ظهور إيصالات « التموينية العسكرية » فى أوراق البردى منذ عهد سپتيميوس سفيروس ، ويزداد عددها بإطراد خلال القرن الثالث .

ومن المألوف أن يظهر حتى فى أوقات التدهور الاقتصادى العام ، رجال أعمـال مغامرون ، فى وسعهم اعتمادا على رأس مال كاف ، أن ينتفعوا من الأحوال السائدة ، وذلك باستثمار أموالهم وفقا للظروف

المتغيرة(١). وهذا ماحدث حينذاك كما يتبين لنا من برديات هيرو نينوس (Hêrôninus) (٢) ، وهى مجموعة طريفة من الوثائق ترجع إلى منتصف القرن الثالث وتتضمن الأوراق الخاصة بالشخص المذكور ، الذى كان ناظراً على بعض الضياع الكبيرة فى قرية ثيادلفيا Theadelphia [بطن حريت] بإقليم الفيوم . وكان فى مقدمة الملاك الذين التحق هيرو نينوس بخدمتهم ، رجل يدعى ألوپيوس (Aiypius) . ولم يكن ألوبيوس فيما يبدو يشغل منصباً رسمياً وإن كان اسمه قد ورد مرة مقرونا بلقب من ألقاب التشريف يقابل فى اللاتينية عبارة « vir egregius » أى «صاحب السعادة» ، مما يوحى بأنه كان رجلا ذا مقام كبير ومكانة مرموقة . وكان من بين هؤلاء الملاك رجل آخر يدعى أپيانوس (Appianus) ، وهو « xêgêtês » سابق من الإسكندرية ، وثالث

---

(١) قارن :

Claire Préaux, *Actes du Ve Congrès Intern. de Papyrologie, p. 348:*

« عندما يكون ظهور الملكية الخاصة فى بلد مكتظ بالسكان نتيجة لازدياد ثروة الافراد ، والتوسع الكبير فى التبادل التجارى ، ينتهى الامر بانقسام الاراضى الى ملكيات صغيرة . وعلى العكس ، اذا اقترن ازدياد نفوذ الافراد الشخصى (من الناحية القانونية) بأوقات الكساد الاقتصادى ، فان الاراضى ، بعد خروجها من يد الملك ، تؤول حتما الى هؤلاء الافراد الذين يتمتعون دون سواهم بقسط من الثراء »

(٢) يجد القارىء أهم مجموعة منشورة من هذه البرديات فى P. Flor. II . ويقوم الآن عالم بلجيكى ، وهو الدكتور J. Bingen بدراسة عن أوراق هيرونينوس ، بما فى ذلك بعض الوثائق غير المنشورة المودعة فى المتحف البريطانى وغيره من الاماكن .

اسمه هيراكليديس (Hêraclidês) ، كان عضوا بمجلس الشورى ومديراً لمعهد التربيـة بأرسينوى . وأما ألوپيوس فكانت لديه بطانة كبيرة من الخدم والكتبة والوكلاء ، ومن إليهم ، ويملك ضياعاً شاسعة فى أنحاء عديدة من الفيوم . على أن الباحثين لم يتفقوا بعد فيما إذا كان ألوپيوس وأمثاله كانوا ملاكا أم مجرد مستأجرين للأراضى العامة . إننى شخصياً أميل إلى الأخـــذ بالرأى الأول ، غير أن المسألة ليست بذات أهمية كبيرة ، لأنه حتى ولو كانت الأراضى مملوكة للدولة فإنها كانت تؤجر لهؤلاء الأفراد بمقتضى عقود وراثية . وتلك كانت إحدى الطرق التى تحولت بها الأراضى العامة بمرور الزمن إلى أراض خاصة . الواقع أن ألوپيوس ـ وهذا أمر يكاد لا يرقى إليه الشك ـ كان رائداً لهؤلاء النبلاء الكبار أرباب الضياع الشاسعة ، الذين سنلتقى بهم فى أواخر العصر البيزنطى . لكننا نلمس حتى منذ القرن الثالث بوادر انقلاب زراعى كبير . لقد كانت الظاهرة المميزة لمصر من الناحية الزراعية فى العصر الرومانى هى المجتمع الريفى الذى يتألف من صغار الملاك ومستأجرى الأراضى العامة . غير أننا سنرى عند التعرض لتاريخ مصر الاقتصادى فى القرن السادس الميلادى أن الأراضى العامة لا وجود لها تقريباً ، وأن أبرز ظاهرة عن مصر وقتئذ أنهـا كانت بلدا ينقسم مجتمعه إلى نبلاء كنبلاء الإقطاع ، وفلاحين شبه عبيد . وقد بدأ هذا التطور الذى انتهى إلى هذه النتيجة فى القرن الثالث فيما يرجح . ولا نجد لسكرات الموت التى

كانت تعانيها الإمبراطورية إلا صدى ضئيلا فى أوراق هيرونينوس التى تدور حول شئون مصلحية عاجلة ، وإليك مثـــلا منها : يكتب ألوپيوس إلى هيرونينوس قائلا « توقع حضورنا لزيارتك بمشيئة الله فى يوم ٢٣ . وبمجرد استلامك خطابى هذا ، فلتتأكد من تجهيز الحمام بالماء الساخن ، واستحضر له الحطب واجمع التبن أينما تستطيع الحصول عليه حتى يتيسر لنا الاستحمام بماء دافىء فى هذا الطقس الشتوى . فقد عزمنا على النزول ببيتك كى نقوم بتفتيش بقية الضياع وتنظيم العمل فى القسم الخاص بك . لكن لا تنسى أن تعـــد جميع لوازمنا ، وفى مقدمتها خنزيراً مناسبا لجماعتنا ، ولتحرص على أن يكون بدينا لاهزيلا أو لاخير فيه كالمرة السابقة . وكلف الصيادين أيضاً أن يحضروا لنا اسمكا . وجهز مقدارا وفيراً من الكلأ الأخضر حتى تجد بهائمى هى لأخرى كفايتها من العلف » (١)

ولعل هذا الخطاب وعشرات أخرى على نمطة تذكرنا أنه وراء مسرح الحروب والثورات والانقلابات الاجتماعية والاقتصاديه ، التى يعنى المؤرخ بتدوينها ، كان موكب الحياة يسير على وتيرته المألوفة ، فالرجل العادى كان أكثر اهتماماً بمصالحه الشخصية ، والصفقة التجارية ، والاحتفال العائلى ، ووجبة الغد ، منه بالمعارك النائية أو

(١) P. Flor. II, 127 = *Select Papyri* I, No. 140.

تطور الوضع الاجتماعى. (١)

اصلاحات دقلديانوس ومحاولة وقف الانهيار :

وفى خريف عام ٢٨٤ م . نادى الجيش الرومانى فى الشرق بقائد الحرس الخاص ديوكليس (Dioclês)، الذى تسمى منذذلك الحين باسم دقلديانوس (Diocletianus) ، إمبراطوراً، فاعتلى العرش عقب موت كارينوس (Carinus) . كان دقلديانوس سليل أسرة رقيقة الحال من دلماتيا، وجندياً متزناًوإن أعوزه النبوغ ، وسياسياًواسع الأفق خصب التفكير،ذا مقدرة على الابتكار،ومطبوعا على البشر والتفائل .وقد ألقيت على عاتقه مهمة من أشق المهام ، ألا وهى إنقاذالامبراطورية من براثن الانحلال ، ولم تكن تنقصه الشجاعة أو القدرة على النهوض بها .وتعتبر إصلاحاته إحدى نقط التحول العامةفى التاريخ.وكان"حكم المواطن الأول" (principatus) ، المتمتع بسلطة الاعتراض على سائر السلطات ، قد حل مكانه "حكم السيد " (dominatus) ، أو حكم الإمبراطور المؤله المتمتع بالسلطة المطلقة ، غير أنه كانت لا تزال هناك آثار ضئيلة من نظام الحكم الجمهورى ، كتوزيع السلطات ، على الأقل من ناحية الشكل ، بين الامبراطور والسناتو . لكن الحكم يصبح بتولى

(١) يستشهد المؤلف هنا تأييدا لما يقوله ببعض أبيات مشهورة لشاعر انجليزى غير معروف تدل على نفس المعنى .

دقلديانوس العرش استبدادياً مطلقاً . صحيح أن بيزنطه لم تصبح عاصمة للإمبراطورية إلا فى عهد قسطنطين الأكبر ، ومع هذا فإننا نشعر بأننا على أبواب العصر البيزنطى . نحن ما زلنا فى العالم القديم ، بيد أننا نستشعر بعض مظاهر الحياة الخاصة بالعصور الوسطى .

ولما أحس دقلديانوس بجسامة مهام الامبراطوريه ، قرر أن يستعين بزميل له على أعباء الحكم ، وكان النظام ، فى شكلة النهائى يقضى بأن يتولى الحكم فى نفس الوقت إمبراطوران يحمل كل منها لقب " أوغسطس " على أن يستعين كل منهما بمساعد يعتبر وريثاً له ويحمل لقب «قيصر» [١] . وحرصاً منه على تجنيب الامبراطورية خطر الاضطرابات الناجمة عن أطماع حكام الولايات الذين يتمتعون بالسلطتين العسكرية والمدنية ، وربما لإحساسه بأن الأعباء الملقاة على عاتق حكام الولايات متشعبة إلى حد أنهم لا ينهضون بها على الوجه الأكمل ، فقد أعاد تنظيم الولايات ؛ وألغى التفرقة بين الولايات السناتورية والولايات الامبراطورية ،وقلل مساحةالولايات ، وفصل

---

[١] وتبعا لذلك انقسمت الامبراطورية الى أربعة أقسام كبيرة وهى الغال ، وايطاليا ، والليريا ، والشرق ٠ وكان القسم الاخير (praefectura Orientis) يشمل طراقيا والاراضى الآسيوية ومصر ٠ وتيسيرا للعمل كان يعاون كلا من الاوغسطين والقيصرين فى قسمة حاكم عام يسمى (praefectus praetorio)
أنظر : Bury, *History of the Later Roman Empire* I, p. 26

السلطة العسكرية عن المدنية ، ثم أدمج الولايات فى وحدات إدارية كبيرة تعرف كل منها باسم (dioecêsis) [١] وقسمت مصر التى كانت حتى ذلك الوقت ولاية واحدة إلى ثلاثة أقسام وهى (Aegypus Herculia) و (Aegyptus Jovia) و (Thebais) [٢] ووضع كلاً من القسمين الأول والثانى تحت إمرة حاكم يحمل لقب (praeses) ، ووضع القسم الثالث ، الذى يشمل الاسكندرية ، تحت إمرة حاكم يحمل اللقب

---

[١] وكان عدد هذه الوحدات الادارية أو « الادارات » يبلغ ١٢ ، ٧ منها فى الغرب ، ٥ فى الشرق . وكان حاكم عام القسم الشرقى (انظر الحاشية السابقة) يسمى praefectus praetorio per Orientem يهيمن على أربع منها وهى ادارة طراقيا وادارة آسيا وادارة بونطس، وما يعرف باسم ادارة الشرق dioecesis Orientis (وهى غير القسم الشرقى) ، التى تشمل سوريا وفلسطين والعراق وقبرص ...الخ وكذلك مصر . وكان على رأس كل ادارة نائب عن الحاكم العام يحمل لقب « vicarius » فيما عدا « ادارة الشرق » التى كان على رأسها حاكم يعرف باسم « كونت الشرق » (comes Orientis) وقد ظلت مصر جزءا تابعا لهذه الادارة حتى حوالى عام ٣٨٢ م . حين انفصلت وأصبحت ادارة مستقلة باسم Aegyptiaca dioecosis وعلى رأسها حاكم يحمل لقب praefectus Augustalis ، أنظر :
Bury, *op. cit.* p. 27 ; Wilcken, *Grusdzüge,* pp. 72-4.
قارن أيضا ص ٢٣٨ هامش ٢ من هذا الكتاب .

[٢] وتقابل هذه الاقسام على وجه التقريب الاقسام الادارية الثلاثة فى عهد الرومان التى كان على رأس كل منها مدير عام (قارن ص ١٣٥ أعلاه ، وانظر ص٧٢ من كتاب فليكن المشار اليه فى الحاشية السابقة) . والتسمية Herculia نسبة الى الاله هراكليس راعي الامبراطور مكسيميان الذى كان يحمل لقب Herculius وأما Jovia فنسبة الى جوبيتر ، كبير آلهة الرومان ، وراعى الامبراطور دقلديانوس الذى كان يحمل لقب Jovius .

القديم (praefectus Aegypti) ، أى حاكم مصر ، ويتمتع بسلطة أعلى من سلطة زميليه الآخرين (praesides) ؛ ولكنه يخضع مثلهما لسلطة « كونت الشــــرق » المسمى (comes Orientis) ، والذى كانت مصر تابعة لإدارته dioecesis Orientis [١] . وكان حكام مصر الثلاثة موظفين مدنيين ، وأما السلطة العسكرية فقــد وضعت فى يد قائد يسمى (dux Aegypti) أو " دوق مصر " .

وبعدئذ أصلح دقلديانوس النظام المـالى اصلاحا جوهرياً شاملا متخذاً من ضريبة التموينية أساساً لهذا الاصلاح ، بعد أن نظم ميعاد جبايتها وثبت معدلها، وكانت حتى ذلك الحين ضريبة متغيرة تجبى فى أوقات غير محددة . ففى كل عام كانت الحكومة تقوم بتقدير الضريبة اللازمة لسد حاجيات الامبراطورية خلال السنه (indictio) ؛ وتحدد فيه نصاب كل ولاية ثم تخطرها بذلك عن طريق المنشور (أوالتفويض الإمبراطورى) الخاص بفرض الضريبة (delegatio) . وكان تقدير الضريبة فى أول الأمر يجرى مرة كل خمس سنوات ، ثم صـار فيما بعد يجرى مرة كل خمس عشرة سنة . وهذا التقدير يقوم على أساس ما يمكن تسميته بوحدة الانتاج ، التى كانت فى حالة الأراضى تعرف

---

[١] قارن ص ١٩٥ حاشية ١ أعلاه .

باسم (iugum) ، وهى مساحة الأرض التى يستطيع أن يزرعها رجل واحد،وهذه المساحة تختلف باختلاف نوع الأرض. ففى سوريامثلاً كان الـ iugum يعادل عشرين أو أربعين أو ستين فداناً انجليزيا من الأرض الصالحة للزراعة ، وخمسة أفدنة من الأرض المنزرعة كروما أو ٢٢٥ شجرة زيتون (أو ٤٥٠ شجرة فى المناطق الجبلية) . وكانت وحدة الانتـــاج بالنسبة للأفراد هى الـ caput أى الرأس ، وقد عوملت المرأة باعتبارها نصف رأس .

وقد نجم عن هذه التغييرات تبسيط كبير فى النظام المعقد الذى كان سائداً فى العصر الرومانى ، واختفت من الوثائق معظم الضرائب التى كانت مألوفة فى ذلك العصر .ومن محاسن الصدف أننا عثرنا على بردية منذ وقت غير بعيد عليها نص المنشور الذى أعلن فيه حاكم مصر أرستيوس أپتاتوس (Aristius Optatus) ، الاصلاح الجديد :

« حيث أنه تناهى إلى علم إمبراطورينا المدبرين ، دقلديانوس ومكسيميان الأوغسطين ، وإلى قسطنطيوس ومكسيميان القيصرين الأمجدين ، أن تقديرات الدخل العـام تتم بطريقة يترتب عليها أن بعض الناس لاتقع عليهم إلا أخف الأعباء ، فى حين أن البعض الآخر يرهقون بها أشد الارهاق ، فقد رأوا أن من الخير أن يستأصلوا هذا

هذا الشر الوبيل حرصاً على صالح رعاياهم فى الولايات ،وأن يضعوا قاعدة سليمة لجباية الضرائب فى المستقبل . ولذلك أصدرت إعلاناً رسمياً بمقدار الضريبة المفروضة على كل « أرورا »[١] تبعاً لنوع الأرض ، وعلى كل فرد من سكان الريف ، محدداً السن الأقصى والسن الأدنى لمن هم خاضعون لها طبقاً للمرسوم الإلهى الذى أصدروه ، والمذكرة الملحقة به »

فى هذا المرسوم نجد أنه قد نص على كل من وحدة الانتاج بالنسبة للأراضى (iugatio) ووحدة الانتاج بالنسبة للأفراد (capitatio) ، وسنرى فى الفصل الثانى ما ترتب على إصلاحات دقلديانوس من نتائج .

---

[١] كانت وحدة الإنتاج فى مصر هى الارورا (aroura) وليست الـ iugum كما هو الحال فى غيرها من ولايات الامبراطورية،
أنظر : Johnson, *Egypt and the Roman Empire*, p. 75
وعن مساحة الارورا ، أنظر ص ٩٠ حاشية ٢ أعلاه .

أباطرة الرومان

أوغسطس		٣٠ ق.م. ـ ١٤ م.
تيبريوس		١٤ ـ ٣٧ م.
جايوس (كاليجولا)		٣٧ ـ ٤١ م.
كلوديوس		٤١ ـ ٥٤ م.
نيرون		٥٤ ـ ٦٨ م.
الاباطرة الاربعة (جالبا ـ أوتو ـ فيتيليوس ـ فسباسيان)		٦٨ ـ ٦٩ م.
فسباسيان		٦٩ ـ ٧٩ م.
تيتوس		٧٩ ـ ٨١ م.
دوميتيان		٨١ ـ ٩٦ م.
نرفا		٩٦ ـ ٩٨ م.
تراجان		٩٨ ـ ١١٧ م.
هادريان		١١٧ ـ ١٣٨ م.
أنطونينوس بيوس		١٣٨ ـ ١٦١ م.
ماركوس أوريليوس	(مع فيروس	١٦١ ـ ١٦٩ م.)
	(منفردا	١٦٩ ـ ١٧٧ م.)
	(مع كومودوس	١٧٧ ـ ١٨٠ م.)
كومودوس		١٨٠ ـ ١٩٢ م.
سبتيميوس سفيروس	(منفردا	١٩٣ ـ ١٩٨ م.)
	(مع كراكلا	١٩٨ ـ ٢٠٩ م.)
	(مع جيتا وكراكلا	٢٠٩ ـ ٢١١ م.)
كراكلا		٢١٢ ـ ٢١٧ م.
هليوجابالوس		٢١٨ ـ ٢٢٢ م.
الاسكندر		٢٢٢ ـ ٢٣٥ م.
ماكسيمينوس وماكسيموس		٢٣٦ ـ ٢٣٨ م.
جورديانوس		٢٣٨ ـ ٢٤٤ م.
فيليب (العربي) وابنه فيليب		٢٤٤ ـ ٢٤٩ م.

ديكيوس		٢٤٩ ـ ٢٥١ م٠
جالوس وفولوسيانوس		٢٥١ ـ ٢٥٣ م٠
فاليريان وجالليينوس		٢٥٣ ـ ٢٦٠ م٠
جالليينوس		٢٦٠ ـ ٢٦٨ م٠
كلوديوس الثانى		٢٦٨ ـ ٢٧٠ م٠
أوريليان		٢٧٠ ـ ٢٧٥ م٠
بروبوس		٢٧٦ ـ ٢٨٢ م٠
كارينوس		٢٨٢ ـ ٢٨٤ م٠
	(منفردا	٢٨٤ ـ ٢٨٦ م٠)
دقلديانوس	(مع ماكسيميان	٢٨٦ ـ ٢٩٣ م٠)
	(مع ماكسيميان والقيصرين	٢٩٣ ـ ٣٠٥ م٠)

مراجع الفصل الثالث

Milne (J.G.), *A History of Egypt under Roman Rule.* London, Methuen. 3rd edition, 1924.

Bell (H.I.), «Egypt under the Early Principate», *C.A.H.*, Vol. X, chap. X ; « Egypt », ibid., Vol. XI, ch. XVI. I.
Milne (J.G.), «The Ruin of Egypt by Roman Mismanagement», *J.R.S.*, XVII, 1927, pp. 1-13.

Rostovtzeff (M.), «The Roman Exploitation of Egypt in the First Century A.D.», *Journ. of Econ. and Business Hist. I*, 1929, pp. 337-64.

Jouguet (P.), *La Domination romaine en Egypte aux deux premiers siècles après Jésus-Christ.* Alexandrie, Soc. Roy. d'Archéol., 1947.

Bell (H.I.), «Roman Egypt from Augustus to Diocletian», *Chronique d'Egypte*, XIII, 1938, pp. 347-63.

Rostovtzeff (M.), *The Social and Economic History of the Roman Empire.* Oxford, Clarendon Press, 1926.

وقد روجع هذا المؤلف لترجمته الى الالمانية (١٩٣٠)والايطالية.
وانى أنصح من يستطيعون قراءة اللغة الاخيرة أن يرجعوا الى النسخة المكتوبة بها لانها تعتبر فى الواقع طبعة ثالثة للكتاب بعنوان :

Storia economica e sociale dell'impero romano, Florence, «La Nuova Italia» Editrice, 1933.

Johnson (A.C.), *Roman Egypt.*
وهذا الكتاب هو الجزء الثانى من :

An Economic Survey of Ancient Rome, Johns Hopkins Press, 1936.
Jouguet (P.), *La Vie municipale dans l'Egypte romaine,* Paris, Fontemoing, 1911. 6

Wallace (S.L.), *Taxation in Egypt from Augustus to Diocletian.* Princeton University Press, 1938.

Lesquier (J.), *L'Armée romaine d'Egypte d'Auguste à Diocletien,* Cairo, Inst. français d'arch. orientale, 1918.

ونضيف الى قائمة المؤلف المراجع الآتية :

Stein (A.) *Aegypten unter roemischer Herrschaft,* Stuttgart, 1915.

Marichal (R.), *L'Occupation Romaine de la Basse Egypte*, Paris, 1945.

Aly (Abdullatif Ahmed); *The Roman Veterans in Egypt.* (Michigan Diss.) Ann Arbor, 1949.

Stein (A.), *Die Praefekten von Aegypten in der Roemischen Kaiserzeit*, 1950. (Dissertationes Bernenses, Ser. I, Fasc. 1).

الفصل الرابع

العصر البيزنطى

النظام الادارى :

أدت الإصلاحات التى قام بها دقلديانوس - ووصفناها فى الفصل السابق - إلى تغيير جوهرى فى نظام مصر الادارى ، فقد أصبحت البلاد وقتئذ تؤلف ثلاث ولايات بعد أن كانت ولاية واحدة ، وحدث فصل تام بين السلطتين المدنية والحربية ، ونظمت جباية الضرائب وطريقة تقديرها على أسس جديدة، على أن التغيير لم يشمل فى بادىء الأمر ناحية بعينها ، فقد ظلت البلاد مقسمة إلى أقاليم ، ولم تتمتع عواصم هذه الأقاليم بالاستقلال الذاتى الكامل حتى اتخذت الخطوة الحاسمة فى هذا الصدد فى تاريخ غير معروف بين عامى ٣٠٧و٣١٠ عقب تنازل دقلديانوس عن العرش، (أول مايو سنة ٣٠٥) . وبفضل هذه الخطوة لم يعد الإقليم وحدة التقسيم الإدارى ، وألغى منصب «المدير» (stratêgos) - وذلك على الأقل فى شكله القديم - كما ألغى منصب «الكاتب الملكى» . ومنذ ذلك الوقت حمل مجلس الشورى المسئولية الكاملة عن الإدارة المالية والإدارة العامة على السواء . لقد كانت مصر تتألف من عدة أقاليم ، لكل منها عاصمته ومديره الخاص، فأصبحت الآن مجموعة من البلديات (civitates) التى تتمع بالحكم الذاتى ،

وتتبع كل منها منطقة ريفيه تعرف فى اللاتينية باسم (territorium) وفى الإغريقية باسم (enoria) . وقد قسمت هذه المنطقة التى تقابل فى العادة الإقليم القديم (برغم حدوث بعض التعديلات) إلى عدد من المراكز (pagi) تقابل مراكز النظام القديم التى كانت تسمى (toparchiai). وكان يشرف على الإدارة المالية فى كل مركز (pagus) موظف يدعى (praepositus) يخضع لموظف جديد فى البلدية يسمى (exactor)، وهو الذى آلت إليه الاختصاصات المالية لمدير الإقليم الذى آلت بقية اختصاصاته إلى رئيس مجلس الشورى (propoliteuomenos) [١] . وقد أدى هـــذا التشابه الجزئى بين اختصاصات exactor والمدير (stratêgos) إلى أن أصبح الأول يحمل فى بعض الأحيـــان لقب الثـانى ، لكن ذلك لم يكن سوى أثر من آثار النظام القـديم . واستحدثت بعـد ذلك فيما يحتمل ، ولـكن قبل عام ٣٣٦ دون شك ، وظيفة جديدة ، هى وظيفة « النقيب » (defensor) ، وكانت مهمة صاحبها حماية الفقراء (humiliores) من بطش الأغنياء (potentiores) .

وكانت النتيجة النهائية التى تمخضت عنها هذه التغييرات هى أن أصبحت مصر أكثر شبهاً بولايات الإمبراطورية الأخرى عما كانت من قبل ، برغم أن العوامل الجغرافية وغيرها أبقت على قسط معين

---

[١] وكان فى العصر الرومانى يسمى prytanis.

من الاختلاف . والواقع أن أهم هدف سعى إليه دقلديانوس من وراء إصلاحاته كان توحيد النظام الادارى وتبسيطه ، الأمر الذى يؤدى بطبيعته إلى تدعيم قوى الامبراطورية . وتحقيقاً لهذا الهدف اتخذت خطوة أخرى نرى آثارها واضحة فى وثائقنا البردية ، تلك هى اعتبار اللاتينية لغة رسمية حتى فى الولايات التى كانت الاغريقية لاتزال تحتل فيها هذه المكانة مثل مصر . لكن التغيير الفعلى كان تافهاً ، فقد ظلت الاغريقية لغة رئيسية فى المحاكم والادارات الحكومية ، وكانت تصدر بها القرارات العامة . أما النتيجة الجوهرية للنظام الجديد ، تلك التى نراها واضحة فى الوثائق البردية ، فهى أن المحاضر الرسمية للقضايا أصبحت تصدر فى إطار لاتينى ، أى أن العنوان والتاريخ وموضوع القضية كانت تكتب باللاتينية ، وأحياناً كانت ملاحظات الحاكم نفسه (praefectus) تكتب بهذه اللغة ، أما أقوال طرفى القضية والشهود والقضاة ، وكذلك رئيسهم فى كثير من الأحيان ، فظلت تكتب بالاغريقية . وثمة تغيير أبعد من ذلك مدى ، وهو استبدال طريقة تأريخ الوثائق القانونية بسنوات حكم الامبراطور ، بطريقة التأريخ بسنوات القناصل، مع ذكر موقع العام من دورة تقدير الضرائب (indictio) التى تحدث مرة كل خمسة عشر عاماً (١) . وظلت هذه الطريقة متبعة حتى ألغيت القنصلية على أيام الامبراطور

---

(١) أنظر فيما سبق ص ١٩٦ .

جستنيان فأعيد نظام التأريخ بسنوات حكم الامبراطور . وهناك نتيجة أخرى طيبة لسياسة دقلديانوس ، وهى أن عدداً كبيراً من البرديات اللاتينية التى ترجع إلى العصر البيزنطى وصلت إلينا ، لأن تعلم اللاتينية أصبح هدفاً يسعى إليه الحريصون على بناء مستقبلهم .

اضطهاد المسيحيين :

ولا شك أن الرغبة فى التوحيد كانت سبباً من أسباب حركة اضطهاد المسيحيين التى تعتبر الآن أشهر عمل عرف به دقلديانوس . لقد كان الولاء العام لدين الدولة الرسمى هو الرباط القوى الذى يربط بين أجزاء إمبراطورية تضم عديدا من العناصر والأجناس التى تختلف أصلا ولغة وثقافة . ورفض المسيحيون المشاركة فى العقائد الوثنية،فأصبحوا عنصرا غريباً نافراً بين مواطنى الامبراطورية ، وكان طبيعياً أن تتخذ الإجراءات اللازمة لادماجهم أو استئصالهم . ومع ذلك فيدو واضحاً أن الاضطهاد الأكبر لم يحدث بناء على رغبة شخصيّة من دقلديانوس ، فقد أمر به ، وهو كاره له اشد الكراهية ، تحت ضغط شديد من القيصر جاليريوس (Galerius) ومشترطاً ألا تراق فيه دماء ،فلما اشتعلت النيران فى القصر الامبراطورى — وكان ذلك حادثاً مدبراً مثيراً للشكوك كحادث إحراق مجلس الرايخ الألمانى — ازدادت حدة الاضطهاد.ثم استغل جاليريوس فرصة إصابة دقلديانوس

بمرض خطير لإصدار قرار جديد بفرض عقوبة الاعدام على المسيحيين . ولقد قيل إن تنازل دقلديانوس عن العرش لم يكن غير ذى صلة باستيائه من الأمور الجارية (١) . ومهما يكن من شيء فقد احتدمت المعركة حينئذ ، وقدر لها أن تكون معركة فناء . فدمرت الكنائس ، وأحرقت الكتب السماوية والكتب الدينية ، وكثر عدد المستشهدين . وكان ذلك أعنف اضطهاد تعرض له المسيحيون حتى إن الكنيسة القبطية فى مصر والحبشة لازالت تؤرخ الأحداث بعصر دقلديانوس أو عصر الشهداء .

ومما قاله ترتوليان (Tertullianus)(٢) «لقد نبتت الكنيسة من أرض روتها دماء الشهداء» ، وإن كلامه ليصدق على هذه الظروف أيضاً : فمن المرجح جداً فى عالم يتعطش أهله إلى القوة الروحية أن يستتبع كل حادث من حوادث الاستشهاد اعتناق كثيرين لهذا الدين

---

(١) أنظر : N.H. Baynes, *C.A.H.* Vol. XII, p. 668.
وانظر أيضا المراجع الملحقة .

(٢) أنظر :
Apol. 1, « Plures efficimur quoties metimur a vobis : semen est sanguis Christianorum. »
وترجمتها : « ان أعدادنا لتتزايد بالقدر الذى تستأصله منا ،لاننا نتبت من الارض التى ترويها دماء المسيحيين »
[ويعتبر « الدفاع » Apologia الذى اقتطفت منه هذه العبارة من أهم ما كتب ترتوليان (١٦٠ — ٢٣٠ م)]

الجديد الذى استطاع أن يلهم أتباعه مثل هذه الشجاعة . وينبغى أن نذكر كذلك أن الكنيسة لم تكن تحيى ذكرى الشهداء فقط ، وإنما كانت تحتفى أيضاً «بالمعترفين» ، هؤلاء الذين كانوا على استعداد لمواجهة خطر الموت ، رجالا كانوا أم نساء ، وإن لم يتعرضوا له فعلا . لقد مات المئات ، لكن آلافا غيرهم ألقوا فى غياهب السجون فحسب ، أو حكم عليهم بالنفى إلى أطراف الامبراطورية النائية حيث ضربوا هناك مثلا رائعاً فى الشجاعة ، ولم تفتر حماستهم فى اجتذاب الناس إلى دينهم الجديد. وهكذا لم يؤد نفس العلاج الذى أريد به القضاء على وباء المسيحية إلا إلى ازدياد انتشار عدواه . وإذا أخذنا بما جاء فى الأوراق البردية ، فقد كانت مصر فى عام ٣٠٠ بلدا وثنياً فى جوهرة ، برغم وجود عدد كبير من المسيحيين ، بينما أصبحت فى عام ٣٣٠ بلداً يدين معظم أهله بالمسيحية . ولا شك أن بعض هذا الانقلاب كان راجعا إلى توقف الاضطهاد لا إلى استمراره ، فقد حدث فى الثلاثين من شهر إبريل عام ٣١١ أن أصدر جاليريوس ، وكان يعانى مرضاً كريها ، قراراً بوقف الاضطهاد ، ملتمساً من المسيحيين أن يصلوا من أجله ، ولقد استجابوا له ، ولكن دون جدوى ، إذ قضى نحبه بعد ذلك بأيام قلائل .

المسيحية ديانة رسمية :

ولم ينقطع الاضطهاد تماماً بعد ذلك ، لكنه كان متقطعاً ومحليا إزاء سياسة التسامح التى انتهجها كل من قسطنطين (Constantius) وماكسنتيوس (Maxentius) فى الغرب . وفى عام ٣١٢ قص قسطنطين بنفسه ، وكان عندئذ قد اختلف مع ماكسنتيوس وتأهب لمحاربته ، رؤياه الشهيرة على مؤرخ الكنيسة يوسيبيوس (Eusebius) [١]: فقد رأى صليباً على قرص الشمس وعليه عبارة (hoc vince) أى « بهذا انتصر » . وطبيعى أن يرفض شكاك مثل سيك (O. Seeck) قبول قصة كهذه باعتبارها « أكذوبة لا شك فيها » ، وأن يعزو التغيير الذى طرأ على موقف قسطنطين إلى دوافع سياسية خالصة . لكن هذا المؤرخ ، بصرف النظر عن مكانته وشهرته ، رجل متحرر يحاول تفسير تاريخ القرن الرابع على الأسس العقلية المنطقية الحديثة . وليس هناك سبب كاف يحدونا إلى الشك فى أن قسطنطين قد اعتقد أن وحيا هبط عليه . وبرغم أن الاعتبارات السياسية كانت فيما يبدو توحى باتباع سياسة التسامح الدينى ، فإننا بلا ريب نجانب الصواب إذا افترضنا أن قسطنطين ـ وقد عبد إله الشمس الذى

[١] ويكنى بامفيلى Pamphilii تخليدا لصداقته بأسقف قيصرية بامفيليوس Pampuilius وقد ولد يوسيبيوس في فلسطين حوالى عام ٢٦٤ ، وعين أسقفا لقيصرية فى عام ٣١٥ . وتوفى حوالى عام ٣٤٠ . وله مؤلفات عديدة أهمها « التاريخ الكنسى »

لايقهر - لم يتأثر بالأفكار الدينية أيضا . وليس من شك فى أنه كان واثقا تماما من إحراز النصر حتى لقد غزا إيطاليا وأقدم على اقتحام حصن روما المنيع بقوات غير كافية دون أن يعبأ بنصيحة قادته أو نبوءات عرافية . وكان الصليب مرسوما على دروع رجاله عندما خاضوا غمار معركة كوبرى ملفيا (Milvian Bridge) التى أتاحت له السيادة على الغرب (١) . وفى عام ٣١٣ أصدر هو وحليفه ليكينيوس (Licinius) مرسوم ميلانو الشهير الذى أقر مبدأ التسامح الدينى. وعندما انتصر على ليكينيوس فى سبتمبر عام ٣٢٣ ؛ ووجد نفسه الامبراطور الوحيد ، أصبح الطريق معبداً أمام المسيحية كى تصبح أولا ديانة الامبراطورية الرئيسية ، ثم الديانة الرسميه الوحيدة فى جميع أرجائها .

ولقد كتب دانتى (Dante) يقول (٢) : " ايه قسطنطين ، ما أكثر الشرور التى نجمت لا عن اعتناقك المسيحيه ، وإنما عن تلك الهبة التى قدمتها لله الغنى " وإن هبة قسطنطين المزعومه التى يشير إليها دانتى محض خرافة ، ولكن فى وسعنا مع ذلك أن نشعر أن اعتناق الامبراطور للمسيحية لم يكن خيراً كله . فلم يعد اعتناق هذا الدين يعنى مجرد الأمان

---

(١) انظر :
N.H. Baynes, « Constantine the Great and the Christian Church » in *Proc. of Brit. Acad.* XV, 1929, p. 347.

(٢) *Inferno*, XIX. 115-17.

وإنما أصبح بدعه العصر ، وأسرع كثير من نهازى الفرص إلى اعتناق الدين الجديد .

الجدل حول طبيعة المسيح :

وفضلاعن ذلك، فقد أصبحت الكنيسة حرة فى تشجيع هذا الميل الى الجدل الدينى الذى سبب لها المتاعب حتى فى أيام الاضطهاد . وليست قصة المهاترات الدينية التى شهدها القرن الرابع والقرون التالية بما تخللها من أحقاد مريرة ، وأطماع وخصومات فردية ، وأساليب تنطوى على الخداع والتضليل ، ليست هذه القصة التى لا نجد فيها أثراً لتعاليم المحبة المسيحية بالقصة المحبية إلى النفوس . وقد نتسامح فنعتبر هذه المهاترات بمثابة آلام المخاض المتزايدة التى عانت منها الكنيسه وهى تبذل جهدها المضنى لتصوغ هذه الديانة الجديدة ، التى قامت على تعاليم وسيرة فردبعينه ، فى قالب فلسفى معنوى . ولم تكن البدع التى أنكرها المتزنون من رجال الكنيسة سوى محاولات لهـــذه الصياغة . وحتى هؤلاء الذين ينكرون مذهب الايحاء لابد أن يعترفوا لرجال الكنيسة الأوائل بقدر كبير من الذكاء الفطرى ، فقد كانت معظم البدع التى أنكروها أشبه شىء بالطريق المقفل ، فهى لاتؤدى إلى شىء ، أو كانت صوراً من الانحراف الفكرى .

وينبغى أن نلحق بالفئة الأولى بدعة آريوس (Arius) التى احتلت

مكاناً بارزاً فى تاريخ مصر والامبراطورية كلها فى خلال القرن الرابع.
وكان آريوس الذى ابتدع هذا المذهب قساً فى كنيسة الإسكندرية .
أما أكبر معارضيه فكان القديس أثناسيوس (Athanasius) أحد أبناء الاسكندرية وأسقفها خلال أعوام كثيرة . ولا بد من الاعتراف بأن أثناسيوس لم يكن ألطف شخصية بين آباء الكنيسة الأوائل . لقد كان رجلا حر التفكير ، محباً للسلطة ، طموحاً ، لا يطيق المعارضة .
ولكنى لا أشارك « سيك » رأيه فى أن أثناسيوس كان يزيف الوثائق ، أو أنه كان يكذب عامداً. لقد كان ـ دون شك ـ غير جاهل بفن إخفاء الحقائق (suppressio veri) واختلاق الأكاذيب (suggestio falsi) ، كما كان أستاذاً فى سلاطة اللسان، وبرغم ذلك ، وبصرف النظر عن أن أخطاءه كانت تقابلها فضائل قيمة حقاً ، وأنه كان يقل صلابة ويزداد تسامحاً كلما تقدمت به الأعوام ، فإن المؤرخ العادل لا يسعه إلا أن يعترف بأنه كان على صواب إذا وضع ظروفه موضع الاعتبار . لقد انقضى العهد الذى كان التوحيد فيه موضع جدل بين المسيحية والوثنية.
وأياً كان نوع التفكير لدى الدهماء ، فإن المتعلمين من الوثنيين كانوا فى حقيقة الأمر موحدين يكادون لا يفرقون فى حديثهم بين « الله » و« الآلهة » . ولم تعد الآلهة حينئذ كائنات مستقلة بقدر ما أصبحت

صوراً لقوة مقدسة واحدة (١) . أما مثار الجدل الحقيق فكان فى العلاقة بين الله والإنسان . ذلك أن فكرة سمو الإله وتعاليه قد تغلغلت فى ضمائر المتعلمين ، بينما تزايدشعور الناس بأوزارهم وانحلالهم . فأدى ذلك إلى مزيد من الصعوبة فى إيجاد نقطة إلتقاء بين العابد والمعبود ، وتخيل الناس سلسلة طويلة من الأرواح التى يمكن أن يتم الاتصال عن طريقها . ومع ذلك بقيت هناك ثغرة لم تغلق . والواقع أن الميزة الكبرى التى امتازت بها المسيحية ، وأكاد أقول ورقتها الرابحة ، كان عقيدة التجسد ، وإيمانها بمنقذ كان إلهاً وبشراً فى آن واحد : « إله من طبيعة أبيه » و « بشر من طبيعة أمه » كما جاء فى مذهب أثناسيوس (وهو مذهب لم يكتبه أثناسيوس) . ولقد استطاع آريوس بإنكاره مذهب الطبيعة الواحدة أن يقطع هذا الاتصال الذى أوجدته المسيحية بين تعالى الإله وتفاهة الإنسان . وإذن فعندما كانت الأوامر الامبراطورية تصدر متوعدة الأساقفة المتمردين ، وعندما كانت المجامع الكنسية تجتمع من أطراف الامبراطوريه ، وعندما كان بعض رجال الكنيسة يصدرون قرارات الحرمان ضد البعض

---

(١) أنظر :

«Godhead was one ; there were many telephone lines and they ran through a number, smaller but appreciable, of different switchboards». A.D. Nock, *J.R.S.* XXXII, 1947, p. 104.

ومعنى هذه العبارة هو « ان الاله لواحد ، لكن هناك عدة طرق مختلفة توصلنا اليه . »

الآخر ، وعندما كان الدهماء يسطون على الكنائس فيخربونها ويحطمون رءوس معارضيهم ، لم يكن الجدل حول طبيعة المسيح وهل هى نفس طبيعة الأب (homoousios) أم مشابهة لها (homoiousios)، لم يكن كما قيل عنه مجرد مهاترة حول حرف واحد من حروف الأبجدية الإغريقية ، هو أصغرها جميعاً ، وذلك برغم أن الكثيرين من اشتركوا فى هذا الجدل لم يفهموا من خفاياه اللاهوتية إلا النذر اليسير ، وأياً كانت الأطماع التى جالت بخاطر أثناسيوس ، وسواء أكانت شخصية أم سعياً وراء كرسى أسقفية الإسكندرية (ومن ذا الذى يستطيع أن يستجلى غوامض النفس البشرية ؟) ، فقد كان أثناسيوس فى خضم المعركة ، وكان يعرف أنه يقاتل لتقرير مبدأ خطير فى الديانة المسيحية، وكان حتما عليه أن يحتمل الكثير من الآلام نظرا لصلابته وشدة مراسه (١) ولقد نفى ثلاث مرات ، ولكن الأقدار

---

(١) لدينا بردية محفوظة بالمتحف البريطانى (P. Lond. 1914) وهى خطاب أرسله أحد المنشقين أتباع ميليتيوس فى الاسكندرية الى زميل من زملائه • ويمدنا هذا الخطاب بصورة واضحة لاعمال أثناسيوس ضد هؤلاء المارقين اذ جاء فيه : « لقد قبض على أحد أساقفة مصر السفلى واحتجزه فى سوق اللحوم ، كما سجن أسقفا من نفس الجهة وشماسا فى السجن الرئيسى • وحتى الثامن والعشرين من شهر بشنس (Pachon) ظل هيرايسكوس (Heraiscus) ايضا (يحتمل أنه أسقف من الاسكندرية نادى به أتباع ميليتيوس بدلا من أثناسيوس) حبيسا فى المعسكر ــ والحمد لله ربنا أن انتهت الآلام التى قاساها ــ وكان (أثناسيوس) فى السابع والعشرين قد =

أبقت على حياته ليشهد انتصار مبدئه . وبرغم وجود معارضين له فى مصر نفسها . وهم أتباع مذهب آريوس والمنشقين من أتباع ميليتيوس (Meletius) [١] . إلا أنه كان يستطيع أن يطمئن إلى معونة صادقة من جمهور الكنيسة المصرية .

الرهبنة :

وفى تلك الآونة طرأ على الموقف عامل جديد أدى إلى حدوث تغيير كبير فى طابع هذه الكنيسة . ونعنى به ظهور الرهبنة التى تعتبر أهم نظام استحدثته مصر فى الديانة المسيحية . والتى يكتنف الغموض نشأتها . ومن الإسراف فى الرأى أن نربط هذا النظام بنظام الزهد أو التنسك (enkatochê or katochê) الذى عرف فى عبادة سرابيس ،

= طرد سبعة أساقفة من البلاد . » كما يصور لنا الخطاب أيضا تردده عندما استدعاء قسطنطين لمجمع صور فى عام ٣٣٥ : « أن أثناسيوس لشديد اليأس، فكثيرا ما استدعوه، لكنه لم يغادر البلاد حتى الآن، فقد كان يضع أمتعته فى السفينة كما لو كان ينوى الرحيل ، ثم لا يلبث أن يسترد متاعه غير راغب فى ترك البلاد . » أنظر :

H.I. Bell, *Jews and Christians in Egypt*, 1924, p. 62.

ويجد القارى سيرة لاثناسيوس فى :

H.I. Bell, «Athanasius : A Chapter in Church History» in *The Congregational Quarterly*, III, 1925, pp. 158-76.

[١] هو أسقف مدينة أسيوط . واليه ينسب النزاع الميليتى الذى نشأ حول طريقة معاملة الراغبين فى العودة الى المسيحية بعد أن ارتدوا عنها لاسباب مختلفة فى فترة الاضطهاد الاكبر . وكان ميليتيوس ينادى بالتشدد معهم .

ومقتضاه أن بعض الناسكين كان ينقطعون لخدمة هذا الإله ، فيقيمون داخل معبده الكبير فى منف أو غيرها[١]. وكان ذلك يحدث بطريقة غامضة، فلعلهم كانوا يستجيبون لوحى مقدس هبط عليهم فى صورة حلم ، وإن كان محتملا أن المصريين بطبيعتهم كانوا يميلون إلى حياة العزلة والتنسك[٢] ومنذ وقت قريب لفت الدكتور ويلز (C.B. Welles) الأنظار إلى احتمال وجود شبه بين حياة جماعة وثنية ورد ذكرها فى نقش من إخميم (بانوپوليس Panoplis) ، وبين الرهبنة التى عرفتها المسيحية فيما بعد[٣] ، ولا مراء فى أن المسيحية قد داخلها على الدوام لون من ألوان الزهد ، وأن الميول الرهبانية قد وضحت فى الكنيسة المصرية منذ فجر تاريخها ؛ ومن الأمور ذات الدلالة أن أول راهب مصرى نسمع عنه — وهو القديس بولس الطيبى — كان أحد أبناء الصعيد .

(١) أنظر مناقشة فلكن لهذا الموضوع فى : U.P.Z.I, pp. 52-77. [وأيضا H.C. Youtie, «The *Kline* of Sarapis», *Harv. Theol. Rev.* XLI, No. 1 (1948), pp. 9-29.]

(٢) ينبغى أن نلاحظ على أية حال أن هذه العادة قد وجدت فى طقوس عبادة الاله الهلينى سرابيس ، وأن أغلب الناسكين (Katochoi) الذين نعرفهم كانوا من الاغريق أو من المقدونيين • على أنه ينبغى من ناحية أخرى أن نبين أن كلمة (anachôrêtês) التى اشتقت منها كلمة (anchorite) تذكرنا بكلمة (anachôrêsis) أى الفـــرار : وهو منذ أقدم العصور آخر ماكان يلجأ اليه الفلاحون عندما يجاوز مايطنونه حد الاحتمال •

(٣) أنظر :
Trans. Am. Phil. Ass. LXXVII, 1946, pp. 192-206.
«The Garden of Ptolemagrius in Panopolis»
وقد بين الاستاذ روبرتس C.H. Roberts أن جماعة بانوبوليس ربما كانت متأثرة بمدرســة أبيقور الفلسفية ، دون أى أثر مصرى آخر •

وفى وسعنا أن نلمس بين أسباب حركة الرهبنة، ظهور لون من التفكير ذى طابع مصرى خاص . لقد كان إقليم طيبة، كما أسلفت ، أكبر معقل للقومية المصرية وللعبادات الكهنوتية التى تعبر عن هذه القومية تعبيراً صادقا ؛ وعاش أهل هـذا الاقليم - بعيدين عن البحر الذى أصطبغ بالحضارة الهلينة - فى واديهم الضيق تحف بهم الصخور التى دفعت عنهم غائلة الصحارى المترامية ، فأدى ذلك إلى إحتفاظهم أكثر من غيرهم بالذكريات القديمة والمخاوف الغامضة والخرافات التى اندثرت فى الأقاليم الأخرى . ويميل البروتستانت المحدثون ، وكذلك الملحدون ، ميلا شديدا الى اعتبار الرهبنة جبنا وهروبا من مواجهة الحياة ومسئولياتها ، ولعلها كانت لا تعدو أن تكون كذلك فى العصور التالية ، ولعل بولس الطيبى كان كغيرة من الذين لجأوا إلى الصحراء فرارا من اضطهاد الامبراطور ديكيوس (Decius) لكن يحتمل أن الرهبان المبكرين كانوا يرتاعون لو قيل عنهم إنهم يفرون من الحياة . والواقع أنهم كانوا على العكس من ذلك يواجهون عدوهم فى عقر داره؛ ذلك بأن الصحراء كانت تعتبر من قديم الزمن مأوى الأرواح الشريرة، ومملكة الاله ست عدو أوزيريس (١)؛ فإذا ما اتخذ منها أحد الرهبان

---

(١) L. Keimer, «L'Horreur des Egyptiens pour les démons du désert», in *Bull. de l'Inst. d'Egypte,* XXVI, 1943-4, pp. 135-47.

سكناً ، فقد كان يجازف باقتحام معقل العدو ليحارب كتائب الشيطان غير معتمد الا على عون الاله . وهناك فى كنف هذه الوحدة الرهيبة حيث تلفح شمس النهار صخور الصحراء بشواظها المحرق ، وتتراقص فوق الرمال أشعتها التى تخطف الأبصار ، وحيث ترسل نجوم الليل أشعتها الناصعة من قلب السماء الصافية إلى ظلام الصحراء البهيم ، كان الرهبان يصارعون قوى الشر مجتمعة . ولقد يرى عالم النفس الحديث فى معركتهم هذه صراعاً باطنيا ضد شهوات الجسد ووساوس النفس الأمارة بالسوء . لكنهم والمعجبين بهم كانوا يتمثلون عدوهم واضحاً ملموساً فى شياطين الجحيم . وينبغى أن نذكر أنهم لم يحاولوا مجرد حماية أنفسهم فحسب عن طريق عزلة تنطوى على الأنانية والأثرة ، فقد صلوا دون ملل من أجل الآخرين ، وفى وسعنا أن نقول إنهم كانوا جند الفداء المجاهدين فى سبيل الكنيسة ، الذين كانت صلواتهم سلاحاً فعالا فى المعركة المريرة التى خاضتها ضد قوى الشر والظلام .

ولدينا أدلة وفيرة على كثرة التجاء مرضى النفس والبدن إلى هؤلاء الرهبان الزاهدين يلتمسون عندهم البرء والشفاء ، من ذلك تلك المجموعة البردية الطريفة المحفوظة فى المتحف البريطانى ، وهى عبارة عن خطابات موجهة إلى پافنوتيوس (Paphnutius) أحد رهبان القرن الرابع

يضرع إليه أصحابها على اختلاف طبقاتهم أن يصلى من أجلهم (١) . فقد كتب إليه أمونيوس (Ammonius قائلا : " إنى لا علم دائما أن صلواتك المقدسة هى عاصمى من وسوسة الشيطان ومكر الناس ، فأتوسل إليك أن تذكرنى فى صلواتك الطاهرة لأنك ملاذى بعد الله . (٢) كما توسلت إليه سيدة تدعى ڤاليريا (Valeria) فكتبت تقول : "إنى أتوسل وأضرع اليك أيها الأب الموقر أن تطلب لى (العون ؟) من المسيح لعلى أبرأ من علتى ، ويقينى أن صلواتك فيها شفائى ، لأن الرؤيا لاتتحقق إلا على أيدى الرهبان والمقربين ، فلقد دهمنى مرض عضال فى صورة ضيق شديد فى التنفس ، وقد كنت دائما ، ولا زلت ، على يقين من شفائى إذا صليت من أجلى " . (٣) ويقول صاحب حاجة آخر يطلب الشفاعة فى مرضه عن طريق الصلاة مايلى : " الحق أننى أعانى مرضا شديدا ، ولن يعيننى عليه أخ أوغيره من الناس ، وليس لى سوى الأمل الذى أرتجيه فى وجه سيدنا المسيح عن طريق صلواتك " (٤) وأخيرا نجد فى خطاب طلى العبارة كتبه

---

(١) أنظر : P. Jews (= P. Lond.) 1923-9.
(٢) أنظر : P. Jews, 1923
(٣) أنظر : P. Jews, 1926
(٤) أنظر : P. Jews, 1928

شخص يدعى أثناسيوس يظن أنه كبير أساقفة الاسكندرية ، وإن لم يكن ذلك محتملا ، نجد فيه العبارات التالية : " إن لصلواتك قيمتها الكبيرة نظرا للحب المقدس الذى تحظى به ، ولسوف يعمنا الرخاء بالقدر الذى تطلبه لنا فى صلواتك الطاهرة " . (١)

وكانت شجاعة الرهبان وزهدهم فى الحياة سببا فى الإعجاب بهم ، فحذا حذوهم آلاف من الناس ، وأقبل الوافدون من أماكن نائية ـ من ايطاليا واسبانيا وبلاد الغال ـ يريدون رؤية هؤلاء المجاهدين لنصرة المسيح والتحدث إليهم . وتكونت حول القديس أنطون (Antonius) — أشهر الرهبان على الإطلاق — جماعة صغيرة من الرهبان . وقبل منتصف القرن الرابع ، وضع باخوم (Pachomius) نظامه الجديد ، فأصبح فى الواقع منشىء الرهبنة الجماعية [٢] ، وهى النظام الشائع فى الغرب ، وإن كان هناك أيضاً عدد كبير من الرهبان المعتزلين . وبرغم ذلك بقيت الرهبنة الانفرادية محتفظة بمكانتها الهامة إلى جانب الرهبنة الجماعية فترة طويلة.

والواقع أن ضروب القسوة البالغة التى مارسها كثير من هؤلاء

---

(١) أنظر : P. Jews, 1929.

[٢] (Cenobitical monasticism)

الرهبان مثل القديس سمعان العمودى (Simeon Stylites) [١] كانت زعيمة بأن تنتزع الاعجاب حتى من هؤلاء الذين لم يعطفوا على المثل العليا التى كان الرهبان ينشدونها . وحسب المرء أن يلقى نظرة خاطفة على أقوال الآباء المأثورة (Apophthegmata Patrum) ليلمس النظرة الروحية العميقة والحكمة الخلقيـة التى اكتسبها بعضهم . لـكن أصحاب النظرة الواقعية قد يرون أن ازدهار حركة الرهبنة فى القرن الرابع لم يكن على أحسن الفروض خيراً خالصاً : ذلك أنهـا كانت تعنى اعتزال آلاف الناس ميدان الحياة العملية ، وغالباً ما كان هؤلاء ذوى همة عاليـة وإرادة قوية ، بينما كانت الإمبراطورية تعانى نقصاً خطيراً فى الأيدى العاملة ، كما كانت تعنى أيضاً تحـــديداً شديداً لميدان النشاط البشرى وإقفاراً بالغاً فى الحياة الثقافية . وفى وسعنا ونحن ندرس تاريخ مصر البيزنطية أن نستبين بجلاء هذا الاطراد فى ضيق الأفق ، وهذا الجمود العقلى والفكرى . ونحن نجد فى حياة أثناسيوس نفسه نذر الخطر الـكامن فى اعتماده على عون جماعات من الـكهنة المتعصبين ، وهو خطر ازداد وضوحاً فيما بعـد : فأمثال هؤلاء الـكهنـة هم الذين حرضهم البطريرك كيرلـس (Cyrillus) على مهاجمة يهود الاسكندرية وطردهم من

---

(١) لقب بالعمودى لانه أول رهبان الاعمدة الذين كانوا يقضـون أعواما طويلة من حياتهم فوق أعمدة لايبرحونها • وقد عاش سمعان طيلة الثلاثين عاما الاخـيرة من عمره فوق عمود يرتفـع عن الارض عشرين مترا • ولا يزال هذا العمود قائما حتى الآن فى مكان يعرف باسم قلعة سمعان بين انطاكية وحلب فى شمالى سوريا •

المدينة ، وهم الذين قتلوا الفيلسوفة الفاضلةهو پاتيا (Hypatia) [١] بعد ذلك بأعوام قليلة (٤١٥ م) ، وهم أيضاً الذين يبرز نشاطهم فى كثير من الأحداث المماثلة التالية .

أثر المسيحية فى مصر :

ولقد وفق كليمنس (Clemens) واورجنس (Origenes) [٢] فى المزج بين الفكر الإغريقى والعقيدة المسيحية ، وبرهن الأول على أن المسيحى المخلص لابد أن يقدر الأدب الإغريقى تقديراً عظيما . لكن حركة الرهبنة المصرية كانت تناهض ، بصفة عامة ، الحضارة الهلينية وكل ما تتمثل فيه هذه الحضارة . والواقع أن المسيحية (وليس ذلك فى مصر وحدها) قد حررت روح القومية المكبوتة ، وبعثت الحياة فى اللهجات الوطنية . لقد كانت المدينة الحرة المستقلة أكبر مظهر تميزت به الحضارة الهلينية ، وإليها قبل كل شىء يرجع الفضل فيما بلغته هذه الحضارة من ازدهار وقوة ، لكنها فى نفس الوقت كانت أكبر عائق حال دون تغلغل هذه الحضارة فى العالم الشرقى . فحيثما ذهب الإغريق كانوا يعيشون فى مدن أو جاليات مدنية ، تصبح مراكز صغيرة للحضارة الهلينية . غير أن استقرار الإغريق داخل حدود المدينة جعل

---

[١] تلقت علوم الفلسفة والرياضة على يد أبيها (ثيون) ،ورأست المدرسة الافلاطونية الحديثة التى أسسها أفلوطين (P:otinus) فى الاسكندرية . وقد اتهمت بوجود علاقة مريبة بينها وبين حاكم الاسكندرية ، وبأنها هى التى أفسدت صداقة هذا الحاكم بالبطريرك كيرلس ، فهاجمها الكهنة وأدخلوها احدى الكنائس حيث مزقوها اربا .

[٢] قارن ص ١٧٩ فى الفصل الثالث

أثر هذه الحضارة على المحيطين بهم محصوراً فى نطاق ضيق . صحيح أن مصر كادت تخلو من المدن الإغريقة ، لكن معظم الإغريق فيها — باستثناء من نزل منهم بالفيوم — قد سكنوا عواصم الأقاليم تاركين القرى للمصريين ، ونحن إذ ندرس الأوراق البردية التى ترجع إلى العصرين البطلمى والرومانى ، بمختلف الموضوعات التى تتناولها ، نجد ما يحملنا على الإعتقاد بأن مصر كانت بلدا يتكلم الإغريقية ، فنغفل الثقافة الوطنية التى تكشفها لنا الوثائق الديموطيقية القانونية ، وإيصالات الضرائب القليلة المحررة بالديموطيقية ، أو التأشيرات الديموطيقية على الإيصالات الإغريقية ، وكذلك بعض شذرات من الأدب الديموطيقى . لكن الحياة المصرية الوطنية ظلت قائمة طوال الوقت، برغم أنها كانت مكبوتة لاتلقى من الرعاية إلا قليلا ، تناصب الحضارة الهلينية عداء خافياً وتعتز بكبريائها القومى . وعندما وصلت المسيحية إلى هذه الطبقة من الوطنين ، كانت بمثابة أداة تحرير لهم ، وعاونها على القيام بهذا الدور ماطرأ من تغيير على الكتابة : فمن المرجح أن الكتابة الديموطيقية الصعبة لم تكن معروفة لغير عدد قليل من الأفراد ، ثم بدأ الناس فى القرن الثالث يستعملون الأبجدية الإغريقة ، بعد إضافة ستة أحرف إليها فى كتابة النصوص المصرية . ومن الجائز جداً أن الأبجدية الإغريقيه ، بحروفها اللينه ، قد حلت أول الأمر محل الديموطيقية التى لاتعرف هذه الحروف ، فى كتابة النصوص السحرية التى تستلزم صياغتها دقة بالغة . لكن سرعان ما أدرك المسيحيون

إمكان الأخذ بهذا التجديد للكتابة . وقد بدأت ترجمة الأناجيل إلى القبطية أولا على شكل شروح بهذه اللغة على الهوامش بين السطور، وبعدئذ ترجمت نصوصها كاملة إلى القبطيه ، ، وهو الاسم الذى أطلق على الكتابة الجديدة التى تعتبر آخر صورة من صور اللغة المصرية . وقبل نهاية القرن الرابع كان الكتاب المقدس كله فى متناول أيدى القراء المصريين ، وأصبح عدد الذين يستطيعون قراءة الخط الإغريقى أضخم بكثير من قراء الديموطيقية . وفضلا عن ذلك فإن الكتاب الأقباط كانوا يستخدمون من صوراللغة المصرية صورة تعتبر أحدث وأوسع انتشـــاراً من تلك التى كان يستعملها كتاب الديموطيقية . وظهرت تبعاً لذلك مجموعة وافرة من الأدب القبطى تناولت مواضيع إنجيلية ولاهوتية وشعائريه ، وقلما كانت تتناول الموضوعات غير الدينية . وهكذا وجد المصريون للمرة الأولى منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، متنفساً للتعبير عن مشاعرهم . ولقد كان كثير من الرهبان والنساك ينحدرون من أصل مصرى . والواقع ، كما أسلفت ، أن الرهبنة كانت ابتكاراً مصريا إلى حد ما . وكانت نتيجة ذلك أن اكتسبت الكنيسة المصرية طابعا قومياً قويا . ولم يبد المصريون الذين لم تختلط دماؤهم بالدماء الإغريقية مقدرة كافية على التفكير الفلسفى المجرد ، والحق أن المفكرين الدينيين الإغريق هم الذين

أضفوا المعانى الصوفية على كثير من الأساطير المصرية ، كأساطير إيزيس وأوزيريس . ولا شك أن الرهبان الذين تبعوا بطارقتهم إلى المجامع الكنسية كانوا لايفهمون المشاكل اللاهوتية المعروضة على بساط البحث إلا فهماً ضئيلا ، أما الأمر الذى استطاعوا فهمه حقاً فكان معارضة مصر السياسية للحكومة الامبراطورية ، وإذن فقد كان طبيعياً أن تعتنق مصر المذهب الكاثوليكى عندما كانت القسطنطينية ـ العاصمة الجديدة ـ تدين بالهرطقة كما حدث على أيام الامبراطور قسطنطيوس الآريوسى ، والعكس بالعكس .

النزاع الكنسى :

وشهد القرن الخامس حدوث النزاع الكنسى الذى قطع الأسباب بين الكنيسة المصرية والكنيسة الكاثوليكية ، وبدا أن الخلاف يدور حول مسائل تتصل بجوهر العقيدة . والواقع أن الفكر اللاهوتى كان لا يزال منصباً على محاولة توضيح الغموض الذى اكتنف مشكلة التجسد . لقد كان المسيح إلها وبشراً فى آن واحد ، فهل هو ذو طبيعتين ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فما هى حقيقة العلاقة بين هاتين الطبيعتين ؟ وقد أنكر آريوس أن « الابن » و « الأب » من طبيعة واحدة ، وإن لم ينكر قدسية المسيح ، ولكن وجه الخطأ عند معارضيه كان كامناً فى تجاهل طبيعة الأب البشرية أو التهوين من

شأنها . وبرغم أن مذهب الطبيعة الواحدة ، فى أقصى درجات تطرفه كان لا ينكر وجود طبيعتين قبل إندماجهما فى التجسد ، فقد ذهب إلى وجود طبيعة واحدة فقط بعد حدوثه ، وبناء على ذلك تلاشت الطبيعة البشرية تماما أمام الطبيعة الإلهية، أى أن هذه الأخيرة لم تتضمن الأولى، وهكذا امحت للمرة الثانية تلك الوسيلة التى تصل ما بين الله والناس .ذلك شرح مبسط وإن لم يكن ـ فيما يبدو ـ دقيقا . والحق أن موضوع الخلاف كان غامضا جداً وليس من اليسير كشفه . وقد حاول زعماء الكنيسة الكاثوليكية مراراً الوصول إلى حل وسط حتى ضاقت شقة الخلاف جداً آخر الأمر ، ولكن دون جدوى . فقد كان النزاع الدينى يزداد حدة نتيجة للأطماع والأحقاد الشخصية ، والمنافسة الشديدة بين الكنائس الثلاث الكبرى فى روما والقسطنطينية والاسكندرية . وصدق الأستاذ المرحوم چان ماسپيرو (Jean Maspero) حيث قال : " لم يكن مذهب الطبيعة الواحدة بدعة دينية ، وإنما كان وسيلة لإيجاد نزاع كنسى " .

وتربع على كرسى كنيسة الاسكندرية بين عامى ٤١٢ ، ٤٤٤ القديس كيرلس الذى كان يؤكد بصفة خاصة ألوهية المسيح ، وإن ظل متمسكا بالمذهب الأورثوذكسى . وبرغم أن كيرلس كان يفتقر إلى فضائل سلفه العظيم أثناسيوس ، فقد ارتكب نفس أخطائه

بصورة أفحش : كان رجلا مشاغبا صلفا نهماً إلى السلطان لا يبالى بصوت الضمير فى الأساليب التى يتبعها لإدراك غاياته ، فهو الذى حرض الرهبان والسوقة على طرد اليهود من الاسكندرية ، وهو الذى بذل غاية جهده للقضاء على المدرسة الفلسفية فى جامعة الاسكندرية وعلى رجالها الوثنيين ، وإذا لم يكن قد أوحى بالاضطرابات التى أدت إلى مقتل هوپاتيا، فقد أبدى على الأقل موافقته عليها بموقفه السلبي منها. وفى مجمع أفسوس (Ephesus) الذى عقد عام ٤٣١ ، كان المسئول الأول عن إدانة ونفى نسطوريوس (Nestorius) بطريرك القسطنطينية واستطاع بالرشاوى السخية أن يتلافى مسئولية الاخطاء الجسيمة التى شابت تصرفات المجمع . أما خليفته ديوسكور (Dioscorus) فقد ارتكب نفس الاخطاء ، لكنه كان دون سلفه كياسة ولباقة ، فقيد نفسه بمذهب الطبيعة الواحدة . وقد حالفه النصر فى مجمع أفسوس الذى عقد عام ٤٤٩ (وكان يسمى مجمع اللصوص) ، غير أنه اتبع لكسب هذا النصر وسائل العنف والاستفزاز ، فتألف ضده تحالف قوى ، وعندما عقد مجمع خلقيدونيه (Chalcedon) فى عام ٤٥١ ، وصدر القرار الشهير الذى جاء فيه أن المسيح " يتفق فى الطبيعة مع أبيه بوصفه إلها ، كما يتفق معنا بوصفه بشراً "

و « أننا عرفناه صاحب طبيعتين » ، أدين ديوسكور وخلع من منصبه ، وخلفه پروتيريوس (Proterius) ؛ لكن تيموثيوس آيلوروس (Timotheus Ailouros) أى « تيموثيوس القط » ، وهو واحد من خصومه ، أتباع مذهب الطبيعة الواحدة ، أثار عليه جماعة من السوقة مزقته إربا. ومنذ ذلك الحين ظلت الغالبية العظمى من المسيحيين المصريين فى نزاع طائفى مع الكنيسة الكاثوليكية .

وبرغم أن النزاع الدينى قد يكون ضروريا فى بعض الأحيان ، إلا أنه شر فى كل الأحيان : ذلك لأنه يبرز نقط الخلاف ويؤكدها ، ومن ثم يؤدى إلى ضيق الأفق حتى بين أقطاب النزاع وأتباعهم ، وإلى حصر التفكير فى المجال الطائفى وحده . وإلى مثل ذلك أدى النزاع الدينى فى مصر : فالكاثوليك أو الملكائيون (Melkites) [١] كما كانوا يدعون ، كانوا يعتمدون على تأييد الحكومة الامبراطورية ، ولهذا كرهتهم الغالبية العظمى من الناس ، فتضاءلت مكانتهم ولم يظفروا بغير قليل من الاتباع. أما اليعاقبة (Jacobites) [٢] ، أتباع مذهب الطبيعة الواحدة ، فكان يؤيدهم

[١] أى ملكيون نسبة الى تبعيتهم للحكومة الامبراطورية واعتمادهم عليها ، وكان يرأسهم بطارقة يرسمون فى الخارج ثم يرسلون الى مصر .

[٢] ينسب هؤلاء الى يعقوب البردعى Jacobebus Baradaeus الذى عينه الامبراطور ثيودوسيوس أسقفا لمدينة اديسا (Edessa) وهى « الرها » فى شمال مابين النهرين ، عام ٥٤٣ . لكنه لم يزر أسقفيته الا نادرا =

الرهبان الجهلة الذين ناصبوا جميع صور الحضارة الهلينية عداء شديدا ، ولهذا لم يكن فى وسعهم أن يسهموا بأى نصيب يذكر فى النشاط الفكرى حينئذ . وهكذا غدت مصر ، كولاية فى الإمبراطورية ، أشبه شىء بتيار مضاد فى مجرى الحركة الثقافية ؛ بعد أن كانت عاصمتها ، الاسكندرية ، فى خلال القرنين الثانى والثالث مركزا لمدرسة مسيحيه [١] ذائعة الصيت ، وانجبت فى القرن الرابع شخصية لها مكانها العظيم فى التاريخ الكنسى ، هى شخصية أثناسيوس .

لقد عجز كيرلس عن القضاء على مدرسة الاسكندرية الفلسفية . وظلت جامعة الاسكندرية حتى النصف الثانى من القرن الخامس تضم طائفة من الفلاسفة الوثنيين . ولدينا وثيقة بردية(٢) تتضمن شكوى

= جدا ، وقصر جهوده على القيام بزيارات عديدة فى أرجاء العالم المسيحى الشرقى كانت نتيجتها بعث الحياة فى نفوس أتباع مذهب الطبيعة الواحدة وتنظيمهم تنظيما قويا . وكانت مصر من بين البلاد التى زارها .

[١] أنظر ص ١٧٩ حاشية ١ أعلاه .

(٢) أنظر : P. Cairo Masp. III, 67295

وأنظر أيضا : I. 12-16, 18-20

حيث جاء ماترجمته : « فى وسعى أن أقول ـ اذا لم يكن ثمة خطأ فى أن يمتدح المرء نفسه ـ أننى حظيت خلال فترة طويلة بسمعة طيبة بين سكان مدينة الاسكندرية العظيمة حيث أشرفت على ادارة احدى مدارس جامعتها . وكنت أعيش دائما عيشة فاضلة ، وقد كرست مواهبى الفطرية للنشاط الثقافى ، وعلمت الفلسفة للراغبين فيها . والواقع أنى ورثت اهتمامى بالفلسفة عن آبائى وأجدادى ، فقد علمنيها أبى مثلث الرحمات اسكليبيادس Asclepiades الذى =

تمدنا بطرف شائق عن حياة هؤلاء الفلاسفة الذين تأصلت الروح القومية فى نفوسهم برغم أن ثقافتهم كانت بلا ريب مصطبغة بالحضارة الهلينية ، وقد كان أحدهم هو المؤلف الشهير لبحث لا يزال موجوداً عن الكتابة الهيروغليفية . والواقع أن الحضارة الهلينية كانت تتهددها الأخطار حتى فى الاسكندرية نفسها ، أما فى باقى أنحاء مصر ، فإن التيارات المضادة لهــــذه الحضارة ، وهى التيارات التى أحدثتها حركة الرهبنه وحركات المقاومة الوطنية ، قد ازدادت حدة نتيجة للتدهور الاقتصادى الذى عجزت إصلاحات دقلديانوس عن وقفه .

نظام الضرائب وآثاره :

وكان تبسيط نظام جباية الضريبة وتقديرها من أبرز مظاهر تلك الإصلاحات ، غير أن المزايا التى انطوى عليها كانت وهمية . صحيح أن الإصلاح قد راعى عند تحديده وحدات الانتاج، اختلاف نوع الأراضى، ولم يغفل الجزئيات (أى ما يزيد عن الـ iugum) ، غير أن طريقة

= قضى حياته كلها في الجامعة يدرس للشبان وفقا للمنهج القديم .. ولقد جهدت فى أن أجعل حياتى فى نفس المدينة صـــورة من حياة أبى ... وكنت وزوجتى ، وهى ابنة عمى ، أبناء لشقيقين ، وعشت واياها سويا مع أبوينا متفقين فى المشرب والمسكن وتقوى الآلهــة ، وفى شغفنا جميعا بالفلسفة ، حتى لقد شك الـكثيرون فيمن يكون والدينا : فهل كنت أنا ابنا لوالدها أم كانت هى ابنــة والدى . » وكاتب هذه العبارات هو هورابولون (Hôrapollon) الذى ألف كتابا عن آثار مدينة الاســـكندرية ، ولعله أيضا صـــاحب البحث الموجود بين أيدينا عن اللغة الهيروغليفية ، وهو البحث الذى أشرت اليه فى المتن .

تقدير الضريبة لم تكن مع هذا محكمة بحيث يمكن الإطمئنان إليها عند حدوث ضائقة إقتصادية . ولنضرب لذلك مثلا من سوريا ،(فليس لدينا أى أرقام عن مصر) ، حيث كان الـ «iugum» يعادل ٢٢٥ شجرة من الزيتون . فلو فرضنا أن شخصاً ما كان يمتلك ٢٤٠ شجرة ، فقد كان عليه أن يدفع الضريبة عن «iugum» واحد وجزء منه، فإذا وجد أن بعض أشجاره قد أصبحت مجهدة غير مثمرة ، فقد كان من الأفيد له أن يجتث خمس عشرة شجرة منها كى يخفف عبء الضريبة عن كاهله فلا يدفعها إلا عن «iugum» واحد . وبالمثل ، فقد يجد مالك الأرض الصالحة للزراعة أن من الأنفع له ألا يزرع الأجزاء قليلة الخصوبة . ونحن نعلم أن ذلك حدث بالفعل ، وترتب عليه أن الأراضى بدأت تجدب فى أنحاء كثيرة من إفريقيه وسوريا وكذلك مصر . وفى وسعنا أن نتبين أثر ذلك التطور بوضوح وخاصة فى الفيوم ، حيث أقفرت قرى فى أوائل القرن الرابع من معظم سكانها ، بعد أن كانت مزدهرة وآهلة بالسكان فى القرن الثانى ، وكانت لا تزال حتى القرن الثالث مراكز عمرانية هامة ، ولم ينته القرن الرابع حتى كانت هـذه القرى قد اضمحلت وتحولت ، كما تبدو اليوم ، إلى تلال رملية كبيرة تغطى أطلال المساكن المهجورة . وقـــد أخذ دخل الولايات التى أجدبت أراضيها فى الانكماش بينما لم تقل نفقات الحكومة ، إذ اقتضت الحالة على الحدود الشمالية مرابطة قوات عسكرية ضخمة لتعرضها باستمرار

لغزو البرابرة التيوتون ، كما أن الفرس لم ينقطعوا عن تهديد الحدود الشرقية للإمبراطورية . وفضلا عن ذلك فقد استلزمت إصلاحات دقلديانوس إنشاء جهاز بيروقراطي محكم ، وابتكرت الحكومة منعاً للاختلاس والابتزاز نظاماً دقيقاً حافلا بالمراقبات والمراجعات ، يراقب فيه الموظفون بعضهم بعضا . وكان على الحكومة أن تدفع مرتبات هؤلاء الموظفين جميعاً والمكافآت الإضافية (sportula) التى كان جميعهم يطالبون بها . وقد أصبحت هذه المكافآت حقاً مسلماً به حتى صارت تجبى آخر الأمر مع الضرائب ، مثلما تفعل الآن كثير من الفنادق والمطاعم فتستبدل "البقشيش" بإضافة ١٠٪ « خدمة » إلى الحساب . ولم يعد فى وسع الحكومة ، حتى إذا شاءت ، أن تحد من نفقاتها ، واضطرت المجالس البلدية ولجانها التنفيذية ، وهى المسئولة عن تحصيل ضرائب المناطق التابعة لها كاملة ، إلى اغتصاب أموال أعضائها الخاصة . وهكذا لم يقع العبء الاقتصادى على فريق دون الآخر ، بل وجدت كل من طبقة الفلاحين وطبقة أعضاء المجالس البلدية نفسها مهددة بالخراب الشامل . ولعل الحكومة إزاء رغبتها الصادقة فى وقف هذا الخطر ، كانت تصدر الأوامر والنداءات لحظر استغلال السلطة ، غير أن تخفيض نصاب الضريبة كان هو السبيل الوحيد لعلاج هذه الحالة . ولما كانت الحكومة لا تفكر فى اتخاذ مثل هذه الخطوة ، فقد التجأت كعادتها إلى وسائل الأرغام . وقد

رأت السلطات ، إزاء إرتباط الدخل بإنتاج الأرض إرتباطاً شديداً ، أنه لا بد من أن تمنع المزارعين من مبارحتها ، سواء كان هؤلاء ملاكا أم مستأجرين ، وأن تربطهم إليهــا ، ولا بد من أن تبقى الطبقة التى يختار منهـا أعضاء مجالس الشورى ، قوية حافظة لكيانها (١) ، فهى المسئولة آخر الأمر عن نصاب الضريبة ، وأن يخلف الابن أباه فى عضوية المجلس ليحمل أعباءه ، وبالمثل يتحتم على ابن الملاح ، المنوط بنقل القمح والضرائب النقدية إلى القسطنطينية ، أن يخلف أباه فى حرفته ، وأن يرث ابن المكارى مهنة أبيه . وهكذا أفضى ذلك الجمود فى التفكير إلى قيام دولة الأذلاء البيزنطية ، حيث كان المجتمع يتألف من طوائف إحداها فوق الأخرى ، ولكل منها مهنتها الوراثية التى لا سبيل إلى التملص منها (٢) . وقد يقال إن ذلك الجمود لم يكن مطلقاً ،

---

(١) عن الاوضاع فى القرن الثالث أنظر :
E.P. Wegener, *Symbolae van Oven*, p. 173
حيث تقول « وقد نستخلص من ذلك أن عضوية مجلس الشورى فى مصر كانت فيما يرجع قد أصبحت وراثية فى القرن الثالث على الاقل بالنسبة لمن كانوا ينتمون الى طبقة أصحاب المناصب »

(٢) أنظر :
A.E.R. Boak, «An Egyptian Farmer of the Age of Diocletian and Constantine», *Byzantina Metabyzantina* I, 1946, pp. 39-53.

حيث يقول ملخصا دراسته لبعض برديات من ثيادلفيا بالفيوم : « ويمكننا أن نستخلص من دراستنا السالفة لحيــاة اسيدوروس (Isidorus) ومقارنتها بحياة سكاوون (Sakaôn) ، نتيجتين هامتين ، الاولى أن الزراعة فى الفيوم ، كما سبق أن ألمعنا ، كانت =

لأننا نسمع عن أشخاص من أصل وضيع يبلغون أرفع المناصب ، وخاصة عن طريق الانخراط فى سلك الجندية ، أو الالتحاق بسلك الوظائف المدنية ، أو الكنسية . غير أن هؤلاء الأشخاص كانوا ذوى مواهب نادرة لا تعوزهم ملكة الابتكار . وأما عامة الناس فكانوا مقيدين طيلة حياتهم برباط المهن التى فرضت عليهم منذ نشأتهم .

نظام الحماية :

وكان فى استطاعة الفلاح على عهد البطالمة ، إذا ضاق ذرعاً بحالته ، أن يلجأ إلى ساحة الملك أو إلى أحد المعابد العديدة التى كانت تتمتع

= لاتزال فى أوائل القرن الرابع مهنة رابحة ، طالما كانت أعمال الرى منتظمة . ولما كان الرى قد أهمل فى ثيادلفيا ، فقد أجدبت الارض وأقفر المكان من سكانه . وأما فى كرانس حيث لم تنقطع العناية بالقنوات ، فقد ظلت القرية عامرة بالسكان مدة قرن آخر ،والنتيجة الثانية هى أن ملاك الاراضى فى القرية كان عليهم وهم فى سن متقدمة أن يوطنوا أنفسهم على تولى ست وظائف الزامية مختلفة أو أزيد ، وبعضها لاكثر من فترة واحدة . ولا شك فى أن ذلك كان عبئا ثقيلا فى زمن الرخاء ، فاذا ما أضفنا الى ذلك عبء الضرائب فى وقت استنزفت خلاله نفقات الحكومة موارد البلاد الاخرى حتى آخر قطرة ، فلا عجب أن جاوز العبء بمرور الزمن حد الاحتمال . وتنهض سيرة اسيدوروس دليلا جديدا على صحة الرأى السائد بأن نظام الالزام كان هو المسئول الى حد كبير عن القضاء على طبقة الملاك فى عواصم الاقاليم والقرى المصرية فى فجر العصر البيزنطى » . لاريب أن العبء المالى وما ترتب عليه من فرار الذين ناء كاهلهم به ، وتناقص الايدى العاملة تبعا لذلك ، زاد مشكلة العناية بالرى تعقيدا ، كما أدى اهمال الرى بدوره الى اشتداد الضائقة المالية .

بحق حماية اللاجئين ، ولا يبرح مكانه إلا بعد أن تزول أسباب شكايته .
فلما جاء الرومان حصروا هذا الحق فى أضيق نطاق ، فلم يعد أمام الفلاح إلا الفرار إلى الادغال أو الصحراء أو الانضمام إلى إحدى عصابات اللصوص . على أنه كان هناك مخرج آخر ؛ فقد ظهر حتى فى القرن الثالث ، كما ذكرت فى الفصل السابق ، رجال استغلوا حالة التدهور لصالحهم ، واستطاعوا بفضل إقدامهم ونشاطهم وما لديهم من رءوس أموال ، أن يجعلوا من مصائب غيرهم فوائد لهم . وقد أخذت الضياع الكبيرة تتكون فى ذلك الوقت . وكان فى مقدور أصحاب هذه الضياع ، بموازنة خسائر بعض ضياعهم بأرباح الأخرى ، أن يستجيبوا دون تعريض أنفسهم لارتباكات مالية خطيرة ، إلى مطالب جباة الضرائب ، وليس ثمة شك فى أن الأثرياء كانوا لا يعدمون وسيلة فى عصر فسدت فيه الذمم لحمل السلطات على معاملتهم معاملة خاصة .
فقبل نهاية القرن الرابع حصل ثراة الملاك (potentiores) من الحكومة على حق يعرف باسم « أوتوبراجيا » (autopragia) ، الذى يخول لهم جباية الضرائب المستحقة على ضياعهم الخاصة ، ودفعها لخزانة الولاية مباشرة ، دون وساطة الجباة المحليين ؛ ومن المحتمل أن ذلك يرجع إلى أن الحكومة قد تعذر عليها تحصيل النصاب المطلوب بغير هذا السبيل.
ولذلك كان المالك الصغير عندما يتهدده الخراب يلتجىء إلى أحد جيرانه الأقوياء لحمايته . على أن يتنازل له عن أرضه ، ويزرعها له كمستأجر ،

ويقوم بخدمة سيدة وحامية [patronus] ، الذي يأخذ على عاتقه فى مقابل ذلك مسئولية دفع كافة الضرائب . وهكذا تحول المالك الصغير إلى مستأجر مربوط إلى الأرض ، التى آلت حينئذ إلى غيره ، أى أصبح « colonus adscripticius » لا يختلف وضعه فى الواقع عن رقيق الأرض .

ولم تكن الحكومة راضية عن انتشار نظام الحماية (patrocinium) ، فأصدرت المرسوم تلو المرسوم لحظره ، ولكن من غير طائل . فقد كانت النواهى غير مجدية إزاء حالة الضيق الاقتصادى التى لم يكن هناك سبيل إلى علاجها . وأخيراً سلمت الحكومة فى عام ٤١٥ م. بالأمر الواقع ، فأصدرت مرسوما فى نفس العام ينص على أن يبقى جميع من اقتنوا أراضى قبل سنة ٣٩٧ بمقتضى نظام الحماية ، محتفظين بها ، على أن يتعهدوا بأداء كافة الالتزامات المفروضة على مزارعيهم (coloni) ، وأن يلغى لقب «حامى» (patronus) . وقد اكسب هذا المرسوم المزارعين المربوطين إلى الأرض (coloni adscripticii) صفة قانونية ، ولكنه لم يحل ، كما قصد منه ، دون تفشى نظام الحماية ، وإن كنا لا نستطيع أن نتتبع تطوره بالتفصيل نظرا لقلة برديات القرن الخامس بشكل يبعث على الدهشة .

النظام الادارى الجديد :

فإذا ما بلغنا القرن السادس الحافل بالوثائق ، يسترعى انتباهنا التغيير الإدارى الجديد ، وأول ما نلحظه هو اختفاء المراكز (pagi) التى كانت تنقسم إليها المنطقة الريفية (territorium) أو الاقليم (nomos) ، والتى كان على رأس كل منها مدير يسمى (praepositus) ، وأصبحت المنطقة الريفية كلها تؤلف وقتئذ مقاطعة واحده (pagarchia) ، يدير شئونها المالية موظف يسمى پاجارك (pagarchês) ، ومن المقطوع به أن هـــذا التغيير حدث فى القرن الخامس ، وفيما يرجع على عهد الامبراطور ليو الأول Leo I (٤٥٧ - ٤٧٤ م .) (١) ، ولم يكن إشراف الپاجارك يشمل ، فى الأحوال العادية ، كافة أنحـاء المقاطعة ، لأن ضياع كبار الملاك المتمتعة بحق جباية ضرائبها لم تـكن تدفعها عن طريقه ، وإنما لأمين خزانة الولاية [chrysônês] مباشرة . وقـد منح نفس الحق لأديرة وكنائس عديدة ، وكـذلك لبعض القرى الـكبيرة (وذلك دون شك لايجاد نوع من التوازن بينهما وبين النبلاء الأقوياء). وكان الپاجارك موظفاً تابعاً للإمبراطور ، معيناً من قبله ، ومسئولا

---

(١) هذا اســـتنتاج محتمل ممـــا نعرفه عن قرية أفروديتى Aphroditê (كوم شقاو) التى منحها الامبراطور ليو الاول حق جباية ضرائبها autoprágia (أنظر : P. Cairo Masp. I, 67019, 5 f.)
ومما يقوله القرويون فى شكوى بتاريخ ٥٧٦ م . ان مقاطعـــة انتايوبوليس Antaeopolis (قاو الكبير) ، تولى عليها حتى ذلك الوقت ثمانية مديرين (أنظر : P. Cairo Masp. I, 67002, 18 f.)

أمامه . ولم تكن له سلطة على البلدية (civitas) التى لم تعد منذ إنشاء منصبه ، مسئولة عن الشئون المالية المنطقة الريفية .

* وقد حدث تغيير آخر فى الإدارة على جانب كبير من الأهمية فى عام ٥٥٤ (١) ، عندما أصدر جستنيان (Iustinianus) مرسومه الثالث عشر ، الذى وصلنا فى صورة مبتورة ، وإن كان من الميسور استكمال مواده الرئيسية فى ضوء الجزء المتبقى . وكانت ولايات مصر ، حسب تقسيم دقلديانوس ، قد أدخلت عليها تعديلات كثيرة ، وانفصلت فى عام ٣٨٢ عن الادارة الشرقية (dioecesis Orientis) ، و أصبحت إدارة مستقلة بذاتها ، وصار لحاكم مصر ، الذى منح لقب « Augustalis » السيطرة التامة على جميع البلاد [٢] . وقد ظلت نظرية دقلديانوس الخاصة بفصل السلطة العسكرية عن السلطة المدنية مرعية حتى ذلك الوقت ، ولكن حكومة جستنيان تخلت عن هذه النظرية عندئذ ، فتمزقت بمقتضى التنظيم الجديد وحدة مصر لأول مرة ، فلم يعد لحاكم مصر حامل لقب « Augustalis » ، أى سيطرة على الولايات الأخرى

---

(١) عن هذا التاريخ ، وهو أقرب الى الصواب من عام ٥٣٨ م . الذى كان مسلما به حتى الآن ، أنظر :

Gertrude Malz, « The Date of Justinian's Edict XIII », *Byzantion* XVI (1942-3), pp. 135-141.

[٢] انظر ص ١٩٥ حاشية ١ من الفصل الثالث .

التى وضعت كلها تحت الاشراف المباشر لحاكم عام الشرق (praefectus praetorio per Orientem) [١] وزود كل حاكم فى ولايته بسلطات عسكرية ومدنية : فقد انقسمت مصر (فيما عدا ليبيا) منذ ذلك الحين إلى أربع ولايات ، متساوية فى المركز ، وهى « Aegyptus » وعلى راسها دوق يحمل لقب Augustalis ؛ و « Augustamnica » وعلى رأسها دوق ؛ و « Arcadia » ويرأسها كونت و « Thebais » ويديرها دوق يحمل هو الآخر لقب Augustalis . وقسمت كل ولاية من الولايات المذكورة ، فيما عدا « Arcadia » إلى قسمين، على رأس كل منهما مدير مدنى يسمى (praeses) .

ظهور الضياع الكبيرة

وأول مايسترعى انتباهنا من الناحية الاقتصادية فى القرن السادس هو ظهور تلك الضياع الكبيرة التى تملكها الأسر النبيلة . ولدينا وفرة من المعلومات عن إحدى هذه الأسر ، نظراً إلى أن كثيراً من الأوراق الخاصة بها لا تزال موجودة بين البرديات التى عثرنا عليها فى أكسيرينخوس (٢) .وكان أول فرد من هذه الاسرة استطعنا أن نتعرف على شخصيته على وجه التحقيق هو فلاڤيوس أپيون (Flavius Apion) الذى كان يحمل لقب القنصلية (consularis)، إذ كان من المألوف

[١] قارن ص ١٩٥ حاشية ١ من الفصل الثالث .

(٢) يجد القارىء شجرة بنسب الاسرة فى :
P. Oxy. XVI, 1829, 24 note (p. 6) .
E.R. Hardy, *Large Estates*, p. 38

وقتئذ أن يخلع هـــذا اللقب الشرفى على الأشخاص البارزين وإن لم يشغلوا فعلا منصب القنصلية . ويبدو أن أبيون كان على قيد الحياة فى ٤٩٧ عندما منح ابنه فلاڤيوس استراتيجيوس (Fl. Stratêgius) لقب "قائد حرس القصر" (comes domesticorum) (١). وقد أحرز استراتيجيوس هو الآخر فيما بعد لقب "قنصل" ولقب "شريف" (patricius) ، وولاه الإمبراطور منصباً سامياً وهو منصب وزير المالية (comes sacrarum largitionum) (٢) . وتقلد ابنه ، فلاڤيوس أبيون الأصغر ، بالفعل منصب القنصلية [consul ordinarius] فى ٥٣٩ . كما حصل أيضاً على لقب "شريف" ، وكان دوقا على ولاية طيبة من ٥٤٨ حتى ٥٥٠ وقد أنجب ابناً أسماه باسم جده فلاڤيوس استراتيجيوس ، وأنجب الابن بدوره قبل عام ٥٩٠ ولداً أطلق عليه اسم عميد الأسرة أبيون . وكان آخر من وصلتنا أنباؤه من أفراد الاسرة هو استراتيجيوس ، ثالث من حمل هـذا الاسم ، ولعله كان ابن أبيون الأخير . وتنقطع أخبار هذه الأسرة بعد عام ٦٢٥ ، ولعل التفسير الوحيد لذلك هو اندثار أوراقها التى كتبت بعد ذلك التاريخ .

هذه الأسرة التى نشأت فى مصر الوسطى وتوارث أبناؤها جيلا

---

(١) P. Oxy. XVI, 1928

(٢) P. Oxy XVI, 1928 (introd.). قارن أيضا ص ١٢ حاشية ١ من الفصل الاول .

عن جيل شرف القنصلية والانتماء إلى " الأشراف " ، ولم يشغلوا فى مصر نفسها أرقى المناصب الإدارية فحسب ، بل تولى أحدهم بالفعل منصب القنصلية فى الامبراطورية ، كانت إذن أسرة عظيمة الشأن . والواقع أنها تمتعت - كما يتبين من أوراق البردى - بنفوذ واسع وثروة طائلة ، إذ كانت تملك ضياعا لا فى إقليم أكسيرينخوس وحده بل فى إقليمين آخرين على الأقل ، وهما كينوبوليتيس Cynopolitês [قوص] ، وأرسينويتيس Arsinoites [الفيوم] . فى الاقليم الأول كانت فى حوزتها قرى كثيرة برمتها ، وكغيرها من الأسر الكبيرة التى وصلتنا أنباؤها ، كان لها جيش خاص مؤلف من الجنود المأجورين ، المعروفين باسم « buccellarii » ، والذين كان يوجد بين صفوفهم ، كما يتبين من حسابات الضيعة ، رجال من أصل جرمانى . كما أنشأت ، كغيرها من الأسر ، سجونا خاصة (وهو أمر حاول الأباطرة حظره بالمراسيم دون جدوى) ، ونظاماً للبريد ، ومحطات للخيل اللازمة له ، واصطبلات لجياد السباق ، وحمامات شعبية ، ومستشفيات ، ومصارف ، ومكاتب لمراجعة الحسابات ، وكان لديها رهط كبير من الموظفين والكتبة والمحاسبين ومحصلى الضرائب ، ومن إليهم ، وأسطول من المراكب النيليـــة . وكانت لا تدفع ضرائبها لخزانة الولاية بل للإسكندرية مباشرة . وقد شيدت الأسرة كنائس وأديرة وأوقفت الأموال عليها ، وكانت بلا ريب تشرف على هذه المنشآت .

إن دراسة هـذه الأسرة الـكبيرة توحى بداهةبالمقارنة بينها وبين أمراء الإقطاعفى أوربا الغربية ، وإن لم يكن وجه الشبه بينهما تاماً . فقد كان نظام الإقطاع فى الغرب عسكرياً فى جوهره ، يحتفظ فيه المزارع الحر بأرضه طالما كان يؤدى الخدمات لسيده فى وقت الحرب سواء للملك مباشرة كما كان يفعل كبار المزارعين ، أم لأمير من الامراء التابعين للملك . ولـكن ملـكية الارض فى مصر لم تـكن مشروطه بالخدمة العسكرية ، وكانت الضياع مؤلفة لا من أراض متجاورة ، كما كان الحال فى فرنسا ، وإلى حـدما فى إنجلترا وويلز ، بل من أراض متناثره فى شتى أنحاء البـــلاد ، فأحيانا نجد جزءاً من أراضى إحدى القرى تابعاً لضـيعة من هذه الضـياع ، بينما نجد الجزء الآخر فى يد ملاك صـغار غـير ملزمين بتقديم خدمات لها (١) ، وبينما كان الأمير الإقطاعىفى الغرب يعيش فى مصر وسط مزارعه ، كان المالك الـكبير فى مصر يقيم فى منزله ـ أو فى قصره كما كان الحال فى أسرة أپيون ـ الـكائن بعـاصمة الاقليم : أكســـيرينخوس أو هرموپوليس أو الاسكندرية نفسها . على أن التشابه فىالوضع بين هؤلاء الملاك وبين أمراء الاقطاع فى الغرب يـبرر أن نطلق عليهم اسم الملاك شبه الاقطاعيين ، ومن الطريف أن نضاهى بين النظامين لنبين أوجه الشـــبه والخلاف بينهما : كانت إماره الاقطـــاع فى الغرب

---

(١) كما كان الحال مثلا فى أفروديتى ، وهى قرية ــ برغم تمتعها بحق حيــاته ضرائبهــا ــ كانت بهــا ايضــا ضيعة لنبيـــل يدعى Ammônius

انظــر : *J.H.S.* LXIV, p. 24.

صـــورة مصغرة من المملكة التى تنتمى إليها ، وكما كان لدى الملك مزارعون من الأمراء يدينون له بالطاعة والولاء ، كذلك كان لدى الأمـــير الإقطاعى تابعون ملزمون بخدمته . وأما فى مصر فقد كانت الضيعة صورة مصغرة من الامبراطورية البيروقراطية التى هى جزء منها ، وكانت نظمها وإدارتها على غرار نظم وإدارة الحكومة المركزية للإمبراطورية . والواقع أنه يستحيل علينا أحياناً ، عندما نبحث بردية من برديات تلك الفترة ، أن نعرف على وجه التحقيق إن كان الأشخاص المذكورة أسماؤهم فيها مقرونة بألقاب الشرف ، هم موظفين تابعين للامبراطور ، أم تابعين لإحدى الأسر الكبيرة .

وإلى جانب هؤلاء الملاك الأقوياء أصحاب القصور الزاخرة بالخدم والحشم والعامرة بألوان البذخ والترف ، كانت تعيش جمهرة سكان الريف الذين كانوا ينقسمون إلى طبقتين كبيرتين ، الأولى طبقة مزارعى الضياع الكبيرة (coloni) ، وهم أرقاء الأرض الملزمون بخدمة أصحاب هذه الضياع ، والثانية طبقة المزارعين الأحرار ، وهم إما ملاك أو مستأجرون لدى ملاك متوسطين ، وكان هؤلاء أيضاً ، برغم تمتعهم نظرياً بالحرية ، مربوطين إلى الأرض ، محظوراً عليهم مبارحتها حرصاً على صالح الدولة . وكان وضعهم لا يختلف كثيراً عن وضع أرقاء الضياع الكبيرة لأنهم كانوا يدفعون ضرائبهم (فى غير القرى المتمتعة بحق جباية ضرائبها) لمديرى المقاطعات (pagarchai)

الذين كانوا يختارون من بين الأسرة النبيلة (كما كان الحال مثلا فى أسرة أپيون التى تولت هذا المنصب فترات طويلة) ؛ بل لعلهم كانوا فى حقيقه الأمر أسوأ حالا ، لأن المالك الكبير كانت مصلحته تقتضى أن يحرص على رفاهية مزارعيه ، بينما لم يلق المزارعون الأحرار من أحد مثل هذه الرعاية . هذا فضلا عن أن أصحاب الضياع كانوا أثرياء بل ويبدو أنهم كانوا فى بعض الأحيان قدوة طيبة فى حسن المعاملة ، وتؤيد الأدلة المستمدة من أوراق البردى هذا الاعتقاد . ومن الجائز أن القرى المتمتعة بحق جباية ضرائبها كانت أحسن حالا من سواها غير أنها كانت فى مركز لا تحسد عليه ؛ فقد كان مديرو المقاطعات كملاك متمتعين بحق جباية الضرائب على ضياعهم وكموظفين رسميين ، يقاومون منح هذا الحق للقرى ، على أن القرى كانت تفقد هذا الحق إذا عجزت عن تحصيل ضرائبها كاملة . وعلى أى حال فإنها لم تكن فيما يبدو ، تزاول هذا الحق فى حالة ضرائب محلية معيّنة . فلو حدث إذن أن وجد « الپاجارك » فرصة للتدخل فى شئون قرية من هذه القرى ، فإنه كان ينزل بها كل صفوف العنت والإرهاق . وقد عرفنا ذلك من البرديات التى اكتشفناها بين أطلال قرية أفروديتى (Aphroditê) [كوم شقاو] فى ولاية طيبة . فقد تعرضت القريه بسبب تشاحنها مع « الپاجارك » لإغارات الجنود المستهترين ونهبت دورها وأضرمت فيها النيران ، ومنعت عنها المياه ، وخرّبت حقولها ، واغتصبت راهباتها ؛

بل وزج بكبار ملاكها فى السجن ، حيث نكل بهم . حدث كل ذلك فى أفروديتى ، وهى قرية كانت قد وضعت نفسها تحت حماية الامبراطور إتقاء لعبث السلطات بها وتدعيما لحقها فى جباية ضرائبها (١) ولكن هذا أيضاً لم يجد فتيلا ، وليس أدل على ذلك من قول چستنيان فى قرار أصدره بشأن قضية اتهم فيها «پاجارك» بالتعسف مع الأهالى " لقد تبين لنا أن حيَل ثيودوسيوس أقوى من أوامرنا (٢) " . كان كابوس النبلاء شبه الاقطاعيين ، وجنودهم المأجورة (buccellarii) جاثماً على صدر القرى ، بينما كان الامبراطور ، برغم حسن طويته ونبل مقصده ، عاجزاً عن إغاثتها لإقامته بعيداً عنها ، فى القسطنطينيه .

ولعل أصدق شاهد على تلك الهوّة السحيقة التى غدت تفصل بين النيل الثرى وبين مزارعه (colonus) هو ما نلمسه من فرق بين لغة شكاوى ذلك العصر ، وشكاوى العصر البطلمى . وإليك على سبيل المثال مقدمة شكوى مكتوبة حوالى عام ٢٣٤ ق . م . « من أنتيجونوس إلى الملك بطلميوس ، سلاماً . إن پاترون ، رئيس قوة البوليس فى المركز الشمالى يتعسف معى (٣)» . ومقدم الشكوى موظف صغير فى إحدى قرى مصر الوسطى ، والمشكو إليه هو صاحب الحول

---

(١) P. Cairo Masp. I, 67002 ; P. Lond. V, 1674

(٢) P. Cairo Masp. I, 67024, 15 f.

(٣) P. Hib. 34

والطول ، بطليوس الثالث ، الملقب بالخيّر . ومع هذا فهو يخاطب الملك فى غير مذلة أو لغو ، يخاطبه كما لو كان ندّا له . قارن ذلك بشكوى رفعها مزارع فى إحدى ضياع أپيون إلى سيده فى القرن السادس « إلى سيدى الخير، محب المسيح ، محب الفقراء ، أپيون شريف طيبه ودوقها . الموقر، الأفخم ، من « أنوب » عبدك البائس المقيم بضيعة « فاكرا» Phacra . التابعة لك(١). ولعل فاتحة الشكوى التى رفعتها قرية أفروديتى ، المتمتعة بحق جباية ضرائبها ، إلى دوق الولاية فى عام ٥٦٧ م. أدل من سابقتها على اتساع هذه الهوه(٢) : " فلاڤيوس ترياديوس ماريانوس ميخائيل قسطنطين ثيودور مرتوريوس چوليان أثناسيوس القائد القنصلى الأشهر ، والشريف الأمجد لدى الحاكم چستين ، دوق طيبه الأوغسطى للسنة الثانية ؛ إلتماس وضراعة من عبيدك البؤساء ، الملاك الصغار والسكان المساكين من قرية أفروديتى التعسة المشمولة برعاية بيتك الطاهر وسلطتك السامية . إن العدالة الخالصة والانصاف المطلق ليضفيان أبداً هالة من النور على تلك السلطة الجليلة الفائقة ـ وهى ماترقبناه طويلا كما ترقب الموتى فى العالم الآخر مجىء المسيح ، الاله السرمدى . فعلى سموك من بعده ، وهو ربنا ومولانا المعين المنعم الصادق الرحيم ، عليك نعقد كل أملنا فى الخلاص ، أنت يا من يسبح جميع

(١) P. Oxy. I, 130

(٢) P. Cairo Masp. I, 67002

الناس بحمدك ويتحدثون بذكرك فى كل مكان .. لهذا جئنا مطمئنين لنتمسح عند مواطىء قدميك الطاهرتين ، ونطلعك على أحوالنا "

اضمحلال الحضارة الهلينية :

فأى مكان فى عالم كهذا كان يتسع للحضارة الهلينية ، حضارة الأحرار ، ذوى الافكار الحرة ؟ . كانت المراكز الرئيسية لتلك الحضارة خارج المدينتين الإغريقيتين ، الإسكندرية وبطلمية - هى عواصم الأقاليم ؛ ومعلوماتنا عن نشاط بلدياتها فى القرن السادس شحيحة بالنسبة إلى مانعرفه عن هذا النشاط قبل ذلك التاريخ . بيد أن تلك الحقيقة ربما تنطوى فى حد ذاتها على مغزى هام . ذلك أن هذه العواصم القديمة التى كانت تعتز فى القرن الثانى بتقاليدها الهلينية ، وتستمتع بمشاهدة مهرجانات الشباب، وكانت حتى فى أيام الشدة فى القرن الثالث تخلع على نفسها الألقاب الرنانة ، " كمدينة أهالى أكسيرينخوس الشهيرة والأشهر " أو " مدينة هرميس العظيمة ، القديمة ، أكثر المدن جلالا ، وأبعدها صيتاً " ، هذه العواصم التى كانت قد توفرت لها فى القرن الرابع كل مقومات الحكم الذاتى ، أخذت تفقد أهميتها واستقلالها رويداً رويدا . وقد وضعت المناطق الريفية التابعة لها ، طالما لم تتمع بحق جباية ضرائبها ، تحت سيطرة موظف من قبل الإمبراطور ، وهو "الپارجارك" ، الذى كان يقيم مع أسرته الكبيرة

بالمدينة مما كان يتيح له بلا ريب فرصة التأثير عــــلى قرارات مجلس الشورى . وفى بردية يرجع تاريخها إلى حوالى نهاية القرن السادس ، يقول «نقيب» (defensor) مدينة كينوپوليس ، إنه يعبر عما يجيش بصدره من امتنان لمكاتبة « مولانا جميعاً أوسع الناس شهرة ، وكيل أعمال المالك» (١) (الذى يرجح هنا أنه عميد أسرة أپيون) . وفى بردية أخرى بتاريخ ٥٨٧ م . يظهر أحد القائمين بأعمال " النقيب "(defensor) كمستأجر فى ضياع أپيون (٢) . لقد أنشىء منصب " النقيب " ـ كما أسلفنا ـ لحماية الفقراء من بطش الأغنياء ، وها نحن أولاء نجد أصحاب هــــذا المنصب يصبحون أتباعاً خاضعين لكبار النبلاء . أما عن الاتجاهات الفكرية فى ذلك العصر ، فحسبنا الإشارة إلى أن الرهبان كانوا يمقتون الثقافة الإغريقة ، وأن السواد الأعظم من أتباع الكنيسة المصرية كانوا على مذهب الطبيعة الواحدة (٣) ، وأن ذلك كان معناه مؤازرتهم للحركة القومية التى تقف موقف العداء من الثقافة السائدة فى عاصمة الإمبراطورية .

من الواضح أن الحضارة الهلينية كانت تحتضر فى القرن السادس ولكن موتها كان بطيئاً لأنها عاشت طويلا قبل أن تلفظ أنفاسها

---

(١) P. Oxy. XVI, 1860, 6.

(٢) P. Oxy. XVI, 1987

(٣) حتى أسرة أبيون كانت فى وقت ما من أتباع مذهب الطبيعة الواحدة ، أنظر : Hardy, *Large Estates*, pp. 26-7.

الأخيرة . ويتبين لنا من أوراق البردى التي وجدناها في أنتينوپوليس وغيرها من الأماكن، أن الأدب الإغريقي بل والأدب اللاتيني كان لا يزال رائجاً ، وأن القراء في القرن السادس كان في متناولهم مؤلفات كثيرة لم تصل إلينا . ومما يسترعي النظر بوجه خاص أن شاعراً عسير الهضم مثل جوڤنال (Iuvenalis) [١] ، كان يدرس وقتئذ مع التعليق

---

[١] أعظم شاعر هجائي عند الرومان ، ومع ذلك فلم يكن مشهورا في عصره ولذلك لانعرف تفاصيل سيرته . ولد في أكوينم (Aquinum) بين عامي ٥٠ ، ٦٠ م . وقد نشرت جميع أشعاره في عصر تراجان وهادريان . كان جوفينال كصديقه مارتياليس (أنظر ص ٤٢ حاشية ٤) فقيرا وعاش مثله كتابع (cliens)عالة على السادة الاثرياء (patroni) . وقد نفاه الامبراطور دوميتيان من روما بسبب فحش هجائه وسلاطة لسانه ، ولكنه عاد اليها حوالى ٩٦ م . وتعتبر هجائياته (saturae) ـ وعددها ١٦ ومكتوبة في الوزن السداسي ـ مرآة صادقة للمجتمع الروماني على أيامه ، وينتقد فيها انتقادا مرا الانحلال الخلقي ، والرذيلة ، والنفاق ، والشذوذ الجنسي ، وامتهان الفقراء،و ايثار الاشراف الثروة على الفضيلة وانصرافهم عن تشجيع الادلاباء والحماقة التي تدفع الناس الى التورط فيما هو ضار بهم ، وخيانة الاصدقاء ، واهمال الآباء ، والطمع والخسة . وفي احدى مقطوعاته يصف ساخرا مزايا الجندية ، وفي أخرى يستهجن وحشية المصريين فيروى ما حدث أثناء خدمته في مصر من قتال بين مدينتي كوم امبو ودندره أثناء أحد الاعياد بسبب التمساح المؤله وكيف انتهت المعركة بمقتل أحد الاهالى فأكله خصومه (*Sat.* XV) . وجوفينال يتكلم كمصلح أخلاقي لا كفيلسوف فهو على حد قوله رجل عادى أحس بأن العالم قد اختل ميزانه فنظم هجائياته احتجاجا على المجتمع وتبرما من أوضاعه دون أن يقترح علاجا لامراضه . والواقع أنه لايكاد يفوق قصائده (epigrammata) قصائد لاتينية أخرى من نوعها . وأسلوبه حافل بالالفاظ الدارجة ، والكلمات الدخيلة والغريبة ، وبعضها مأخوذ من شعر الملاحم . وقد كان لجوفينال تأثير بعيد المدى على شعراء الهجاء في كل العصور .

الواقى بولاية طيبة (١) . وقد تعرفنا عن طريق برديات قرية أفروديتى على رجل من أهالى تلك القرية أصاب بعض النجاح فى حياته كمحام وموثق للعقود ، وكان لا يكل من نظم الشعر الإغريقى (وقد اشتهر فى هذا المجال ، أو فيما هو جيد منه ، بأنه أسوأ شاعر إغريقى وصلتنا مؤلفاته !) ، كما قرأ هوميروس ، وقصائد أنا كريون(Anacreon) [٢]، وأشعار نونس Nonnus [٣] ، ووضع معجما أغريقياً - قبطياً ، ينم عن

---

(١) أنظر :
C.H. Roberts « A Latin Parchment from Antinoe », *Aegyptus*, XV (1935), pp. 297-302
والنص منشور فى : *J.E.A.* XXI (1935), pp. 199-209

[٢] شاعر غنائى (حوالى ٥٧٠ ق٠م٠) ، ولد فى تيوس (Teos) على ساحل آسيا الصغرى . رحل من بلده حوالى ٥٤٥ ق . م . عندما دهمها خطر الفرس ، ثم أقام فى طراقيا بعض الوقت وبعدئذ اتجه الى جزيرة ساموس (Samos) بدعوة من طاغيتها بوليكراتيس (Polycrates) وقد استدعاه أيضا الطاغية هبارخوس (Hipparchus) الى أثينا (حوالى ٥٢٧ ق٠م٠) ٠ ومعظم قصائده غنائية تسودها روح البهجة والمرح ، وبعضها أناشيد لربة البرارى والصيد أرتميس (Artemis) واله الحب (Eros) ، واله الخمر ديونيسوس (Dionysus) وبعضها الآخر فى الهجاء والمدح والرثاء ٠ وقصائده الايامبية أو الاليجية مكتوبة باللهجة الايونية مع مزيج من اللهجة الهومرية واللهجة الايوليه ٠ ويمتاز شعره ببراعة التصوير والابتكار ٠

[٣] شاعر من أخميم (Panopolis) عاش فى القرن الخامس الميلادى ، وكتب تفسيرا لانجيل القديس يوحنا ٠ وهو شاعر من شعراء الملاحم ، نظم ملحمة طويلة عن ديونيسوس تسمى(Dionysiaca) يصف فيها رحلة هذا الاله الموفقة الى الهند ، ـ وهى ذخيرة قيمة من الاساطير تدل على سعة اطلاعه ، وان كان طول ملحمته يبعث على السأم ٠ وقد اختلف النقاد فى الحكم على شعره ، الذى تمتاز أوزانه بالدقة بالمقارنة مع من سبقه من الشعراء ٠

إلمامه بالأدب الكلاسيكى غير المطروق (وإن كان من الجائز أنه نقل عن غيره)، ولم يكن فى حوزته مخطوطات لروايات مناندر فحسب، بل كان فى حوزته أيضاً، وهذا أمر مثير للدهشة، مخطوط لمسرحية ديموى (Dêmoi) من نظم يوپوليس (Eupolis)، وهو شاعر من شعراء الكوميديا القديمة، اعتقد بعض العلماء المحدثين أنه كان غير معروف تقريباً لجمهرة القراء فى ذلك العصر (١). فإذا كانت دراسات كهذه قد لقيت إهتماماً من أحد أعيان قرية فى ولاية طيبة [٢]، أفلا يزيدنا ذلك يقينا بأن الثقافة الهلينية كانت لا تزال مزدهرة فى العواصم الكبرى؟

ومع ذلك فقد كانت الحضارة الهلينية فى مصر تدنو من نهايتها المحتومة. وعندما نبلغ القرن السابع نجد من الأدلة الواضحة ما يثبت أن اللغة الإغريقية، وكل ما يتعلق بها، كانت تندثر فى البلاد. وقد تزايد استعمال اللغة القبطية فى تحرير العقود القانونية وغيرها من الوثائق، بل وجد بين أقطاب الكنيسة من كانوا يجهلون الاغريقية،

---

(١) أنظر:

H. I. Bell, « An Egyptian Village in the Age of Justinian », *J.H.S.*, LXIV (1944), pp. 21-36 ;

J. Maspero, « Un dernier poète grec d'Egypte : Dioscore fils d'Apollos », *Rev. Etud. Grec.*, XXIV (1911), pp. 426-81 ;

H.J.M. Milne, *Catalogue of the Literary Papyri in the British Museum* (1927), pp. 68-80 ;

H. I. Bell & W.E. Crum, « A Greek-Coptic Glossary », *Aegyptus*, VI (1925). pp. 177-226.

[٢] وهذا المتشاعر هو ديوسكور بن ابولوس، انظر مقال ماسبيرو المشار اليه فى الحاشية السابقة.

مثل أبراهام أسقف هرمونثيس Hermonthis [أرمنت] الذى يتبين من وصيته المدونة على بردية مودعة الآن بالمتحف البريطانى، أنه أملاها باللغة القبطية لتكتب باللغة الاغريقية (١) . وأراق البردى الأدبية التى وصلتنا من ذلك العصر قليلة العدد ومحصورة فى دائرة ضيقة من الكتاب . وكثيراً مانجد برديات القرن السابع ، المحتوية على نصوص مسيحية كالتراتيل والأدعية والآيات المقتبسة من الكتاب المقدس (التى كانت تستعمل غالباً كتمائم) ، نجـــدها مضطربة ، وحافلة بالأخطاء مما يدل على أن كاتبيها كانوا لايفهمون ما يدونونه إلا فهما سطحياً مهوشاً (٢) .

الاخطار تحدق بالامبراطورية :

وفى عام ٦٠٨ ، أعلن هرقل (Heraclius) ، حاكم إفريقيه ، الثورة على فوكاس (Phocas) ، ذلك المغتصب المتحجر القلب الذى اغتال الامبراطور موريس (Mauricius) بعد أن أطاح بعرشه . وكان هرقل نفسه رجلا طاعناً فى السن ، لاتسمح له شيخوخته بتحمل أعباء الامبراطورية . وكان القدر قد كتب لابنه هرقل الأصغر أن يعتلى

---

(١) P. Lond. I, 77 (pp. 231-36) = M. *Chrest.* 319.

(٢) قارن ملاحظاتى الواردة فى الكتاب التالى :
W.E. Crum & H.I. Bell, *Wadi Sarga,* (Copenhagen, 1922), pp. 16-18.

العرش . وقد وضعت خطة تقضى بأن يقوم نيكيتاس (Nicêtas) ، ابن القائد الثانى لهرقل ، بمحاولة غزو مصر ، بينما يزحف هرقل الأصغر على سالونيك (Thessalonica) . وتقدم نيكيتاس [من برقة] على الساحل الشمالى [لإفريقيه] ، واستطاع بعد قتال عنيف أن يستولى على مصر فى أوخر عام ٦٠٩ . وكان هرقل فى تلك الأثناء قد احتل سالونيك ، فأبحر فى سنة ٦١٠ متجها صوب القسطنطينية ، وظهر أسطوله أمام المدينة فى ٣ أكتوبر من نفس السنة . وكان طغيان فوكاس قد ألب عليه السواد الأعظم من الشعب ، فلم يمض يومان حتى وقع أسيراً فى يد هرقل الذى أمر بقتله . وهكذا آل اليه عرش الامبراطورية . وكان هرقل قائداً فذاً قديرا قد صدقت نيته على أن يعمل مافى وسعه لإنقاذ الامبراطورية من وهدتها ، ولم تكن تعوزه الهمة أو العزم ، ولو أنه كان يتعرض من وقت لآخر ، بسبب مرضه ، لنوبات من الخمول والفتور . وكان هناك فى الواقع من الأسباب ما يكفى لإثباط همته : فقد منيت جيوش الامبراطورية خلال السنوات الأخيرة بعدة هزائم ، وغزا كسرى (Chosroes) ملك الفرس ، الامبراطورية من الشرق ، ولم تنقطع قبائل الآفار السلافية عن تهديدها من الشمال ، وحامت الشبهات حول إخلاص بريسكوس (Priscus) ، القائد الأعلى للجيش ؛ ونضبت

الخزانة من نصف ما فيها ، وتناقص عدد الرجال اللائقين للخدمة العسكرية تناقصاً شديداً . وفضلا عن ذلك فقد خيم على كافة أرجاء الامبراطورية شعور باقتراب النهاية ، وسرت فى أوصالها روح التخاذل والاستسلام .

وقد أخذت الأحوال فى بادىء الأمر تسير من سيء إلى أسوأ برغم ما بذله هرقل من جهود مضنية ، ولكن كسرى كان لا يفتأ يتوغل فى قلب الامبراطورية . ثم وقعت الطامة الكبرى وسقطت أورشليم فى ٦١٤ . وغزا الفرس مصر واستولوا عليها ٦١٦ ، وكان معظم آسيا الصغرى قد سقط هو الآخر فى أيديهم وقتئذ ، وأصبح فى وسع جنودهم أن يروا عاصمة الأمبراطورية من الضفة الأخرى لمضيق البسفور متألقة على سفوح تلالها . وبدا كما لو كانت الامبراطورية مشرفة على الهلاك ولو كان للفرس فى البحر أسطول فى قوة جيشهم . لسقطت القسطنطينية قبل ميعادها بثمانية قرون ، ولتجردت أوروبا من حصنها الشرقى المنيع . لكن القدر تلطف فتمكن الرومان من صد الهجوم البحرى على المدينة ؛ ولم يكرر العدو محاولته للاستيلاء عليها . وفى ٦٢٢ عبر هرقل البحر إلى آسيا الصغرى بعد أن وكل القسطنطينية فى حفل دينى لعناية المسيح ومريم ؛ وقد انتهت حملته الموفقة بتحرير جميع أراضيها . ثم خرج فى ٦٢٣ غازياً فارس نفسها وأحرز انتصارات باهرة . لكن فى ٦٢٣ ظهر خطر

جديد عند ما تدفقت جحافل الآفار من الشمال وحاصرت القسطنطينية برآ وبحراً . وأشرفت الامبراطورية مرة أخرى على الهلاك ، وساد الذعر فى الشوارع ، وبدا كما لو كانت العناية الربانية وحدها هى القادرة على إنقاذ المدينة ، فانطلقت الدعوات من جميع الكنائس تبتهل إلى أم المسيح أن تأتى لنصرة عبادها ؛ وكان من بين كراماتها أنه بينما التهمت النيران كنائس القديسين كوسماس ودميان ونيقولا ، فقد نجا معبدها فى بلاكرناى (Blachernae) من الدمار . واستجابت السماء للدعوات ، فردت سفن الآفار على أعقابها وأغرقت ، وتقهقر جيشهم شمالا . وفى ٣ أبريل عام ٦٢٨ وفدت على هرقل سفارة فارسية لتبلغه نبأ موت كسرى ، واعتلاء إبنه العرش ، ورغبة الفرس فى عقد الصلح . وقد نصت شروط الصلح على انسحاب القوات الفارسية من جميع أراضى الامبراطورية ، وبذلك تم الجلاء عن مصر أيضا فعادت أدراجها إلى حظيرة الامبراطورية البيزنطية .

الفتح العربى :

بيد أن هذا الحال لم يدم طويلا ، ففى ٦٢٢ كان قد وقع حدث ترتبت عليه آثار بعيدة المدى بالنسبة لبيزنطة وفارس . ففى ذلك العام هاجر محمد ، إزاء ما لمسه من فتور بنى قومه فى قبول دعوته ، من مكة إلى المدينة ، بادئاً بذلك حقبة جديدة ، وهى التاريخ الهجرى ،

وإن لم يدرك هو أو أحـــد أتباعه هذة الحقيقة . وعندما مات فى ٧ يونيه عام ٦٣٢ م . كان من معظم شبه الجزيرة العربية قد دخل الاسلام .

وفى تلك الأثناء كان هرقل، رغبة فى تدعيم أركان الامبراطورية ، قد بذل قصارى جهده لرد أقباط مصر إلى الكنيسة الكاثوليكية . وقد قبل مرضاة لهم بدعة الإرادة الواحدة التى تقول ـ خلافا لمذهب الطبيعة الواحدة ـ إن المسيح فى الواقع طبيعتين ، ولكن له إراد واحدة فقط . وقد اعتقد أن ذلك قد يؤدى إلى التقريب بين أصحاب مذهب الطبيعتين وأصحاب مذهب الطبيعة الواحدة . غير أن المصريين كانوا غير مستعدين للتفاهم ؛ فقد انحصرت رغبتهم فى معارضة القسطنطينية . وفى ٦٣١ عين هرقل بطريركا على الاسكندرية وحاكما (praef. Augustalis) على مصر فى نفس الوقت ، أسقفاً يدعى كورش Cyrus [المقوقس] وهو من الذين اعتنقوا مذهب الإرادة الواحدة . ولم يكن هرقل موفقاً فى اختياره لأن كورش هذا ، الذى تجعلنا قلة المصادر فى حيرة من شخصيته الغامضة ، كان فيما يبدو رجلا ضيق الصدر . فلما وجد أن من العسير عليه استمالة الأقباط إلى المذهب الجديد ، أخذ يضطهدهم اضطهاداً رهيباً ، مما نفر منه هؤلاء الذين أوفد ليعمل على استرضائهم ، هذا فى وقت اشتدت فيه الحاجة إلى الولاء حيثما كان مستطاعاً .

وبعد موت محمد واجهت أبا بكر ، أول الخلفاء الراشدين ، ثورة نشبت بين بعض القبائل ، ولكنه استطاع أن يخمدها ، ولم يمض زمن طويل حتى كانت كل الجزيرة العربية قد خضعت لسلطان الخليفة ، وأصبحت قبائلها المعروفة بشدة المراس وحب القتال مهيأة ، وقد التهبت حماساً بالدين الجديد الذى يحث على الجهاد ، للتوسع خارج حدود بلادها التى لم تعد مواردها الضئيلة كافية لسد حاجيات أعدادها المتزايدة . وسرعان ما اجتاحت جيوش العرب سوريا ، والتحمت مع الفرس لأول مرة فى ٦٣٧ ، فاندكت صروح إمبراطورية آل ساسان العظيمة تحت وطأة هجماتها .

وفى ٦٣٩ استطاع عمرو بن العاص ، أحد كبار قواد العرب الذين قاموا بدور هام فى غزو سوريا ، أن يحصل بعد الحاح من عمر بن الخطاب ، ثانى الخلفاء الراشدين ، على إذن بغزو مصر ، برغم أنه لم يتوفر له سوى أربعة آلاف جندى للقيام بهذه الحملة ، وأن العرب لم تكن لديهم المعدات اللازمة لحصار القلاع . ويقول المؤرخون العرب: « عندماوصل عمرو إلى قريب من مكان معركة رفح ، أدركه رسول يحمل رسالة من الخليفة ، فساورت عمرو الظنون ولم يفتح الرسالة إلا بعد أن بلغ العريش ، وهناك فض الرسالة فإذا بها تقول :من أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص ، إذا بلغتك هذه الرسالة قبل أن تعبر حدود مصر ،

فلترجع ، وأما إذا بلغتك بعد دخولها ، فلتواصل زحفك ، والله معك » والتفت عمرو إلى رجاله متسائلا : أفى سوريا نحن أم فى مصر ؟ فأجابوه : « فى مصر » . عنــدئذ تلا عمرو الرسالة عليهم قائلا « إن الجيش سيتقدم ، والله معنا » .

ولم يكن فتح مصر على يد العرب معجزة كما يعتقد بعض النـاس . صحيح أن عمرو لم يكن تحت إمرته سوى أربعة آلاف جندى عندما اجتاز الحدود ، غير أنه تلقى من الخليفة قبـــل معركة هليوپوليس الحاسمة مدداً يبلغ حوالى اثنى عشر ألف رجل . وقد بالغ المؤرخون كثيرا فى عدد القوات الرومانية التى يرجح أنها لم تزد فى مجموعها على حوالى ثلاثين ألف رجـــل . موزعين فى أنحاء البلاد بين الحاميات المختلفة ، ولم يكن كثير منهم ، فيما يرجح ، جنوداً من الطراز الأول(١) ، وفضلا عن ذلك كان من المستحيل تركيزهم بسرعة فى مكان المعركة ، وقد ظهرت حينئذ العواقب الوخيمة لسياسة چستنيان فى تمزيق وحدة مصر وتخويل جميع حكام ولاياتها سلطات متساوية ، إذ حصر كل منهم همه فى ولايته ، حتى لقد قيل إن دوق طيبه ، عندما سمع باقتراب العرب ، جمع الضرائب على وجه السرعة وفر بهـا إلى الإسكندرية .

---

(٢) أنظر : J. Maspero, *Organisation Militaire*, pp. 114-18.

وبعد أن هزم عمرو الرومان عند هليوبوليس ، ضرب الحصار على بابليون (Babylon) ، الحصن المنيع الواقع عند رأس الدلتا . وقد احتل العرب الفيوم ، ولكن بابليون صمدت لهجومهم . وشرع عمرو فى مفاوضة المقوقس ، الذى وافق على مشروع معاهدة تنص على استسلام الرومان (١) . وسافر المقوقس إلى القسطنطينية ليعرضها على الامبراطور الذى رفضها على الفور وأمر بنفيه . ولكن هرقل كان فى ذلك الوقت يخطو إلى قبره ، فلما قضى نحبه فى فبراير ٦٤١ ، حالت الخلافات التى نشبت بين المجالس الإمبراطورية دون إرسال الإمدادات إلى مصر ، فسقط حصن بابليون فى ابريل ٦٤١ ، وزحف العرب على الإسكندرية ولاقوا فى طريقهم مقاومة شديدة من جانب جنود الامبراطورية الذين أبدوا على نقيض قوادهم روحا معنوية عالية . وكان المقوقس قد أعيد آنئذ إلى منصبه ، فوجد الاسكندرية نهبا المنازعات ، قد تطرق اليأس بسرعة إلى نفوس أهلها ، فعقد مع العرب معاهدة تنص على أن يدفع سكان المدينة الجزية ، وأن تجلو القوات الرومانية عنها خلال أحدعشر شهراً ، وأن تؤمّن حياة المسيحيين واليهود . ولم يصل من القسطنطينية أى مدد ، فغادر الجيش الإمبراطورى ميناء الإسكندرية فى ١٧ سبتمبر ٦٤٢ ، ودخل العرب المدينة العظيمة فى

---

(١) أنظر :
A.J. Butler, *The Treaty of Misr in Tabari*, Oxford, 1913

٢٩ من نفس الشهر ، وقد بهرت أنظارهم بواكيها المرمرية وقصورها الفاخرة .

وكان ذلك إيذاناً بانتهاء قصة مصر الهلينسيته ، فعادت البلاد إلى أحضان العالم الشرقى الذى تنتمى إليه بعد أن كانت انتصارات الإسكندر قد صرفتها عن الشرق والماضى فولت وجهها شطر الغرب والمستقبل . ولكن ذلك العالم ، الشرقى منه والغربى ، كان مختلفا إذ ذاك كل الاختلاف عن عالم الاسكندر : فقد انقطع وحى آمون . وأقفرت معابد مصر العظيمة أو غدت أديرة قبطية ، واحتدمت فى الكنائس المسيحية والأديرة بأوروبا وآسيا مناقشات حول مسائل عويصة فى علم اللاهوت الذى صاغه التفكير الإغريقى من تعاليم النبى اليهودى وسيرته وموته ، ودوّت مآذن مساجد كثيرة فى بلاد العرب والأقطار المتاخمة لها بأصوات المؤذنين وهى تردد « الله أكبر ، لا إله إلا الله » . ولم يلبث الإسلام نفسه ، الذى وصفه مومسن (Mommsen) بأنه « جلاد الحضارة الهلينية » ، حتى أخذ ينقل الشىء الكثير عن العلم الإغريقى ، والفلسفة الإغريقية ، لينقله بدوره إلى علماء غرب أوروبا . وسرعان ما استعين بالصناع المصريين المهرة فى بناء مساجد أورشليم ودمشق ، وتسربت كثير من العناصر الزخرفية ، كورقة الأكانثوس ومحاليق العنب ، من الفن الإغريقى ـ القبطى إلى فن المعمار الإسلامى ، وتركت فيما بعد أثرها فى بعض المبانى المسيحية بجنوب

أوروبا . ولئن كان عمل الإسكندر قد بتر بموته المبكر ، وأساء خلفاؤه تأويله فلم يقتدوا به ، فقد ظل مع هذا قائما من بعده . وأيّا كانت الوسيلة فقد امتزجت أوروبا بآسيا وإن لم يتم ذلك على الوجه الأكمل أو طبقا للصورة التي رسمها هو ، ولم يعد في وسع هذه أو تلك أن تعود أبداً إلى ما كانت عليه .

أباطرة العصر اليزنطى

قسطنطين الاول (منفردا)	٣٠٦ ـ ٣٢٣ م
(مع القيصرين)	٣٢٤ ـ ٣٣٧ م
قسطانس	٣٣٧ ـ ٣٥٠ م
قسطنطيوس الثانى	٣٣٧ ـ ٣٦١ م
جوليان (المرتد)	٣٦١ ـ ٣٦٣ م
فالنتنيان الاول	٣٦٤ ـ ٣٧٥ م
فالنس وفالنتنيان الثانى	٣٧٥ ـ ٣٧٨ م
فالنتنيان الثانى وثيودوسيوس الاول	٣٧٩ ـ ٣٩٢ م
ثيودوسيوس الاول (منفردا)	٣٩٢ ـ ٣٩٥ م
أركاديوس	٣٩٥ ـ ٤٠٨ م
ثيودوسيوس الثانى	٤٠٨ ـ ٤٥٠ م
ليو الاول	٤٥٧ ـ ٤٧٤ م
أناسطاسيوس	٤٩١ ـ ٥١٨ م
جستين الاول	٥١٨ ـ ٥٢٧ م
جستنيان الاول	٥٢٧ ـ ٥٦٥ م
جستين الثانى	٥٦٥ ـ ٥٧٤ م
جستين الثانى وتيبيريوس	٥٧٤ ـ ٥٧٨ م
تيبيريوس الثانى	٥٧٨ ـ ٥٨٢ م
موريس	٥٨٢ ـ ٦٠٢ م
فوكاس	٦٠٢ ـ ٦١٠ م
هرقل	٦١٠ ـ ٦٤١ م

مراجع الفصل الرابع

Milne (J.G.), *A History of Egypt under Roman Rule.* London, Methuen, 3ed edition, 1924

Gelzer (M.), *Studien zur byzantinischen Verwaltung Aegyptens* (Leipziger Historische Abhandlungen, Heft XIII). Leipzig, 1909.

Rouillard (Germaine), *L'Administration civile de l'Egypte byzantine.* 2nd edition, Paris, 1928.

Maspero (J.), *Organisation militaire de l'Egypte byzantine.* Paris, 1912.

Maspero (J.), *Histoire des Patriarches d'Alexandrie.* Paris, 1923.

Hardy (E.R.), *The Large Estates of Byzantine Egypte.* New-York, 1931.

Bell (H.I.), « The Byzantine Servile State in Egypte », in *J.E.A.* IV, 1917, pp. 86-106 ; « *The Decay of a Civilisation* », ibid. X, 1924, pp. 207-16 ; « Egypt and the Byzantine Empire », in *The Legacy of Egypt*, chap. XII (pp. 332-47.)

Segrè (A.) « The Byzantine Colonate », in *Traditio.* V, 1947, pp. 103-33.

ونضيف الى قائمة المؤلف المراجع الاتية :

Johnson (A. Ch.), *Egypt and the Roman Empire,* Ann Arbor, 1951.

Huebner (H.), *Praefectus Aegypti*, München, 1952.

Hardy (E.R.), *Christian Egypt : Church and People,* New-York, 1952.

Alfoeldi (A.), *The Conversion of Constantine and Pagan Rome,* trans. by Mattingly (H.), Oxford, 1948.

Cooney (J.D.), (editor), *Coptic Egypt.* (= Papers read at a symposium held under the joint auspices of New-York University and the Brooklyn Museum, February 1941), The Brooklyn Museum, 1944.

Worrell (W.H.), *A Short account of the Copts,* Ann Arbor, 1945.

• المراجع العـــامة

١ ـ الوثائق :

ا ـ المجموعات البردية العامة (مع الاختصارات المألوفة)

B.G.U. = *Aegyptische Urkunden aus den Staatlichen Museen zu Berlin, Griechische Urkunden.* Berlin, 1895 — 1937.

وهى الآن تسعة مجلدات •

B.K.T. = *Berliner Klassikertexte.* Berlin 1904, etc.

وهى النصوص الادبيـة فى برديات برلين • وعددها الآن ثمانيـة مجلدات •

C.P. Herm. = *Stud. Pal.* V (أنظر أدناه) : *Corpus Papyrorum Hermopolitanorum.*

C.P.R. = *Corpus Papyrorum Raineri,* I, by C. Wessely. Vienna, 1895.

M. Chrest. = Mitteis, *Chrestomathie.*

P. Aberd. = *Catalogue of Greek and Latin Papyri and Ostraca in the Possession of the University of Aberdeen,* 1939.

P. Achmim = *Les Papyrus grecs d'Achmîm,* by P. Collart. Cairo, 1930.

P. Adler = *The Adler Papyri,* Greek texts by E.N. Adler, J.G. Tait, and F.M. Heichelheim ; Demotic by F. Ll. Griffith. Oxford, 1939.

P. Amh. = *The Amherst Papyri... of... Lord Amherst of Hackney,* by B.P. Grenfell & A.S. Hunt. London, 1900, 1901.

P. Amst. = P. Gron. أنظر

[**P. Antinoop.** = *The Antinoopolis Papyri* : by C.H. Roberts. London, 1950].

[**P. Apollon.** = *Papyrus grecs d'Apollônos Anô.* (Documents de Fouilles de l'Institut français d'Archeologie Orientale du Caire, Tome XIX), by Roger Remondon. Cairo, 1953].

P. Bacchias = «The Archives of the Temple of Soknobraisis at Bacchias», by Elizabeth H. Gilliam. *Yale Classical Studies,* X, 1947, pp. 181-281.

P. Bad. = *Veröffentlichungen aus den badischen Papyrus-Sammlungen,* Heidelberg, 1923, etc.

وهى نصوص ديموطيقية وقبطية ويونانية منشورة بقلم :
W. Spiegelberg, F. Bilabel, & G.A. Gerhard.

وهى الآن ستة أجزاء •

P. Bas. = *Papyrusurkunden der Oeffentlichen Bibliothek der Universität zu Basel,* by E. Rabel, 1917.
(وفى هذه المجموعة عقد واحد بالقبطية منشور بقلم شبيجلبرج
(W. Spiegelberg).

P. Berl. Frisk = *Bankakten aus dem Faijûm nebst anderen Berliner Papyri,* by H. Frisk. Göteborg, 1931.

P. Berl. Leihg. = *Berliner Leihgabe griechischer Papyri,* by T. Kalén & the Greek Seminar of Uppsala. Uppsala, 1932.

P. Berl. Möller = *Griechische Papyri aus dem Berliner Museum,* by S. Möller. Göteborg, 1929.

[**P. Berl. Zilliacus** = *Vierzehn Berliner Griechiche Papyri, Urkunden und Briefe* (Soc. Scient. Fenn. Comm. Hum. Litt. XI. 4), by H. Zilliacus. Helsingfors, 1941].

[**P. Bon.** = *Papyri Bononienses,* I (Pubbl. Univ. Catt. Sacro Cuore, N.S. XLII), by O. Montevecchi. Milano, 1953].

P. Bour. = *Les Papyrus Bouriant,* by P. Collart. Paris, 1926.

P. Brem. = *Die Bremer Papyri* (Abhandl. d. Preuss. Akad. d. Wiss.), by U. Wilcken. Berlin, 1936.

[**P. Brux. Inv. E. 716** = *Recherches sur le Recensement dans l'Egypte romaine* (Pap. Lugd.-Batav. V), by M. Hombert & C. Préaux. Leiden, 1952].

[**P. Cairo Goodsp.** = *Greek Papyri from the Cairo Museum together with Papyri of Roman Egypt from American Collections.* (Univ. of Chicago Decennial Publ. vol. V), by E.J. Goodspeed. Chicago, 1902].

P. Cairo Masp. = *Catalogue général des antiquités égyptiennes du Musée : Papyrus grecs d'époque byzantine,* by J. Maspéro. Cairo, 1911-6. 3 vols.

P. Cairo Preis. = *Griechische Urkunden des Aegyptischen Museums zu Kairo,* by F. Preisigke. Strassburg, 1911.

P. Cairo Zen. = *Catalogue général des antiquités égyptiennes du Musée du Caire ; Zenon Papyri,* by C.C. Edgar. Cairo, 1925-31. 4 vols.
وبعد وفاة ادجار أصدرت « جمعية فؤاد الاول لعلم البردى » المجلد الخامس من هذه المجموعة فى ١٩٤٠ (وهو يقابل المجلد الخامس من منشورات هذه الجمعية المعروفة باسم : (Publ. Société Fouad I de Papyrologie, Textes et Documents, V)
وقد تولى نشره الاستاذان جيرو Guéraud وجوجيه Jouguet مستخدمين المادة التى خلفها المرحوم ادجار .

[P. Cattaoui = *Papyrus Cattaoui* I, (in *Archiv*, III, pp. 55-105), by B.P. Grenfeld, A.S. Hunt & P. Meyer. Leipzig, 1906].

P. Col. Inv. 480 (= P. Col. I) = *Upon Slavery in Ptolemaic Egypt*, by W. L. Westermann. New York, 1929.

P. Col. II = *Tax Lists and Transportation Receipts from Theaaelphia*, by W. L. Westermann & C.W. Keyes. New York 1932.

P. Col. Zen. = *Zenon Papyri : Business Papers of the Third Century B.C. dealing with Palestine and Egypt*. Vol. I by W.L. Westermann, & E.S. Hasenoehrl, New York, 1934 ; vol. II by W.L. Westermann, C.W. Keyes, & H. Liebesny, New York, 1940.

P. Cornell = *Greek Papyri in the Library of Cornell University*, by W.L. Westermann & C.J. Kraemer, Jr. New York, 1926.

P. Edfou = *Les Papyrus et les Ostraca grecs*, by J. Manteuffel, being ch. V of *Fouilles franco-polonaises*. Rapport I, *Tell Edfou* 1937. Cairo, 1937.

P. Eleph. = *Elephantine — Papyri*, by O Rubensohn, Berlin, 1907.

P. Ent. = ENTEUXEIS : *Requêtes et plaintes adressées au roi d'Egypte au IIIème siècle avant J.-C.*, by O. Guéraud. Cairo, 1931-2.

P. Erlangen = *Die Papyri der Universitätsbibliothek Erlangen*, by W. Schubart. Leipzig, 1942.

[P. Fam. Tebt. = *A Family — Archive from Tebtunis* (= Pap. Lugd. — Batav. vol, VI), by B.A. van Groningen. Leiden, 1950]

P. Fay. = *Fayûm Towns and their Papyri*, by B. P. Grenfell, A.S. Hunt, & D.G. Hogarth. London, 1900.

P. Flor. = *Papiri greco-egizii*, by D. Comparetti & G. Vitelli. Milan, 1905-15. 3 vols.

P. Fouad = *Les Papyrus Fouad I* (Publ. de la Société Fouad I de Papyrologie, Textes *et Documents*, III), by A. Bataille, O. Guéraud, P. Jouguet, & others. Cairo, 1939.

[P. Fouad Univ. = *Fuad I University Papyri* (Publ. de la Société Fouad I de Papyrologie, Textes et Documents, VIII), by D.S. Crawford. Alexandria, 1949]

P. Frankf. = *Griechische Papyri aus dem Besitz des Rechtswissenschaftlichen Seminars der Universität Frankfurt*, by H. Lewald. Heidelberg, 1920.

P. Freib. = *Mitteilungen aus der Freiburger Papyrussammlung*, by W. Aly, M. Gelzer, J. Partsch, & U. Wilcken. Heidelberg. 1914-27. 3 parts.

P. Gen. = *Les Papyrus de Genève, I*, by J. Nicole. Geneva, 1896-1900 ; II, (1909).

[**P. Gen. Lat. I** = *Archives militaires du 1er siècle*, by J. Nicole & C. Morel. Geneva, 1900.]

P. Giss. = *Griechische Papyri im Museum des oberhessischen Geschichtsvereins zu Giessen*, by O. Eger, E. Kornemann, & P. M. Meyer. Leipzig-Berlin, 1910-12.

P. Giss. Univ. — Bibl. = *Mitteilungen aus der Papyrus sammlung der Giessener Universitätsbibliothek*, by H. Kling & others. Giessen, 1924-39. 6 parts.

P.G.M. = *Papyri Magicae Graecae*, by K. Preisendanz. Leipzig-Berlin, 1928, 1931. 2 vols.

[**P. Gnom.** = B.G.U. V أنظر

P. Got. = *Papyrus grecs de la Bibliothèque Municipale de Gothembourg*, by H. Frisk. Göteborg, 1929.

[**P. Graux** = *Papyrus Graux* 1 et 2 (in Bull. Inst. fr. d'Arch. or. XXI, 1923, pp. 189-214 ; 3-8. ibid., XXVII, 1926, pp. 1-27 ; XXVIII, 1928, 11-14.), by H. Henne, Cairo.]

P. Grenf. I = *An Alexandrian Erotic Fragment and other Greek Papyri Chiefly Ptolemaic*, by B.P. Grenfell. Oxford, 1896.

P. Grenf. II = *New Classical Fragments and other Greek and Latin Papyri*, by B.P. Grenfell & A.S. Hunt. Oxford, 1897.

P. Gron. = *Papyri Groninganae : Griechische Papyri der Universitätsbibliothek zu Groningen nebst zWei Papyri der Universitätsbibliothek zu Amsterdam*, by A.G. Roos. Amsterdam, 1933.

P. Gurob = *Greek Papyri from Gurob*, by J.G. Smyly. Dublin, 1921.

P. Hal. = Dikaiomata : *Auszüge aus Alexandrinischen Gesetzen und Vorordnungen in einem Papyrus des philologischen Seminars der Universität Halle mit einem Anhang weiterer Papyri derselben Sammlung*, by the Graeca Halensis. Berlin, 1913.

P. Hamb. = *Griechische Papyrusurkunden der Hamburger Staats und Universitätsbibliothek*, vol. I, by P.M. Meyer. Leipzig-Berlin, 1911-24.

P. Harris = *The Rendel Harris Papyri of Woodbrooke College, Birmingham*, by E. J. Powell. Cambridge, 1936.

P. Haun. = *Papyri Graecae Haunienses*, fasc. i. by T. Larsen. Copenhagen, 1942.

P. Hib. = *The Hibeh Papyri*. Part I. by B.P. Grenfell & A.S. Hunt. London, 1906.

P. Iand. = *Papyri Iandanae*, cum discipulis edidit C. Kalbfleisch. Leipzig, 1912, etc. (وتقع الآن فى ٨ أجزاء)

P. Jena = *Jenaer Papyrus — Urkunden*, by F. Zucker & F. Schneider. Jena, 1926.

P. Jews = *Jews and Christians in Egypt* : The Jewish Troubles in Alexandria and the Athanasian Controversy, by H. I. Bell. London, 1924.

P. Kl. Form. = Parts III & VIII of *Stud. Pal.* (أنظر أدناه) : *Griechische Papyrusurkunden Kleineren Formats*, by C. Wessely.

P. Lille = *Papyrus grecs* (Institut Papyrologique de l'Université de Lille), by P. Jouguet, P. Collart, J. Lesquier, M. Xoual. Paris, 1907, 1912. 2 vols.
(المجلد الثانى يحتوى على برديات مجدولا ــ Magdola ــ فى الفيوم ــ والتى أعاد جيرو Guéraud نشرها فيما بعد باسم (P. Ent.

P. Lips. = *Griechische Urkunden der Papyrussammlung zu Leipzig*, vol. I, by L. Mitteis, Leipzig, 1906.

P. Lond. = *Greek Papyri in the British Museum*, by F.G. Kenyon & H. I. Bell. London, 1893-1917. 5 vols.
(ويتبع P. Jews ــ أنظر أعلاه ــ هذه المجموعة ، ولكنه نشر منفصلا)

P. Lugd. Bat. = *Papyri Graeci Musei Antiquarii publici Lugduni-Batavi*, by Leemans. Leyden, 1843, 1885.

P. Lund Univ. — Bibl. = *Aus der Papyrussammlung der Universitätsbibliothek in Lund*, by A. Wifstrand, K. Hanell, & E. J. Knudtzon. Lund, 1935-1952. 6 parts.

P. Magd. = P. Lille II.

P. Marmarica = *Il papiro Vaticano greco II*, by M. Norsa & G. Vitelli. Città del Vaticano, 1931.

P. Merton = *A Descriptive Catalogue of the Greek Papyri in the Collection of Wilfred Merton, F.S.A.*, vol. I, by H. Idris Bell & C.H. Roberts. London, 1948.]

P. Meyer = *Griechische Texte aus Aegypten : I. Papyri des Neutestamentlichen Seminars der Universität Berlin.* II. *Ostraca der Sammlung Deissmann,* by P.M. Meyer. Berlin 1916.

P. Michaïlidès = *Papyri in the Collection of M.G. Michaïlidès,* by D.S. Crawford. London, 1954.

P. Mich. = *Papyri in the University of Michigan Collection,* by C..C Edgar, A.E.R. Boak, J.G. Winter, H.A. Sanders, H.C. Youtie, E. M. Husselman, & O.M. Pearl. Ann Arbor, 1931-1951. 8 vols.

(كل مجلد له عنوانه الخاص . ولم ترقم المجلدات الا ابتداء من المجلد الثالث)

[**P. Mich. — Ibrahim** = « Some Michigan Papyri from Karanis », i. *Annales de la Faculté des Lettres, Université Ibrahim, vol. II,* by Abdullatif Ahmed Aly. Cairo, 1953.]

P. Mich. Zen. = P. Mich. vol. I, *Zenon Papyri,* by C.C. Edgar. Ann Arbor, 1931 (أنظر P. Mich.) أعلاه)

P. Mil. = *Papiri Milanesi,* vol. I, fasc. i, by A. Calderini. Milan, 1928.

P. Mil. R. Univ. = *Papiri della R. Università di Milano,* vol. Primo, by A. Vogliano. Milan, 1937.

(ويشار أحيانا الى هذه المجموعة بالاختصار P. Primi للتفرقة بينها وبين مجموعات ميلانو الاخرى)

P. Monac. = *Veröffentlichungen aus der Papyrus-Sammlung der K. Hof — und Staatsbibliothek* zu München : *Byzantinische Papyri,* by A. Heisenberg & L. Wenger. Leipzig-Berlin, 1914.

P. Neutest. = P. Meyer.

P. Osl. = *Papyri Osloënses,* by S. Eitrem & L. Amundsen. Oslo, 1925-36. وهى الآن ٣ أجزاء .

P. Oxford = *Some Oxford Papyri* (Papyrologica Lugduno-Batava, vol. III), by E.P. Wegener. Leyden, 1942.

P. Oxy. = *The Oxyrhynchus Papyri, by B.P. Grenfell,* A.S. Hunt, & others. London, 1898-1953.

(وآخر مانشر منها هو المجلد ٢١) .

P. Par. = *Notices et textes des papyrus grecs du Musée du Louvre et de la Bibliothèque Impériale* (Notices et Extraits des manuscrits de la Bibl. Impériale et autres Bibl. 18. 2), by Letronne & Brunet de Presle. Paris, 1865.

P. Petrie = *The Flinders Petrie Papyri*, by J. P. Mahaffy & J.G. Smyly. Dublin, 1891-1905.. 3 vols.

[**P. Philad.** = *Papyrus de Philadelphie* (Publ. de la Société Fouad I de Papyrologie, Textes et Documents, vol. VII), by J. Scherer. Cairo, 1947.]

P. Primi = P. Mil. R. Univ.
(PRIMI : ويشار اليها أيضا هكذا :

P. Princ. = *Papyri in the Princeton University Collections*, by A. C. Johnson, H. B. Van Hoesen, E. H. Kase, Jr. & S.P. Goodrich. Baltimore & Princeton, 1931-42.
(وهى الآن ٣ أجزاء)

[**P. Princ. Roll** = *A Papyrus Roll in the Princeton Collection* (Diss.), by E.H. Kase, Jr. Baltimore, 1933.]

P. Rein. = *Papyrus grecs et démotiques recueillis* en Egypte, by Th. Reinach, W. Spiegelbergs & S. de Ricci. Paris, 1905 ; P. Rein. II (= *Les Papyrus Théodore Reinach*, in *Bull. Inst. fr. d'Arch.* or XXXIX, 1940) by P. Collart, & C. Cairo, 1940.

P. Rev. = *Revue Laws of Ptolemy Philadelphus*, by B.P. Grenfell. Oxford, 1896.

P. Ross. — Georg. = *Papyri russischer und georgischer Sammlungen*, by G. Zereteli, O. Krüger, & P. Jernstedt. Tiflis, 1925-35. (وهى خمسة مجلدات)

P. Ryl. = *Catalogue of the Greek Papyri* in the *John Rylands Library, Manchester*, by A.S. Hunt, J. de M. Johnson, V. Martin, & C.H. Roberts, and E.G. Turner. Manchester, 1911-1952. (٤ مجلدات)

P.S.A. Athen. = *Papyri Societatis Archaeologicae Atheniensis*, by G. A. Petropoulos. Athens, 1939.
(التعليقات مكتوبة باليونانية الحديثة)

P.S.I. = *Papiri greci e latini* (Pubblicazioni della Società Italiana per la ricerca dei Papiri greci e latini in Egitto), by G. Vitelli, M. Norsa, & others. Florence, 1912-1954.
(وقد بلغت الآن المجلد الثالث عشر)

P. Sitol. = *Sitologen-Papyri aus dem Berliner Museum*, by K. Thunell. Uppsala, 1924.

P. Strassb. = *Griechische Papyrus der Kaiserlichen Universitäts und Landesbibliothek* zu Strassburg, by F. Preisigke. Leipzig, 1912, 1920. 2 vols.

ا وقد واصل نشر هذه المجموعة الاستاذ ب · كولومب P. Colomp
ـ الذى قتله الالمان فى الحرب الاخيرة ـ هو وتلاميذه فى :
Bull. Fac. Lettr. Strasb. XIV (1935-36 & 1940-41).

[ونضيف بأن هذه البرديات أعيد طبعها كلها فى مجلد واحـد فى سنة ١٩٤٨ ، بعنوان :

Papyrus Grecs de la Bibliothèque Nationale et Universitaire de Strasbourg (= Publ. de la Fac. d. Lett. de l'Univ. d. Strasb. | fasc. 97) by P. Collomp & ses Elèves, (Paris, 1948).

P. Tebt. = *The Tebtunis Papyri*, by B.P. Grenfell, A.S. Hunt, J. G. Smyly, E.J. Goodspeed & C.C. Edgar. London, 1902-38.
(وتقع فى ٣ مجلدات ، الاخير منها يتكون من جزئين)

P. Thead. = *Papyrus de Théadelphie*, by J. Jouguet. Paris, 1911.

P. Tor. = « Papyri graeci R. Musei Aegyptii Taurinensis », in *Mem. R. Accad. Torino*, XXXI, 1826, 9-188, XXXIII, 1827, 1-80, by A. Peyron.

P. Ups. 8 = *Der Fluch des Christen Sabinus. Papyrus Upsaliensis* 8, by G. Björck. Uppsala, 1938.

P. Vars. = *Papyri Varsovienses*, by G. Manteuffel. Warsaw, 1935.

P. Vat. gr. 11 = P. Marmarica.

P. Vindob. Boswinkel = *Einige Wiener Papyri* (Payrologica Lugdundo — Batavia, II), by E. Boswinkel. Leyden, 1942.

P. Warren = *The Warren Papyri*. (Pap. Lugd.-Bat. I.) , by M. David, B.A. van Groningen, & J.C. van Oven. Leyden, 1941.

P. Würzb. = *Mitteilungen aus der Würzburger Papyrusssammlung*, by U. Wilcken. Berlin, 1934.

S.B. = أنظر ص ٣٥ حاشية ٣ فى الفصل الاول

Stud. Pal. = *C. Wessely, Studien zur Palaeographie und Papyruskunde.*
(وهى مجلة تصدر بدون انتظام وتتضمن موضـوعات متنوعة فى علم البردى)

UPZ. = انظر « المجموعات البردية الخاصة تحت اسم فيلكن

[**VBP** = P. Bad.]

W. Chrest. = Wilcken, *Chrestomathie*
(أنظر مراجع الفصل الاول ، ص ٥٤)

ب ـ مجموعات بردية خاصة :

Döllstädt (W.), *Grichische Papyrusprivatbriefe in gelbildeter sprache aus den ersten vier Jahrhunderten nach Christus.* Borna-Leipzig, 1934.

(وهي رسالة دكتوراه مقدمة لجامعة فيمار)

Ghedini (G.), *Lettere Christiane dai papiri greci del III e IV* secolo. Milan, 1923.

Lietzmann (H.), *Griechische Papyri.* Bonn, 1910 (=Kleine Texte für theologische und philologische Vorlesungen und Uebungen, 14.)

(وهي طائفة صغيرة من برديات تمثـل نواحي متعـددة ومعظمهـا رسائل)

Meyer (P.M.), *Juristische Papyri.* Berlin, 1920.

(وهي مجموعة قيمة من النصوص الخاصة بالقانون السائد فى مصر اليونانية ـ الرومانية ، مزودة بالشروح الوافية ، ويشار الى هـــذه المجموعة أحيانا بالاختصار (Jur. Pap.

Olsson (B.), *Papyruslriefe aus der frühesten Römerzeit.* Uppsala, 1925.

Preisendanz (K.), *Papyri Graecae Magicae.* Leipzig-Berlin, 1928, 1931. 2 vols.

(ويشار اليها بالاختصار : P.G.M. ، قارن ص ٢٦٨)

Wilcken (U.), *Urkunden der Ptolemäerzeit* (ältere Funde). Berlin-Leipzig, 1927, & c.

(ويشار اليها بالاختصار : UPZ ، قارن ص ٢٧٢)

Witkowski (S.), *Epistulae privatae graecae quae in papyris aetatis Lagidarum servantur.* Leipzig, 1906 (2nd ed. 1911.)

Ziebarth (E.), *Aus der antiken Schule.* Bonn, 1913 (Kleine Texte, 65.)

(وهي مجموعة من النصوص المكتـوبة على البردى أو الخشب أو الشقف ، خاصة بالتعليم المدرسى فى مصر اليونانية ـ الرومانية)

Milligan (G.), *Selections from the Greek Papyri.* Cambridge, 1927.

(مجموعة من البرديات المختلفة مع الترجمة لتوضيح العـلاقة بين لغة الانجيل ولغة أوراق البردى)

Goodspeed (E.J.), & E.C. Colwell, *(A Greek Papyrus Reader.* Chicago, 1936.

(لايختلف هــذا الكتاب فى هدفــه عن الكتاب الســالف ، ولك
النصوص هنا غير مترجة)

وأنظر أيضا تحت عنوان (**المراجع العامة**) ص ٢٦٥ ، وك
yrological Primer by David & van Groningen
الوارد فى مراجع الفصل الاول ، ص ٥٢

حـ ــ الشقافات (معالاختصارات المألوفة عندالاشارة اليها):

O. Brüss. — Berl. = *Ostraka aus Brüssel und Berlin*, by P. Viereck. Berlin — Leipzig, 1922.

O. Cairo = *Ostraca grecs du Musée du Caire* (Etud. d. Pap. III. 1936, pp. 93-111), by N. Lewis. Cairo, 1936. See also

Ostraca grecs et latins de L'Wâdi Fawâkhir (Bull. Inst. fr. d'Arch. Or. XLI, 1942, pp. 141-196), by O. Guéraud. Cairo. 1942].

O. Eremitage = *Griechische Ostraka in der Kaiserlichen Eremitage in St. Petersburg (Archiv* V, 1913, pp. 170-80), by G. Zereteli.

O. Fay. = *Ostraka du Fayoum* (Bull. Inst. fr. d'Arch. Or. II. 1902, pp. 91-105 ; cf. Preisigke, in *Archiv.* III, 1906, pp. 41-54), by P. Jouguet. Cairo, 1902.

O. Meyer P. Meyer أنظر

M. Mich. I = *Greek Ostraca in the University of Michigan Collection*, Part I (Nos. 1-699), by L. Amundsen. Ann Arbor, 1935.

[**O. Mich. II** = *Papyri and Ostraca from Karanis* (P. Mich. VI. pp. 143-199 ; Nos. 700-971), by H. C. Youtie & O.M. Pearl. Ann Arbor, 1944.]

[**O. Mich. III** = *Papyri and Ostraca from Karanis* 2nd ser. (P. Mich. VIII, pp. 167-209 ; Nos. 972-1111), by H.C. Youtie. Ann Arbor, 1951.]

O. Osl. = *Ostraca Osloënsia*, by L. Amundsen. Oslo, 1933.

O. Pr. Joachim = *Die Prinz-Joachim-Ostraka*, by F. Preisigke & W. Spiegelberg. Strassburg, 1914.

O. Strassb. = *Griechische und grischisch-demotische Ostraka der Universitäts-und Landesbibliothek zu Strassburg im Elsass*, by P. Viereck. Berlin, 1923.

O. Tait = *Greek Ostraca in the Bodleian Library at Oxford and various other Collections*, by J.G. Tait. London, 1930.

(لم ينشر حتى الان الا المجلد الاول فقط)

O. Theb. = *Theban Ostraca*. London-Oxford, 1913.

(هذه الشقافات مكتوبة اما بالهيراطيقيةأو الديموطيقية أواليونانية أو القبطية ، واليونانية منها منشورة بقلم J.G. Milne)

O. Wilb. = *Les Ostraca grecs de la Collection Charles-Edwin Wilbour au Musée de Brooklyn*, by C. Préaux. New-York, 1935.

W.O. = *Griechische Ostraka aus Aegypten und Nubien*, by U. Wilcken. Leipzig — Berlin, 1899. 2 vols.

Wadi Sarga = *Wadi Sarga : Coptic and Greek Texts*, by W. E. Crum & H. I. Bell, 1922.

(ويحتوى على اوراق بردية وشقافات ، مكتوبة بالقبطيةاواليونانية . والاستاذ « بل » هو الذى نشر النصوص اليونانية)

كما توجد شقافات كثيرة منشورة مع المجموعات البرديه،مثال ذلك:
(P. Edfou ; P. Bad. IV ; P. Aberd. ; B.G.U. VIII
P. Tebt. II ; P.S.I. VIII ; P. Fay. etc.)

٢ ـ المؤلفات الحديثة :

نوصى بالكتب العــامة التالية وهى تتنـــاول كل العصر اليونانى ـ الرومانى ، فى ضوء الحقائق المستمدة من أوراق البردى بوجه خاص :

Schubart (W.), *Aegypten von Alexander dem Grossen bis auf Mohammed.* Berlin, Weidmann, 1922.

(وهو وصف عام لجميع مظاهر الحياة فى مصر ، مرتب حسب المناطق الآتية : الاسكندرية ، ومنف ، والفيوم ، وطيبة)

Winter (J.G.), *Life and Letters in the Papyri*. Ann Arbor, University of Michigan Press, 1933.

(هــذا الكتاب لايتطلب المــاما باللغة اليونانيــة ، ولو أن المؤلف يستشهد أحيانا بفقرات مكتوبة بها)

Deissmann (A.), *Light from the Ancient East*. Transl. from the German by L.R.M. Strachan. New edition, London, Hodder and Stroughton, 1927.

(ويتناول النقوش والكشــوف الاثرية فى كافــة منطقــة الشرق الاوسط ولكنه يتضمن أيضا نصوصا بردية وشقافات كثيرة من مصر، مشفوعة بالترجمة)

Schubart (W.), *Ein Jahrtausend am Nil.* Second edition, Berlin. Weidmann, 1923.

(ويتضمن ١٠١ رسالة معظمهــا من الرســائل المــدونة على أوراق البردى ، مترجمة الى الالمانية ، وقد اختارها المؤلف ليوضح بها مظاهر

الحياة الاجتماعية فى مصر اليونانية ـ الرومانية فى مختلف الفترات،
وكل رسالة مشفوعة بمقدمة قيمة وتعليق)

Meecham (H.G.), *Light from Ancient Letters : Private Correspondence in the Non-literary Papyri of Oxyrhynchus of the First Four Centuries and its Bearing on New Testament Language and Thought.* London, Allen and Unwin, 1923.

Preisigke (F.), *Antikes Leben nach den ägyptischen Papyri.* Leipzig, Teubner, 1916.

Bell (H.I.), « Hellenic Culture in Egypt », *J.E.A.*, VIII, pp. 139-155.

Jouguet (P.), « Les Destinées de l'hellénisme dans l'Egypte gréco-romaine », *Chronique d'Égypte* X, 1935, No 19, pp. 89-108.

Schubart (W.), *Die Griechen in Aegypten.* (Beihefte zum « Alten Orient », Heft 10.) Leipzig, Hinrichs, 1927.

Roberts (C.H.), « The Greek Papyri », ch. X of *The Legacy of Egypt* (Oxford, 1942.)

Hunt (A.S.), Edgar (C.G.). *Select Papyri.* 2 vols. London, Heinemann (Loeb Classical Library), 1932, 1934.

(مجموعة مختارة من النصوص البردية تمثـل كافة عصـور مصر اليونانية ـ الرومانية والبيزنطية ، مشـفوعة بالترجمـة الانجليزية ، وقليل من الملاحظات الموجزة فى الهوامش)

ونضيف الى قائمة المؤلف ، مايلى :

Hanotaux (G.), Editeur, — *Histoire de la Nation Égyptienne,* tome III. Paris, 1933.

Davis (S.), — *Race-Relations in Ancient Egypt.* London, 1951.

Bell (H.I.), — *Cults and Creeds in Graeco-Roman Egypt.* Liverpool University Press. Liverpool, 1953.



مطابع لابترى
١٦ ش الجنينة بالقاهرة ت ٧٨٦٢٩